Digitized by Birzeit University Library

التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية

محمد يونس الحسيني

الناشر
مكتبة الطاهر اخوان
يافا

مطبعة بيت المقدس — القدس

Digitized by Birzeit University Library

N. Sakkak
98978
c.2

التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية

محمد يونس الحسيني

HC 415.254 .H88 1946 c.2
147944
مكتبة جامعة بيرزيت
075914
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY

الناشر
مكتبة الطاهر امون
يافا

مطبعة بيت المقدس — القدس

Digitized by Birzeit University Library

الى

سيدتي الوالدة

براً بها

اقدم هذا الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

«كل فن وكل علم يبسط بشكل مفهوم، وكذلك كل عمل وكل سلوك خلقي، لا بد — في رأينا — وان يرمي الى شيء حسن ...» إن كان شيء حسن في هذا الكتاب فهو أنه يثير عدة مسائل تتعلق بمجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين العربية اليوم. والظاهر أننا بحاجة قصوى الى التنظيم الاقتصادي والاجتماعي. فحياتنا في الواقع، آخذة في التطور سواء أردنا ذلك، وكان على رغبة منا، أم أبينا، وجاء قسراً عنا. وهذا التطور قد بدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر وما زال يعمل عمله في البلاد إلى اليوم. فهل من الصواب لنا ان نحافظ على الاسس العائلية القديمة أو أن ننبذها وراءنا ظهرياً ونستعيض عنها بنظام آخر جديد للروابط والصلات العائلية؟ هل قانون انتقال الاراضي بالارث الساري المفعول الآن في البلاد يصلح لحياتنا الحاضرة أم أن نظام المشاعات القديم هو أصلح لحفظ الارض واستغلالها اقتصادياً؟ وهل يتلاءم مع حياتنا الحاضرة إقامة صناعات حديثة في فلسطين العربية وما هي خير الطرق لذلك؟ هل يضير صناعاتنا الزراعية تحول العمال من الزراعة في القرى الى الصناعة في المدن وما تأثير ذلك في نظام الاسرة العربية؟ ما الذي يجب علينا عمله لاعداد الوسائل للمحافظة على صحة ابنائنا؟ وما الذي يجب علينا عمله لتثقيف وتعليم ابنائنا؟

إنني لم أضع الأجوبة لهذه الاسئلة وانما أثرتها كي يتسنى لنا جميعاً أن نتكاتف ونتساند علنا نوفق إلى حلول عملية لها.

Digitized by Birzeit University Library

لقد حاولت أن أقوم ببحث علمي ، وإنني لعلى يقين تام بأن العلم المجرد لا يتعدى وصف الاشياء . من أجل ذلك حاولت أن أصف الاشياء كما تراءت لي . على انه يبدو لي ان الوصف العلمي ، إذا استحق أن يقرأه الناس لا بد وأن يترك أثراً في حياتهم العملية. وإنني لم استر المعلومات التي احرزها هذا الكتاب خلف حاجز من الكلمات والعبارات اللغوية الغريبة ، وإنما حاولت أن أكون سهل العبارة جهد الاستطاعة .

ولست أزعم أن الكتاب قد احاط بكل ما يجب دراسته لمعرفة طراز الحياة في فلسطين العربية . فهنالك مسائل كثيرة يحتاج بحث كل واحدة منها إلى كتاب مستقل خاص بها . وإنني أرجو أن يكون فاتحة لابحاث أخرى في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية تسطرها أيدي أبناء هذا الوطن العربي المقدس ، فاذا كتب له النجاح في توجيه الطبقة المفكرة في البلاد إلى ضرورة دراسة مناحي حياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، والتفكير في وضع حلول مناسبة لمشاكلنا الحاضرة، عندئذ اعتبر أنني فزت بأمنيتي ونلت الغاية التي كنت أصبو اليها عندما فكرت في تأليفه « فالعلم هو اتحاد المعرفة بالتفكر وموضوعه المسائل التي لها قيمة في ذاتها لذاتها » .

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولِي ٱلأَلْبابِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرونَ ٱللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هٰذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذابَ ٱلنَّارِ .

القدس في ١٩ محرم الحرام سنة ١٣٦٦
١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦

محمد يونس الحسيني

Digitized by Birzeit University Library

محتويات الكتاب

الفصل :	الصفحة
تعريف	١٣
١ بيت المقدس	١٧
وصف البشاري لها	٢١
خلاصة أقوال الجغرافيين فيها	٢٣
واديا بيت المقدس	٢٥
أسوار بيت المقدس	٢٦
المناخ في بيت المقدس	٢٩
سكان المدينة القدماء	٣٠
الكنعانيون والفلسطينيون	٣٢
٢ فتح العرب للقدس	٣٦
حادثتان لهرقل في طريقه إلى القدس	٣٨
العوامل الثلاثة لاضاعة الروم للقدس	٤٠
فتح العرب جند فلسطين	٤٣
تسليم القدس إلى العرب	٤٤
عهد عمر لأهل إيليا	٤٥
اختلاف الرواية بين مؤرخي الاسلام ورواة الروم في قول صفرونيوس	٤٦
آذان بلال رحمة الله عليه	٤٨
الجزية التي بينها عمر رضي الله عنه	٤٩
ولاية عبادة ابن الصامت القضاء	٥١
الصحابة الذين نزلوا بيت المقدس	٥٢

Digitized by Birzeit University Library

الصفحة

الفصل :

٣ عهد دول الاسلام ٥٦
تعاهد معاوية وعمرو بن العاص بالقدس ٥٦
الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك ٥٧
حديث (صريع الوطن) ابي قطيفة ٥٨
بنو امية وإنشاء المدن ٥٩
حكاية مثير الغرام ، لبناء قبة الصخرة ٦٠
حجارة الاميال التي أقامها عبد الملك ٦٥
الرملة مصر اسلامي ٦٥
النزعات الفكرية والاعمال العمرانية بفلسطين ٧٢
المعارك الفاصلة : حطين وعين جالوت ٧٢
حدود الارض المباركة ٧٧
الفتنة بين قيس ويمن ٨٠
الخوارزمية ٨١
الآثار العمرانية ٨٣
وصف الرحالة أوليا جلبي لحكم العثمانيين ٨٤
سور القدس الحالي ٨٧
وصف اللجنة الملكية لحالة البلاد في آخر العهد العثماني ٨٨
٤ أسباب المعيشة ٨٩
استثمار الاراضي برعي الحيوانات ٩١
رعاة البدو حول زغر وشرق بيت المقدس ٩٢
قبائل بئر السبع والنقب ٩٣
صيد الاسماك ٩٩
استثمار الاحراش ١٠٣

Digitized by Birzeit University Library

الفصل :	الصفحة
التعدين وصناعاته	١٠٧
الزراعة وصناعاتها	١٠٨
الملكية المشاعية ، ملكية الزعامة والملكية الفردية	١٠٩
درجات الوراثة في الاراضي	١١٣
زراعة الحمضيات	١١٩
تربية الحيوانات	١٢٠
الصناعة	١٢٢
تقدم البلاد الصناعي يرجع الى عاملين	١٢٦
العامل الطبيعي	١٢٦
العامل الوضعي	١٢٨
العوامل الاربعة التي تقف امام الصناعة العربية	١٣٧
التجارة في فلسطين قبل الحرب الكبرى	١٤٢
تجارة فلسطين الخارجية بعد الحرب الكبرى	١٤٧
تجارة فلسطين مع الاقطار الشقيقة	١٥٠
الصدقات	١٥٢
أصناف الفقراء	١٥٣
التشريع الاسلامي في النفقة	١٥٥
خاصكي سلطان	١٥٨
الشؤون الاجتماعية اليوم	١٦٠
٥ مستوى المعيشة	١٦٢
دراسة مستوى المعيشة	١٦٢
مستوى المعيشة في العراق	١٦٥
سكان المدن وسكان القرى	١٦٦

Digitized by Birzeit University Library

الفصل :	الصفحة
خلاصة الاحصاءات الحيوية	١٦٧
نظام الاسرة العربية	١٧٠
اسرة الابوة	١٧٠
اسرة الجذع	١٧١
الاسرة المتغيرة	١٧٢
طرق المواصلات	١٧٣
الوسائل والاعمال الصحية	١٧٥
الثروة الوطنية	١٧٨
الدخل الوطني	١٨٢
الدخل من الاراضي الزراعية	١٨٣
الحد الادنى للمعيشة من الارض	١٨٥
المساكن	١٨٦
المناطق الحقيرة	١٨٨
الصحافة	١٩٢
النظام القضائي	١٩٤
التعليم	١٩٥
المعاملات البنكية	٢٠١
خاتمة في تعليل سبب ارتقاء مستوى المعيشة	٢٠٢

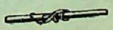

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

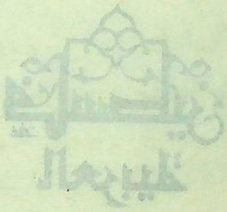

Digitized by Birzeit University Library

تعريف

يبحث هذا الكتاب التطور الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين العربية، وتستند معلوماته : إلى دراسة جغرافية وتاريخية اخترنا أن يكون موضوعها بيت المقدس نظراً لأن هـذه المدينة كانت وما تزال العاصمة الدينية والسياسية لهذا القطر العربي منذ أن عرفه العرب والاسلام ، إلا خلال برهة وجيزة انتقلت العاصمة في خلالها إلى الرملة ، وقطب الرحى للحوادث التاريخية التي تركت أثراً في سكان البلاد عامة منذ أن كان الفتح العربي لهذه الديار ، وقد شملت هذه الدراسة أيضاً أعظم الأحداث وأجل الاعمال في البلاد ابان عهد دول الاسلام فيها ؛ وتستند أيضاً إلى تلخيص ما اخترناه من المواد عن حال السكان وحركاتهم في طلبهم للرزق من القديم إلى العصر الحاضر ؛ ودراسة ما تيسر لنا جمعه من الاحصاءات الحيوية لاظهار مستوى المعيشة عند العرب وتعليل أسباب ما بلغوه من التقدم الاقتصادي والاجتماعي في مضمار الحياة . وهذه الدراسة تحتوي على قسمين : قسم عملي يتألف من مراقبة شؤون الحياة في البلاد يومياً وجمع الوقائع التي انتجتها تلك المراقبة ؛ وقسم نظري يتألف من دراسة تلك الوقائع في ضوء النظريات الاقتصادية والاجتماعية . ولعل عبد الرحمن ابن خلدون رحمة الله عليه كان أول من أفرد في كتابه من علمـــاء العرب فصولا خاصة بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، فقد تصدى في مقدمته لبحث العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب وفي القبائل أهل العصبية ، ووصف خصالهم وطرق معاشهم وفيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة ، وفي اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع ، وفي ان

Digitized by Birzeit University Library

الفلاحة من معاش المستضعفين وفي معنى التجارة ومذاهبها وفي الاحتكار والاسعار والحضارة ، وما إلى ذلك . وقد طبق القواعد الكلية التي استنبطها من دراسته وابحاثه عـــلى العرب عامـة وعلى المدن والامصار بافريقية الاسلامية خاصة .

وكان فردريك (لوبلي) أول من وضع أساساً منظماً بين المحدثين لدراسة المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية في السكان منذ أن كانت الثورة الافرنسية في سنة ١٧٨٩ . ثم تلاه علماء آخرون اقتبسوا من أصوله واغترفوا من بحره فوضعوا اساليب للبحث جديدة وتمذهبوا فيه بمذاهب مختلفة وما يزال إلى اليوم الاخصائيون ومؤرخو الثقافة وغيرهم من علماء الاقتصاد والاجتماع يزودون الرأي العام في جميع انحاء العالم بنتيجة ابحاثهم في مختلف الشؤون الاقتصادية والاجتماعية .

لقد تأثر لوبلي بالاحداث التي وقعت في فرنسا بعد الثورة الافرنسية وحروب نابليون . وقد كانت الآراء بصدد مستقبل فرنسا ما تزال غامضة ومتضاربة . لقـد خسرت فرنسا مكانتها وقوتها ، وبدت حياة السكان فيها مزعزعة متغيرة يعوزها الاستقرار الدائم . فكان تاريخ هـذه الفترة مرتعاً خصباً يبني لوبلي عليه أركان دراساته .

ان هـذا الدور من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية الحـاضرة هو أيضاً دور تطور وانتقال ، تصادم بين القوى والمؤثرات . ففي البلاد حركة صناعية تجذب سكان القرى الى المدن مؤثرين العمل في المصانع كعمال على العمل في اراضيهم والمعيشة من الزراعة . وليست كل المصانع التي يعملون فيها عربية وانما القسم الاكبر منها يعود إما للجيش أو للحكومة ولشركات البترول . ويقصد هؤلاء الناس بهجرتهم من القرية إلى المدينة محاولة تحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . ومعنى ذلك ان الصناعة أخذت تزاحم الزراعة في

Digitized by Birzeit University Library

اجتذاب العمال اليها . واجور عمال الصناعة تزيد عادة عـــلى اجور العمال الزراعيين . إن تحول عناصر الانتاج (الارض والعمل والرأسمال) من مشروع إلى آخر يسير في الغالب — اذا تساوت جميع العوامل الاخرى — طبقاً لمبادىء حركة الابتعاد من المناطق التي يكثر فيه الضغط الاقتصادي إلى المناطق التي يكون فيها هذا الضغط بسيطاً أول الامر ثم يزداد إلى ان يتساوى في الحالين ، وبعبارة اخرى سيستمر العمال الزراعيون يهاجرون من القرى للعمل في الصناعات إلى ان تتساوى الاجور اليومية في الزراعة والصناعة . وهذا من الامور التي يجب علينا الالتفات اليها كي نتمكن من المحافظة على أراضينا . وقد بحث هذا الكتاب كثيراً من الاسباب التي ينتج عنها ذلك : فقانون انتقال الاراضي الاميرية بالارث يجعل حصة الوارث بعد جيل أو جيلين تهبط الى بضعة أمتار مربعة من الارض الزراعية لا يستفيد منهـــا إذا ما حاول استغلالها لضآلة مساحتها ، ثم ان توزيع الممتلكات الزراعية التي تختص بها عائلة أو فرد واحد على مواقع مختلفة يبعد الواحد منها عن الآخر في جهات القرية يعتبر مسألة اخرى جدية : لقد كان نظام المشاعات في البلاد يعطي كل شخص على قيد الحياة أرضاً زراعية يستثمرها ويعيش من خيراتها. أما الآن فالارض الزراعية في البلاد لا تكفي لاعاشة اهلها العرب كما بينت ذلك «لجنة التقسيم» في تقريرها سنة ١٩٣٨ ، فما الذي عملناه لدراسة هذا الوضع وحل مشكلته. هنالك مشروعات كبيرة للري وضعها الخبراء فهل إذا نفذت هذه المشروعات ونحن في وضعنا الحاضر نستطيع ان نستفيد منها أم أنها ستكون لمصلحة اليهود فقط . لقد وضع خبيران اميركيان (سافج وهيز) مشروعين للري في فلسطين لسقي مساحة من الارض تمتد من عكا الى غزة في السهل الساحلي ، وتشمل اراضي الحولة والحمة ووادي البيرة وجنوبي بيسان واراضي سهول الرملة من رأس العين الى بيت جبرين واراضي الفارعة الى البحر الميت ، ومن بيت جبرين الى وادي غزة واراضي النقب ومرج ابن عامر

Digitized by Birzeit University Library

وغيرها من سهول البلاد ويبلغ بمجموع مساحتها حوالي (٣١٩٢٠٠٠) دونم قدرت تكاليف مشروعات ريها بما لا يقل عن (٦٠٧٤١٠٠٠) من الجنيهات وقدرت كميات المياه بحوالي (٢٢٠٠) مليون متر مكعب من المياه سنوياً منها (١٧٠٠) مليون متر مكعب من مياه الاردن والعوجا والجداول والروافد والينابيع الاخرى والباقي من مياه الامطار التي تخزن في الخزانات أيام الشتاء. إن هذه المشروعات يهودية وهي ترمي الى تسهيل هجرة اليهود واسكانهم في البلاد . وإننا لن نثق بالحكومـــة إن قامت بهما قبل ان يعين نفعها لحياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، ولا سيما ان التصميمات لهذه المشروعات تبحث في تحويل جميع مياه فلسطين يضاف اليها مياه نهر القاسمية والزهراني في لبنان لري الاراضي التي يملكها اليهود والاراضي الحكومية التي يطمع فيها اليهود. فهل سنظل مكتوفي الايدي تجاه ذلك إلى أن يصيبنا مثل ما أصابنا في امتياز كهرباء (روتنبرج) وامتياز البحر الميت وغيرها . علينا أن ندرس هـــذه المشكلة ونجد لها حلا مناسباً لتحسين حال الذين يعيشون على الزراعة بيننا .

والآن قبل ان ننهي هذا التعريف نود ان نشير الى ان الاحصاءات التي وردت في هذا الكتاب والثروة والدخل الذي يبناه فيه كان بالجنيه الفلسطيني ، وقوة هذا الجنيه الشرائية قد هبطت مدة الحرب وكانت في ايلول سنة ١٩٤٥ ٥٥ ٪ من القيمة الشرائية للجنيه الاسترليني ، وقد كانت قبل الحرب مساوية لها تماماً . اي انك تستطيع ان تشتري في المملكة المتحدة بخمسمئة وخمسين ملا ما تشتريه بجنيه واحد في فلسطين ، وهـذا الامر ولا شك له تأثيره في ابحاث الكتاب .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الاول

بيت المقدس

غايتنا في هذا البحث ان نكتب سلسلة تاريخية متصلة الحلقات وكاملة السبك للحوادث التي تتصل بمدينة بيت المقدس منذ فجر التاريخ حتى يوم الناس هذا . بيد ان هذا المطلب يبدو بادىء الامر عسير المنال ؛ ذلك لان سرد تاريخ هذه المدينة كاملا يستغرق مجلدات كثيرة وجهداً كبيراً لا تتسع له فصول هذا الكتاب، ولاسيما ان مصادر البحث من كتب مطبوعة واوراق مخطوطة وحجارة منقوشة وآثار من الماضي باقية هنا وهناك تكاد لا تقع تحت حصر . لقد ورد ذكر بيت المقدس لاول مرة — على ما وصلت اليه معرفتنا الحاضرة — في الالواح الخزفية التي اكتشفت في تل العمارنة وهي منقوشة بالخط المسماري ويرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. سردت تلك الالواح المدن الفلسطينية الخاضعة لحكم البابليين فكانت من ضمنها بيت المقدس . ثم جاء عهد التوراة فانتزع النبي داود مدينة بيت المقدس ، وكان اسمها آنئذ يبوس ، من اليبوسيين حوالي سنة الف قبل الميلاد . ثم وسعها سليمان وزينها بالهيكل واصبحت عاصمة ملكه ، وفي عهد رحبوعام سلمت المدينة الى شيشاك الذي سماه العرب فرعون مصر الاعرج في رواية ابن تغري بردي . وغزاها سنحاريب الاشوري وحاصرها زمن الملك حزقيا ، وسلمت فيما بعد على يد يهوياقين الى نبوخذنصر ، فخرب الهيكل وسبى السكان ونقلهم الى بلاد بابل ؛ وفي حوالي سنة ٣٥٨ قبل الميلاد بنى نحميا الهيكل الثاني .

وجاء دور هيرودس الكبير فبنى الهيكل الثالث وحاول تجديد المدينة

Digitized by Birzeit University Library

واعادتها الى مثل ما كانت عليه ايام سليمان ؛ وتلا ذلك من جسام الحوادث التي سجلها تاريخ هذه المدينة سقوطها في يد تيطس الروماني ، سنة ٧٠ بعد الميلاد. لقد حوصرت بيت المقدس وفتحت منذ ان عرفها التاريخ الى اليوم ثمانية وثلاثين مرة فتعاقبت عليها امم وتداولتها دول وانتشرت فيها الوثنية واليهودية وظهرت فيهـــا الديانة المسيحية وقدسها الاسلام ازماناً متعاقبة واصبحت الآن وقد انطبق عليها قول شيشرون في اثينا :—

« ليس في تلك المدينة بقيع واحد او موطىء لقدم انسان لم تصبه يد الحدثان بمصائبها . »

لم يعين لنا التاريخ زمن بناء بيت المقدس ولسنا نعلم بمعرفتنا الحاضرة سبب بنائها على وجه التحقيق ؛ كما ان العوامل التي ادت الى اختيار هـــذه البقعة من الارض لتشاد عليها المدينة التاريخية العظيمة ما زالت غامضة. فهل جاء بناؤها في هذا المكان عرضاً واتفاقاً ؟ ام هل كانت ثمة عوامل خاصة حملت الذين خططوا المدينة لاول مرة في التاريخ على اختيار ذلك المكان لها؟ وهذا ما سنحاول البحث فيه الآن .

يقول علماء الجغرافيا الانسانية (انثروبوجوغرافيا) ان الطبيعة تهيء مواقع المدن وان الانسان ينظم تلك المواقع على الوجه الذي يتلاءم مع رغباته ويتفق مع حاجاته . غير ان هنالك خواصاً طوبوغرافية تجعل بعض الاراضي صالحة للاغراض التي يتوخاها الانسان من المدن ، ويحول انعدامها دون ملائمة البعض الآخر منها لتلك الاغراض . وبعبارة اخرى هنالك مواقع من الارض تصلح لان تقوم بوظيفة او اكثر من الوظائف التي حددها الانسان للمدن ، وهنالك مواقع لا تصلح لذلك ابداً .

وعندما نفكر في وظائف المدن تخطر على بالنا بادىء الامر قيمة تلك المواقع من الوجهة الحربية ، وجهة الدفاع عن المدينة عندما تمس الحاجة الى

Digitized by Birzeit University Library

ذلك . وقد كان هذا امراً طبيعياً في الازمنة السالفة . ألم تكن الحصون المحيطة بالمدن القديمة هي التي اعطت تلك المدن اسمها ورمزها وشعارها ؟ وتلك الحصون لم تكن نتيجة عمل يد الانسان وحده بل ان الطبيعة هيأت ليد الانسان الاسباب فاعطتها جبالا شاهقة او تلالا ذات منحدرات عالية من جوانبها مثلا ، او حبت الناس الذين يطلبون لانفسهم مأوى يقيهم عادية المغيرين بجبال صخرية تطل على سهول شاسعة . وان كان يحيق باسفل الجبال منحنى تجري فيه مياه احد الانهار الكبيرة مثلا يكون ذلك الموقع اكثر ملاءمة لبناء مدينة فيها يسهل الدفاع عنها . والجزر البحرية هي من اصلح المواقع الطبيعية لتشييد المدن والدفاع عنها . والامثلة على خواص المواقع الملائمة لتخطيط المدن الحربية كثيرة يستغرق ايرادها صفحات عديدة.

والامثلة كذلك كثيرة على المدن التي نشأت في التاريخ في مواقع لم تهيئها الطبيعة لان تكون صالحة للقيام بوظائف معينة ولم يكن في تلك المواقع جبل صخري شاهق او منحني تجري فيه مياه نهر او ما شابه ذلك وإنما نشأت تلك المدن وشيدت بمحض ارادة الانسان .

والواقع ان الانسان في الغالب لم يكن لينشىء المدن نتيجة لتخطيطه لها، وانما انشأ بالصدفة مدناً في حال السلم ، ومدناً في حال الحرب . انشأ مدناً للتجارة والمقايضة في السهول المفتوحة الجيدة الهواء والكثيرة الخيرات والغنية بالمواد التجارية . وعندما تغيرت الحال السياسية واصبح خطر الحرب والمهاجمة قاب قوسين او ادنى من هذه المدن التجارية العظيمة التي بنيت في السهول الواسعة دون ما تفكير في الطوارىء ، او توقع لخطر الحرب ، كان لزاماً على السكان ان يدافعوا عن مدنهم تلك ويحصنوها بسرعة فائقة لتصد عادية المغيرين وتحول دون اكتساحهم لها واستيلائهم عليها . ذلك لانه ليس من السهل دائماً ان تهجر مدينة ما حالا او ان يتحول عنها سكانها الى

Digitized by Birzeit University Library

مدن اخرى . فعندما هدد برابرة الشمال في اوربا بالهجوم ، وعندما اضطرب حبل السلم الروماني ، وعندما اضطر السكان لتحصين المدن التجارية العظيمة التي اقيمت على مفرق طرق التجارة العالمية ، لم يكن لسكان تلك المدن المهلة الكافية لتحصين مدنهم او ليجدوا المعدات المقتضاة للهجرة الى اماكن يأمنون فيها على اموالهم وانفسهم. غير انه كثيراً ما نجد في البلاد ذات السهول الشاسعة مدناً حربية كثيرة ، اقيمت وليس لها من وسائل الدفاع الطبيعية ما يؤهلها للصمود امام محاصرة الاعداء لها ولكنها اعتمدت على وسائل الدفاع المصطنعة المؤلفة غالباً من الاسوار والخنادق . والظاهر ان العرب كانوا يعتمدون في تخطيط مدنهم على وسائل الدفاع الاصطناعية وقد اعتادوا ان يبنوا مدنهم العظيمة إما في الاودية الخصبة وإما في السهول التي تقطعها الانهار وكانوا يبتعدون بهذه المدن عن الحدود التي تقع فيها المناوشات الحربية آونة بعد اخرى . ان نشوء المجتمع المدني وحياته يتوقفان على علاقاته السياسية والدولية في ازمان مختلفة . وعندما كانت امة في القرون الوسطى ، قوية عسكريا وسياسياً لم يكن يخطر ببالها ان تختار لتخطيط مدنها المواقع المحصنة تحصيناً طبيعياً . وانما كانت تختار لها وسط المناطق الخصبة الكثيرة الخيرات ، او المناطق التي تمر بها طرق التجارة الكبرى او المناطق التي لها مميزات خاصة لا علاقة للعوامل الجغرافية بها وانما قد تكون باجمعها من عمل الانسان ، كأن تختار منطقة معينة لغير ما سبب لان تكون عاصمة الملك ، او لان تنشأ فيها معاهد للعلوم ومراكز للتعليم ، او لان تصبح مركزاً دينياً عظيماً . قد يجد من يبحث في تاريخ تمصير الامصار في الاسلام ان عاملا واحداً او اكثر من هذه العوامل هو الذي حدا بالعرب لاختيارهم خطة لبناء مدنهم . ولنرجع الآن الى بيت المقدس ، ونقرأ وصف ابي عبدالله البشاري المقدسي في « احسن التقاسيم » لها ، ثم لنقرأ ما كتبه ياقوت وغيره من

Digitized by Birzeit University Library

جغرافيي العرب في ذلك الوصف لنعلل سبب اختيار بناة المدينة الاول لانشائها على الجبال التي لا يزال بنيانها منتشراً فيها حتى اليوم. ووصف المقدسي للمدينة انما هو وصف لموقعها وصقعها ولذلك فهو ينطبق عليها في جميع الازمان. قال:

« بيت المقدس ليس في مدائن الكور اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقابن والفرما، لا شديدة البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها الثلج. وسألني القاضي ابو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء فقلت سجسج لا حر ولا برد شديد، قال: هذا صفة الجنة. بنيانهم حجر لا ترى احسن منه ولا اتقن من بنائها ولا اعف من اهلها ولا اطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من مشاهدها. عنبها خطير وليس لمعنقتها نظير، وفيها كل حاذق وطبيب، واليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب. وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار ابي يحيى ابن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سئلت: اي بلد اجل؟ قلت بلدنا. قيل فايها اطيب؟ قلت بلدنا. قيل فايها افضل؟ قلت بلدنا. قيل فايها احسن؟ قلت بلدنا. قيل فايها اكثر خيرات؟ قلت بلدنا. قيل فايها اكبر؟ قلت بلدنا. فتعجب اهل المجلس من ذلك! وقيل انت رجل محصل وقد ادعيت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلا كصاحب النساقة مع الحجاج، قلت: — اما قولي اجل — فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة — فمن كان من ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها؛ ومن كان من ابناء الآخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها. واما طيب الهواء، فانه لا سم لبردها ولا اذى لحرها. واما الحسن، فلا ترى احسن من بنيانها ولا انظف منها ولا انزه من مسجدها. واما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادة كالاترج واللوز والرطب والجوز

Digitized by Birzeit University Library

والتين والموز . واما الفضل ، فلانها عرصة يوم القيامة ومنها المحشر واليها المنشر ، وانما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ وبوم القيامة تزفان اليها فتحوي الفضل كله . واما الكبر ، فالخلائق كلهم يحشرون اليها ، فاي ارض اوسع منها ، فاستحسنوا ذلك واقروا به . »

ونقل ياقوت في معجم البلدان وصف المقدسي هذا لبيت المقدس وقدم له بقوله :— « وفي المثل قتل ارضاً عالمها وقتلت ارض جاهلها . هذا قول ابي عبدالله محمد بن احمد بن البناء البشاري المقدسي فله كتاب في اخبار بلدان الاسلام وقد وصف بيت المقدس فاحسن فالاولى ان نذكر قوله لانه اعرف ببلده وان كان قد تغير بعده بعض معالمها . » وياقوت — على ما يظهر — قد زار بيت المقدس بنفسه ووصفها بقوله : « والذي شاهدته انا منها ان ارضها وضياعها وقراها كلها جبـــال شاهقة وليس حولها ولا بالقرب منها ارض وطيئة البتة ، وزروعها على الجبال واطرافها ، بالفؤوس لان الدواب لا صنع لها هنالك . واما نفس المدينة فهي على فضاء في وسط تلك الجبـال ، وارضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها وفيها اسواق كثيرة وعمارات حسنة . »

وقبل ان نحاول تعليل اسباب بناء مدينة بيت المقدس ، لنقرأ ما ذكره المقدسي عن حدودها علنا نجد في ذلك ما يسهل لنا الوصول الى هدفنا ، قال :

« وحد القدس ما حول ايليا الى اربعين ميلا(١) يدخل في ذلك القصبة ومدنها واثنا عشر ميلا في البحر وصغر ومآب وخمسة اميال من البادية ،

---

١. الميل — على ما ذكر القلقشندي ، ج ١٤ ص ٣٦٦ — ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي او ثلث فرسخ . وقد ذكر جورج آدم سميث ان العرب اقتبسوا الميل من الرومان (ص ٦٩٧ Historical Geography of the Holy Land وقدر Lagrange الميـــل العربي بـ (٢٥٠٠) متر (انظر مجـــلة التوراة لسنة ١٨٩٤ ص ١٣٦) .

Digitized by Birzeit University Library

ومن قبل القبلة الى ما وراء الكسيفة ، وما يحاذيها من قبل الشمال تخوم نابلس وهذه الارض مباركة كما قال الله تعالى، مشجرة الجبال، زريعة السهول من غير سقي ولا انهار كما قال الرجلان لموسى بن عمران : وجدنا ارضاً تفيض لبناً وعسلا » . اما القاضي مجير الدين فذكر في الانس الجليل ان « مدينة القدس كانت ارضها في قديم الزمان صحراء بين اودية وجبال وهي خالية لا بناء فيها ولا عمارة . ومما حكي في امر بناء القدس في تواريخ الامم السالفة ان ملكيصادق نزل بارض بيت المقدس وقطن بكهف من جبالها يتعبد فيه ، واشتهر امره حتى بلغ ملوك الارض الذين هم بالقرب من ارض بيت المقدس .... فحضروا اليه ودفعوا اليه مالا ليعمر به مدينة القدس فاختطها وعمرها .. »

نخلص من اقوال هؤلاء الجغرافيين الى تقرير الوقائع التالية :—

أ : ان ارض مدينة بيت المقدس وقراها كلها جبال شامخة .

ب : ان حدود منطقة هذه المدينة تمتد فتشمل سهول الغور شرقاً والسهول التي تتخلل الجبال من الشمال والجنوب والغرب .

ج : ان حاصلات هذه المناطق كانت متنوعة وان خيراتها كانت كثيرة في الايام السالفة .

اما موقع المدينة في وسط جبال شامخة فقد اهلها لان تكون حصينة امام هجمات المغيرين الذين كان عليهم ان يقطعوا طرقاً وعرة ، ومسالك خطره للوصول الى حدود المدينة . ولعل التنبه الى فكرة الدفاع عن المدينة جاء متأخراً عن تاريخ بنائها بدليل الاسوار التي بنيت فيما بعد عندما اصبح لها منزلة دينية ومكانة تجارية . واما السهول التي كانت قريبة من بيت المقدس فقد جعلت لها مكانة تجارية فكان سكانها يصعدون الى المدينة بمحصولات اراضيهم ؛ وكانت تلك المحصولات — على ما روى الجغرافيون

Digitized by Birzeit University Library

كثيرة ــ ويستبدلونها بمحصولات الجبال وبذلك ازداد عدد سكان المدينة بوجود التجار وانتشر العمران فيها . وبعد ، فالذي يلوح لنا ان المدينة انشئت بادىء الرأي نتيجة اتفاق وصدفة ، ثم اهلهـا موقعها الجغرافي وصلاحيتها للاغراض الحربية لان تتسع وتنمو معتمدة في حياة سكانها على توسط موقعها بين المنتجين والمستهلكين من سكان السهول القريبة منها والجبال المحيطة بها .

وقد بنيت المدينة القديمة فوق جبلين هما في الواقع هضبتـان ، جبل صهيون وجبل موريه . ويرتفع جبل صهيون حوالي ٢٤٠٠ قدم عن سطح البحر الابيض المتوسط او بحر الروم كما عرفه العرب ؛ ويرتفع جبل موريه حوالي ٢٣٠٠ قدم عن سطح هذا البحر . وهاتان الهضبتان تقعان في وسط سلسلة الجبال الممتدة من الصحراء جنوباً الى سهل مرج ابن عامر شمالا . وقد بني المسجد الاقصى وقبة الصخرة المشرفة فوق جبل موريه ، وبنيت كنيسة القيامة والقلعة وبقية اقسام المدينة الغربية على جبل صهيون . والوجهة الدينية هي التي جعلت لهاتين الهضبتين قيمة في التاريخ . ولو جاء بناء المدينة عن غير طريق العَرَض والاتفاق لاختار بناتها الاولون مكاناً اكثر ارتفاعا من صهيون وموريه . ان جبل الزيتون يواجه المدينة من الشرق وجبل سكوبس ، او جبل الرجاء ـ على ما سماه العرب ـ يواجه المدينة من الشمال ويزيد ارتفاعهما عن المدينة بحوالي ١٠٠ قدم ، ومع ذلك لم تُبنَ بيت المقدس عليهما ؛ وجبل النبي صموئيل الواقع عـلى مسافة ستة كيلومترات تقريباً في الجهة الشمالية الغربية من المدينة هو اعلى منها . وتل العاصور الواقع الى الشرق من قرية سلواد على مسافة ٢٧ كيلومتراً تقريباً من شمال المدينة يرتفع ٣٣١٨ قدم عن سطح البحر وهو اعلى جبل في فلسطين بحدودها الحالية بعد جبل الجرمق الواقع الى الشمال الغربي من مدينة صفد وهو يرتفع ٣٩٣٤ قدماً عن سطح البحر . ومع ذلك لم تبن المدينة عليها .

Digitized by Birzeit University Library

اننا نرى انه بالرغم من وجود جبال اكثر ارتفاعاً من صهيون وموريه على مسافة قريبة منهما لم تبن بيت المقدس على غير هاتين الهضبتين . على ان جبلي بيت المقدس هذين ثبتت صلاحيتهما فيما بعد لأغراض الدفاع عن المدينة بسبب احاطة واديين عميقين بهما من جميع الجهات .

يحيط وادي جهنم بالمدينة من الجنوب والغرب ويحيط بها وادي قدرون من الشمال والشرق . يبدأ وادي جهنم من قرب الزاوية الشمالية الغربية لسور المدينة الحالي ويتجه الى حيث بركة ومقبره ماملا الاسلامية في الجهة الغربية من المدينة، ثم ينحرف الى الجنوب حيث بركة السلطان ومنها ينحدر الى الشرق فيحيط بجبل المكبر - وهو الذي اعلن منه سيدنا عمر بن الخطاب التكبير عندما ظهرت له بيت المقدس من الشمال - ويعرف في هذه الجهة بوادي الربابة ويستمر الى ان يتصل بوادي قدرون عند البئر التي اسماها العرب « بئر ايوب » جنوبي قرية سلوان الاسلامية ، وهذه البقعة منخفضة عن ذروة جبل موريه ، بحوالي ٣٥٠ قدماً . اما وادي قدرون ، ويسميه سكان المدينة اليوم وادي ستنا مريم فيبدأ من بقعة تبعد حوالي ١٥٠٠ متر عن سور بيت المقدس الشمالي الحالي ، تعرف بوادي الجوز وينحرف نحو الشرق محيطاً بسور المدينة الحالي من هذه الجهة اسفل مقبرة باب الرحمة الاسلامية ، التي فيها قبرا الصحابيين شداد ابن أوس وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ، ويتجه عندئذ نحو الجنوب فيتصل بوادي جهنم عند بئر ايوب كما ذكر سابقاً .

لقد جعل هذان الواديان من المدينة حصناً منيعاً يجعل وصول السالك اليها على غير رغبة من اهلها امراً محفوفاً بالمخاطر . وقد عزز الدفاع عنها باحاطتها باسوار عظيمة اكتنفتها من جميع جهاتها . والظاهر ان اول سور بني كان يحيط بمدينة « يبوس » ذلك لأن يوسيفوس يقول عند ذكر فتح النبي داود للمدينة

Digitized by Birzeit University Library

«ان الاستيلاء عليها تعتوره صعوبات جمة وعقبات كأداء نظراً لمناعة اسوارها وطبيعة موقعها.» وقد كان سور اليبوسيين يحيط بهضبة صهيون من جميع جهاتها إلا ان مناعته كانت على اشدها في الجهة الشمالية حيث لم يكن غور الوادي عميقاً. ولما احتل داود المدينة واصبحت «يبوس» بيت المقدس ايام سليمان اصلحت اسوار المدينة واضيفت اليها اقسام اخرى جديدة. وحينما رجع السكان من بابل اعاد نحميا بناء الاسوار في حوالي سنة ٤٥٠ قبل المسيح. ولكن هذه الاسوار كان يعوزها الاتقان والمناعة؛ كانت ضعيفة مزلزلة اذا قيست بالتي اخذت مكانها فلم تقوَ على الوقوف امام الهجمات المتعاقبة على المدينة فازالتها هجمات الفرس والمصريين والاشوريين والرومان.

بيد ان المؤرخين يقولون إنه كان على حد المدينة الشمالي في عهد السيد المسيح سوران واصطلحوا اليوم على تسمية الجنوبي منهما بالسور القديم او السور الاول وهو يبدأ من برج داود قرب البقيع المعروف اليوم بباب الخليل ويتجه نحو الشمال الى ان يتصل بسور الهيكل الغربي. ويقول يوسيفوس ان هذا السور كان حصيناً جداً يرد عادية كل مغير بسبب الاودية التي كانت محيطة به من جهة، وبسبب الهضبة التي اقيم عليها فوق عدوة تلك الاودية من جهة اخرى».

ان اتجاه السور الثاني وموقعه ما يزالان غير معينين على وجه التحقيق فيوسيفوس يقول «يبتدىء السور الثاني من الباب المعروف بباب جنات وهو احد ابواب السور الاول، وهو يحيط بقسم المدينة الشمالي ويمتد الى حيث حصن انطونيو. غير ان يوسيفوس بقوله هذا لم يزدنا إلا جهالة بموقع هذا السور فباب جنات لا يزال مجهول الموقع عند الاثريين. وقد استنتج بعض المؤرخين من اكتشاف بقايا سور قديم في الاساس الذي شيدت

Digitized by Birzeit University Library

عليه جراند نيو هوتل في داخل باب الخليل ومدرسة الفرير قرب باب الجديد ، ان باب جنات هذا يقع قرب برج هيبيكوس عند باب الخليل . قال بعض الاثريين : ان على تعيين موقع السور الثاني تتوقف مسألة صحة نسبة كنيسة القيامة الى قبر السيد المسيح . وقد وجد بين المسيحيين من قال عندما اكتشف آثار السور الثاني مكان مدرسة الفرير « انه ليس صحيحاً كون قبر السيد المسيح يقع في كنيسة القيامة الحالية ؛ ذلك لان تنفيذ الحكم والدفن وقع خارج اسوار المدينة التي كانت قائمة في تلك الايام على مقربة من احد الابواب . وان مكاني التنفيذ والدفن كانا متجاورين في بستان ، وان التنفيذ كان في مكان بارز على مقربة من طريق عمومي. وهذه الاوصاف الضرورية للمكان لا تنطبق على كنيسة القيامة وانما هي موجودة بأجمعها في بقعة تقع غربي الزاوية الادهمية خارج سور المدينة الشمالي الحالي بين باب العمود وباب الساهرة . » لقد صرح بهذا الرأي واعلنه اجنرال غوردن باشا الذي قتله الدراويش في السودان في اواخر القرن الماضي. ومهما يكن من امر فان السور الثاني احاط بمساحة شاسعة من الارض تقع شمالي السور الاول وكان طرفه الشرقي يقع حيث يقوم اليوم باب العمود، ويتجه من هناك نحو الجنوب الى ان يصل حصن انطونيو في البقعة المعروفة اليوم بقبور مجاهدي صلاح الدين خارج باب الحرم الشريف المسمى بباب الملك فيصل ولم يعين المؤرخون اسماء بناة هذا السور او تاريخ بنائه ، وكل ما نعرفه ان هذا السور كان قائماً مكان السور الشمالي الحالي وممتداً من باب الجديد الى باب العامود .

اما السور الثالث فقد قال يوسيفوس ان الذي بناه كان هيرودس وقد حمله على بنائه رغبته في حماية احياء القدس الشمالية التي استجدت شمال السور الثاني من المغيرين ، وقد ابتدأ في البناء من برج هيبيكوس قرب باب الخليل واتجه نحو الشمال ثم امتد من الغرب الى الشرق الى ان اتصل

Digitized by Birzeit University Library

بالسور القديم في عدوة وادي قدرون الغربية. وقد ابتدأ الاثريون منذ النصف الاول من القرن الماضي في اكتشاف اقسام من هذا السور فاكتشفوا حتى الآن قسماً يبلغ طوله حوالي الكيلومتر الواحد اوله في في الهضبة التي تقع عليها ساحة المسكوبية في الغرب ونهايته غربي مدرسة الآثار الاميركية في طريق صلاح الدين في الشرق[١]. وقد استخدمت بعض اقسام من هذا السور اساساً لبنايات قديمة بعضها يرجع عهده الى ايام البيزنطيين والبعض الآخر الى اوائل العهد العربي للمدينة. ووجدت على طول خط هذا السور آثار لاربعة ابراج طول الواحد منها يتراوح بين التسعة امتار والاثني عشر متراً، ووجدت آثار مدخل احد تلك الابراج. وقد كان السائد الى عهد قريب ان هيرودس هو الذي بنى هذا السور بعد مرور اثنتي عشرة سنة على محاكمة السيد المسيح، إلا ان بعض الاثريين عارضوا هذا الرأي وزعموا ان السور يرجع عهده الى ايام حكم اليهود للمدينة. وقام بين الاثريين اخيراً الآب فنسان الدومنيكي وادعى ان هذا الذي اكتشف لا يمت الى السور الثالث بأية وشيجة، وان السور الثالث كان قائماً مكان سور المدينة الشمالي الحالي[٢]. وما زالت المسألة غير مستقرة بين فريقي الاثريين الذين يدعون ادعاءآت متناقضة.

هذه خلاصة تاريخية عن اسوار بيت المقدس التي بنيت لتعزيز الدفاع عن المدينة في العهود المختلفة التي سبقت الفتح الاسلامي. اما السور الذي ما زال يحيط بمدينة القدس منذ القديم الى اليوم فسنعرض له عند التحدث عن حكم العثمانيين للمدينة.

---

١. انظر رسالة ماير وسوكينيك في التنقيب عن السور الثالث سنة ١٩٢٧.

٢. انظر Jérusalem, Recherches de Topographic etc. Par Vincent و The Sites of the Crucificatoin etc., by Richmond.

Digitized by Birzeit University Library

والآن نرى ان هذا البحث يظل ناقصاً اذا لم نسرد الاسماء التي لبيت المقدس منذ نشأتها الى الآن. لقد كان اسم المدينة في زمن اليبوسيين «يبوس» وعرفت فيما بعد بأورشليم اي «بيت المقدس» وسميت «صهيون» نسبة الى احد جبليها، وعرفت باسم «ايليا» وذكر ياقوت ان معناه «بيت الله» وبيت المقدس، اي البيت الذي يتطهر به من الذنوب في رواية ياقوت، والقدس الشريف. غير ان الاسم الذي يغلب عليهـــا اليوم هو بالعربية القدس وبالافرنجية اورشليم.

المناخ في بيت المقدس

لسنا نجد بلداً في العـالم مساحته ضئيلة ومناخ كل بقعة فيه يختلف عن الاخرى كفلسطين، فالحرارة فيه تبلغ درجة الحرارة المألوفة في مناطق خط الاستواء، وجبل الجرمق تكاد لا تفارقه الثلوج في اشد ايام الصيف حرارة؛ وهذا الامر ناتج عن طبيعة الارض: فبينما نجد جبل الجرمق مثلا يرتفع عن سطح البحر ٣٩٣٤ قدماً نجد ان البحر الميت ينخفض عن سطح البحر حوالي ١٣٠٠ قدم، وتتراوح درجة الحرارة في القدس بين ٤٦ فهرنهيت في شهر يناير و ٧٤ في شهري يوليو واغسطس، ويتراوح ارتفـاع اراضي المدينة عن سطح البحر من ٧٠٨ امتار في البراق الشريف و ٧٤٤ متراً فـــوق الصخرة المشرفة في المسجد الاقصى و ٧٦٦ في كنيسة القيامة و ٧٣٣ متراً في شارع مأمن الله خارج السور الحـــالي و ٨٣٣ متراً عند خزان المـــاء في محلة الشيخ بدر على طريق يافا و ٨٢٣ متراً فوق جبل الرجاء «سكوبس» في شمال المدينة الجديدة. ويبلغ معدل سقوط الامطار في القـــدس ٢٦ انشاً او ٤٨٩ ملليمتراً في السنة ويبلغ عدد الايام الممطرة حوالي ٦٠ يوماً في السنة.

Digitized by Birzeit University Library

ان وقوع المدينة بين الجبال الشامخة من الشمال والاراضي الواطئة الحارة في الجنوب والشرق، يعرضها الى تغييرات فجائية في درجة الحرارة، إلا ان هذه التغييرات لا تجعل الحياة في المدينة في جميع فصول السنة محفوفة باخطار صحية. وفي الواقع ان لبيت المقدس فصلين فقط: فصل الشتاء، وفصل الصيف، ويبدأ فصل الشتاء عادة في اكتوبر، ويبدأ الصيف عادة في منتصف شهر مايس من كل سنة.

ومدينة القدس شديدة الرياح تأتيها، في الشتاء من الغرب، رياح البحر الابيض المتوسط حاملة معها الامطار، وتهب فيها في الصيف ريح باردة من الشمال الغربي. وتهب في المدينة احياناً رياح حارة تعرف عند السكان «بالشرقية» وهي مؤذية للانسان والحيوان، وضارة بالنباتات، تجلب معها الرمال من صحراء التيه. هذه الرياح تسمى في شهر مايس «بالخماسين» وتبلغ درجة الحرارة اثناء هبوبها ٩٠ فهرنهيت.

وبالرغم من هذه التغييرات في درجة الحرارة وهبوب هذه الرياح فاننا لا نجد في العالم إلا اماكن قليلة جداً مناخها ملائم لصحة الانسان اكثر من بيت المقدس، كما يقول المؤرخ الاستاذ جورج ادم سميث (الجغرافيا التاريخية للارض المقدسة).

سكان بيت المقدس القدماء

يجمع العلماء على ان سكان القدس القدماء جاؤوها من الجزيرة العربية في هجراتهم الكبيرة منها الى خارج موطنهم الاصلي، تلك الهجرات التي قاموا بها لاسباب طبيعية او اقتصادية، دفعاً للظمأ والنصب والمخمصة. او لاسباب سياسية. وهم يعددون منها خمساً[١] وقعت اولاها في حوالي سنة ٣٥٠٠

١. سكان الشرق الادنى القدماء للاستاذ وورل الاميركي طبعة سنة ١٩٢٧

Digitized by Birzeit University Library

قبل المسيح فنزحت جموع كبيرة من سكان الجزيرة الى بابل ؛ ووقعت الثانية في حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل المسيح فهبط الكنعانيون فلسطين ، ونزل فريق آخر من سكان الجزيرة بلاد ما بين النهرين ؛ وكانت الثالثة في حوالي سنة ١٥٠٠ قبل المسيح فاخرجت الآراميين الى العراق وسوريا . وكانت الرابعة هجرة الانباط الى شرقي الاردن حيث اقاموا البتراء عاصمة لهم . والخامسة خروج جيوش العرب في الفتح الاسلامي . وهناك عدا عن هذه ، هجرات كانت تقوم بها إما قبيلة بمفردها او قبائل متعددة ومتجمعة ، تخرج من الجزيرة انتجاعا للكلأ وطلباً للرزق . وتكاد تنحصر المنافذ التي خرجوا منها من الجزيرة في اربعة : فهم سلكوا طريق باب المندب الى الحبشة وقطعوا برزخ السويس الى مصر ، وقطعوا الفرات الى ارض ما بين النهرين ، واجتازوا الاردن الى فلسطين وسوريا الغربية . تلك كانت هجرات دائمة منظمة وكان الى جانبها هجرات ورحلات موقتة تقوم بها القبائل في بعض ايام السنة ثم تعود ادراجها الى ديارها الاصلية ، من ذلك هجرة مدين في الازمان الخالية وارتحال بعض قبائل عنزة من حدود الجزيرة في الصيف وعودتهم اليها في الخريف في الوقت الحاضر . وقد جاء بنو جفنة من جنوب الجزيرة في اليمن حوالي القرن الاول بعد الميلاد . واقام منهم الرومان حماة لاطراف امبراطوريتهم واسسوا دولة الغساسنة في الشام ، وكان منهم « الحارث بن جبلة عامل فلسطين الذي ابلى بلاء حسناً في قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩ بعد الميلاد ، واصبحت لهم منزلة سامية جداً في مراتب الدولة البيزنطية » . وقد اسر الفرس احد قواد الغساسنة واسمه عمرو في الحرب التي وقعت ليلة الفصح سنة ٥٣١ بين الفرس وبين الروم بقيادة بليزاريوس وانتهت بانتصار جيش الروم[١] . »

---

١. تاريخ ملوك غسان لنولدكه ، ترجمة الدكتور الجوزي والدكتور زريق .

Digitized by Birzeit University Library

ان سكان القدس القدماء جاءوا الى فلسطين مع هذه الهجرات واقاموا فيها بجاورهم في انحاء فلسطين الاخرى الفلسطينيون الذين قطعوا النيل اليها وحاربوا اليهود فيها[١].

نخلص من هذا الى تقرير امرين :—

اولا : ان سكان القدس القدماء الذين سبقوا عهد اليهود فيها كانوا عرباً جاءوها من الجزيرة على موجات متعاقبة اولاها كانت سنة ٣٥٠٠ قبل المسيح، وان الكنعانيين (والكنعانيون والفينيقيون والمؤآبيون والادوميون واليبوسيون يعرفون في التاريخ بالعمارنة[٢]) هم الذين سكنوا المدينة قروناً طويلة قبل احتلال الرومان.

ثانياً : ان الفلسطينيين واليهود جاءوا الى فلسطين من وادي النيل فاحتل الاولون ساحل البلاد واقام اليهود في بعض المناطق الجبلية وانتزعوا بيت المقدس من ايدي اليبوسيين واحتلوها زمناً الى ان طردهم منها الرومان وعادت فيما بعد الى اصحابها العرب ايام الفتح الاسلامي.

وسنبين فيما يلي طرفاً من حياة الكنعانيين والفلسطينيين لعلاقة بحثنا بهم.

يقول الباحثون ان الكنعانيين اسم اطلق على السكان الذين اقاموا في الاراضي الواطئة من فلسطين قبل مجيء ابراهيم الخليل عليه السلام اليها ؛ وقد توسعوا في اطلاق هذا الاسم على جميع سكان فلسطين وسوريا الذين تكلموا اللغة الكنعانية فجعلوه يشمل : المؤآبيين والأمونيين والأدوميين والكنعانيين الذين لهم اتصال ببني اسرائيل والفنيقيين والعمارنة.

وقد كان لسكان فلسطين، من الكنعانيين لغة وثقافة خاصة بهم، إلا انهم كانوا قبائل وجماعات كثيرة. لقد اكتشف في الواح تل العمارنة ان

---

١. الجغرافيا التاريخية للاراضي المقدسة، لجورج ادم سميث طبعة ٨٠.
٢. سكان الشرق الادنى للاستاذ وورل.

Digitized by Birzeit University Library

احد الحكام المصريين كتب الى فرعون مصر وضمن كتابه بعض الكلمات والمصطلحات الكنعانية . وروى التاريخ ان اليهود انفسهم حينما هبطوا فلسطين نبذوا لغتهم ـ وكانت نوعاً من اللغة الآرامية ـ واقتبسوا من الكنعانيين لغتهم واخذوا يستعملونها زاعمين ان موسى عليه السلام تكلم بها .

ولسنا نعرف غير القليل عن المدنية الكنعانية ، وهذا القليل هو ما ورد في « العهد القديم » متضمناً بعض المسائل والاختلافات الدينية التي كانت سائدة بين هؤلاء الاقوام . لقد كان الكنعانيون امة زراعية تعلم منها العبرانيون طراز الحياة المدنية وحياة الاستقرار . وكانوا يعبدون « البعل » ويقدسون « الجن » ، ويعتبرون ان هؤلاء يقيمون في الاماكن التي يسكنونها هم انفسهم . ويقول المؤرخون انهم جلبوا هذه العادة — عادة تقديس الجن — معهم من الجزيرة العربية . واندمج الكنعانيون آخر الامر في السكان الذين جاءوا البلاد تباعاً فيما بعد ، واندثروا كأمة مستقلة ولم يبق لهم اليوم اثر معروف .

ولما جاء ابراهيم الخليل عليه السلام وضرب اطنابه واقام بيوته في ارض كنعان وجد سكان البلاد التي جاء اليها يمارسون حياة الاستقرار . وكانت القدس مدينة معترفاً بحاكمها كملك للقاطعة التي تقع فيها ، ويقدم اليه جميع الامراء المجاورين لبلاده آيات الولاء واسباب الاحترام ؛ وكانت هذه المدينة مقدسة منذ ذلك اليوم ؛ وكان ملكيصادق كنعانياً ، ولكننا لسنا نعلم بمعرفتنا الحاضرة اسم القبيلة الكنعانية الخاصة التي انتمى اليها . واما اليبوسيون الذين حكموا القدس ايام احتلال الاسرائيليين لها فكانوا قبيلة محلية تنتسب الى العموريين وهم من القبائل الكنعانية .

اما الفينيقيون فيعتبرون انفسهم من ابناء الجزيرة العربية . يزعمون انهم

Digitized by Birzeit University Library

نزحوا اولا الى فلسطين من سواحل الخليج الفارسي ثم نزلوا في الساحل الواقع بين لبنان والبحر الابيض المتوسط .

واما الفلسطينيون الذين قاوموا اليهود في فلسطين فقد وصلوا الى حدود بيت المقدس مرات ، ولكنهم لم يقتحموها ابداً . ومن المسلم به عند المؤرخين ان هؤلاء الناس قد وفدوا الى فلسطين من وادي النيل وترسموا في طريقهم ساحل البحر فنزلوا خمس مدن هي : غزة وعسقلان وسدود وعاقر وجات . فأما غزة فلا تزال مدينة عربية حتى اليوم ، ولكن عسقلان وسدود وعاقر قد اصبحت اليوم في عداد القرى العربية في فلسطين وزالت عنها صفات المدن ؛ واما جات فليس لها اثر ما في هذه الايام ولكنها كانت تقع الى شرقي عاقر . ويلاحظ ان جميع هذه القرى تقع الى الجنوب من نهر روبين ؛ ولم يرو لنا التاريخ ان الفلسطينيين اسسوا مدناً لهم الى الشمال من هذا النهر ، ويعتقد المؤرخون أن الفلسطينيين جاءوا بادىء الامر الى مصر من جزيرة كريت : ذلك لانهم يعرفون ايضاً بالكريتيين . وقد ارجع بعضهم عبارة «الفلسطينيين» الى الاصل السامي «فِلاس» ومعناه المهاجر وقالوا ان الفلسطينيين كانت تعني «الغرباء» . لقد اكتشفت في جزيرة كريت آثار تدل على ان بعض القبائل السامية احتلت هذه الجزيرة قبل ان عرفت فلسطين ، «الفلسطينيين» ولذلك ذهب البعض الى ان الفلسطينيين هم من اصل تلك القبائل السامية التي احتلت كريت واختلطت اول الامر باهلها ثم عادت ونزلت المناطق الساحلية من مصر عند مصب النيل في البحر الابيض المتوسط وتحولت فيما بعد من ذلك المكان ونزلت على ساحل فلسطين الجنوبي . وقد اقتبس الفلسطينيون من الكنعانيين لغتهم واخذوا عنهم دينهم . واقتتلوا هم والمهاجرون

Digitized by Birzeit University Library

الاسرائيليون في الارض التي هاجر اليها الفريقان اجيالا كثيرة ؛ ولكن الفلسطينيين فقدوا وحدتهم واستقلالهم آخر الامر واندمجوا في غيرهم من السكان : ذلك لان موقع مدنهم في ملتقى قارتي آسيا وافريقيا جعلهم تحت رحمة غزاة المصريين تارة وتحت رحمة الغزاة الاشوريين تارة اخرى ؛ ووقعوا آخر الامر تحت تأثير تيار الثقافة اليونانية الذي اجتاح ساحلهم عند وثبة الاسكندر الكبير .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثاني

فتح العرب للقـــدس

ارسل كسرى ملك الفرس العظيم قائده « خوريام » لفتح بيت المقدس في السنة الخامسة من حكم هرقل الامبراطور وهي سنة ٦١٥ بعد الميلاد ؛ وكان ذلك بعد ان استولى الفرس على دمشق وقيصرية : ارسل خوريام الى اهل بيت المقدس يدعوهم الى تسليم المدينة فاستجاب اليهود لدعوته وغلبوا النصارى على امرهم واسلموا المدينة الى قواد الفرس . « وما هي إلا شهور قليلة بعد ذلك حتى وثب المسيحيون بالفرس فقتلوا قادتهم وملكوا الامر على الجنود المرابطة واغلقوا ابواب المدينة وعند ذلك جاء « شاه-ورز » وحاصرهم ثم ساعده اليهود على هدم الاسوار ، فاستطاع جنوده ان يدخلوا المدينة في اليوم التاسع عشر من مجيئه ، وكان دخولهم من ثقب احدثوه في الاسوار ، واخذوا المدينة عنوة ، واعقب ذلك مشاهد مريعة من التقتيل والنهب والتدمير ، فبلغ عدد القتلى ٥٧٠٠٠ وعدد الاسرى ٣٥٠٠٠ كان بينهم آلاف كثيرة من الرهبان والقديسين والراهبـات . وبعد ان قضى الفرس في المدينة واحداً وعشرين يوماً في القتـــل والنهب خرجوا منها واوقدوا فيها النيران ، فخربت بذلك كنيسة القبر المقدس وسواها من البيع العظمى التي بناها قسطنطين. وكان ذلك في شهر مايو سنة ٦١٥ بعد الميلاد. » وحدث ان نجا من القتل راهب اسمه «مودستوس» فهرب لائذاً الى الجنوب عندما نزلت ببيت المقدس كوارث السيف والنار ثم عاد بعد لأي من الزمن واخذ يحوب ارض فلسطين طالباً المعونة على اعادة بناء الكنائس المخربة فنجح مسعاه وجمع مبلغاً كبيراً من المال حمله معه الى المدينة فوجد

Digitized by Birzeit University Library

ان اليهود خسروا مكانتهم عند الفرس ، واصبحت الحظوة للمسيحيين عند اولئك الوثنيين واقاموا « مودستوس » حاكماً دنيوياً ورئيساً دينياً ، واتيح له اعادة بناء الكنائس ، وامر كسرى بالاحسان الى الاسرى واعادتهم الى اوطانهم واجاز للناس اخراج اليهود من بيت المقدس فتسابقوا الى انفاذ امره بطردهم وتشتيتهم جزاءاً لهم بما قدمت ايديهم من التنكيل بالنصارى حين اسلموا مدينتهم الى قواد فارس .

وقد ظلت مدينة بيت المقدس خاضعة لحكم الفرس اربعة عشر عاماً « كانت الحرب خلالها دائمة الاستعار بين هرقل من جهة ، وقواد كسرى من الجهة الاخرى . وكانت الغلبة بادىء الامر للفرس ، فبلغت الحال بخصمهم هرقل مبلغاً سيئاً وهوى ملكه حتى صار لا يتعدى اسوار عاصمته ، فكانت جموع التتار والهون وما اليها من قبائل الهمج تضرب فيما يلي قسطنطينية من الغرب ، وكانت الجيوش الفارسية تقتحم آسيا الصغرى وتجتاح ما في طريقها بعد ان بسطت يدها على فلسطين والشام ومصر . » وقد حارت نفس هرقل امام هذه الاحداث العظيمة فتارة: نراه يبعث الى كسرى يتوسل اليه في ان يصالحه، ويرسل اليه ثلاثة من خاصته حملهم كتاباً وهدايا قيمة فيقبل كسرى الهدايا ويجيبهم على الكتاب : « قولوا لمولاكم ان دولة الروم من ارضي وما هو إلا عاص ثائر وعبد آبق وقد ارسل الينا اموالنا هدية ولكننا لن نمنحه سلاماً حتى نأتي به الى قبضة يدنا ويترك عبادة الصليب ويعبد الشمس : » وطوراً نجده امام « سرجيوس » بطريق القسطنطينية يقسم على المذبح الاكبر تحت القبة الكبرى في كنيسة (ايا صوفيا) « ان يؤدي امانته وان يقاتل في سبيل تخليص الدولة من اعداء الصليب . »

ومهما يكن من امر فان المؤرخين يجمعون على ان تغييراً مشهوداً طرأ على حياة الامبراطور منذ ذلك الحين فندب الناس الى حرب الفرس وكان

Digitized by Birzeit University Library

اقبالهم عليهـــا عظيما واجتمع اليه جيش عدته مائة وعشرون الف مقاتل واقترض من الكنائس كنوزاً عظيمة من آنية الذهب والفضة وسبكها نقوداً انفقها في تجهيز جيشه ، واختار مقراً له وميداناً لتدريب جيوشه « كليكيا » وكان ذلك منه « جرأة عظيمة ساعده عليها انه كان يملك ناحية البحر لا منازع له فيه وانه كان له من السفن عدد جد عظيم ، وكان من حسن حظ هرقل ان الفرس لم يكونوا من اهل البحار ومع ذلك فان كسرى بعد ان بعث برده الشنيع الى القيصر جهز عدداً كبيراً من السفن وامر جنده ان يعبروا عليها الى « بيزنطه » ولكن اسطول الروم هزمهم هزيمة منكرة اودت بحياة اربعة آلاف منهم وحالت بينهم وبين اعادة محاولتهم لقهر المدينة عشر سنوات اخرى جمع هرقل في نهايتها قواته واستخلف على الحكم ولده وجعل عليه وصيين ، البطريق « سرجيوس » والنبيل « بونوس » . وبدأ حملته في سنة ٦٢٢ وسار بغتة تاركاً وراءه عاصمة ملكه ومتجهاً نحـــو الجنوب يسترد مدنه الواحدة تلو الاخرى ويسطر له التاريخ الانتصار بعد الانتصار الى ان كانت سنة ٦٢٨. ففرفيها كسرى هاربا ثم قبض عليه خلفه « شيرويه » وعذبه عذابا شديداً وقتله شر قتلة. وجلا الفرس عن مصر والشام وفلسطين واخرجوا من بيت المقدس ولم يحكموها منذ ذلك التاريخ الى يومنا هـذا . عندها عاد هرقل الى وطنه « بعد ان غاب عنه ست سنوات قضاها في نضال وقتال ودخل القسطنطينية مظفراً منصوراً يحمل معه الصليب المقدس الذي خلصه ممن لا يعبدون الله . »

وسار الامبراطور في السنة التـالية ، سنة ٦٢٩ ، يقصد الحج الى بيت المقدس ، ويروي لنـــا التاريخ وقوع حادثتين لهرقل في طريقه اليها : الاولى ، وصول دحية بن خليفة الكلبي ثم الخزرجي الى قيصر وهـــو في حمص ، في رواية ، او في الرها ، في رواية اخرى . فلما اتاه بكتاب

رسول الله ﷺ جعله هرقل بين نخذيه وخاصرته . وقد ذكر الطبري هذه الحادثة في الاحداث التي كانت في سنة ست من الهجرة . وشكك بعض المؤرخين في وقوعها في هذه السنة وعينوا لها سنة ٦٢٧ . واما الحادثة الثانية فهي ان يهود طبرية وفدوا اليه عندما بلغ بلدهم وقدموا الهدايا العظيمة وطلبوا منه عهداً يضمن لهم السلامة ؛ وكان من حرصهم وحيطتهم ان اخذوا منه بذلك العهد كتابا . وسار الامبراطور في موكب عظيم الى ان دخل المدينة المقدسة من الباب الذهبي المسدود الآن والذي يعرف بباب الدهرية ، وبلغ الى شرقي المدينة فاستقبله بطريق المدينة « زكريا » وجمع حافل من السكان . على ان عهد هرقل بضمان السلامة لليهود لم يدم العمل به طويلا فقد التمس له القسوس الحجج لاحلاله من عهده « فقال له قائل انما اعطى العهد قبل ان يعلم بحقيقة ما كان منهم » فهم قد كانوا اشد من الفرس فتكا بالمسيحيين وافظع منهم جرما في تدمير الكنائس واحراقها ، وقال قائل آخر « ان هرقل لو كان قد علم بما فعله اليهود من فتك بالمسيحيين بالسيف والنار لما تردد في ان يقسو عليهم ويشتد في حكمهم » الى غير ذلك من الاقوال التي اوغرت صدره منهم . فأمر ان يجلي اليهود عن بيت المقدس ويمنعوا ان يعودوا بعد ذلك الى ما بعد اسوار المدينة بثلاثة اميال ووقعت بعد ذلك فيهم مقتله عامة « حتى لم يبق منهم احد في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب او اختفى » على ما يقول المقريزي .

قضى هرقل الشتاء في بيت المقدس وحضر فيها موت البطريق « زكريا » وعين « مودستوس » خلفا له على كرسي البطركية ولكن هذا توفي في سنة ٦٣١ بعد ان صحب القيصر الى عاصمة ملكه ومكث معه تسعة اشهر .

ولما انقضى مقام هرقل في بيت المقدس وعاد ادراجه الى بلاده لم يكن بعد قد بدا له ما في الاسلام من خطر عليه ، وقد كان النبي ﷺ قد تم

Digitized by Birzeit University Library

له نشر الاسلام في جزيرة العرب وبلغ ظله اكناف الدولة الرومانية؛ ولكن الامبراطور حسب ان هذه الحركة الجديدة لم تكن إلا ضربا من غارات اهل الصحراء التي اعتادت الامبراطورية الرومانية ان تصمد لامثالها. وكان الخلاف في بلاد الشام ومصر على اشده بين رجال الدين المسيحي ولم ينجح الامبراطور بسعيه الى التوفيق بين المذاهب المسيحية باعتناقه المذهب « المونوثيلي » . وقد عين الامبراطور الحبر القدير « صفرونيوس » ليلي إمرة الدين في بيت المقدس ظنا منه بان صفرونيوس سوف يعتنق المذهب المونوثيلي ويدع مذهب السنة « الارثوذكسي » . ولعل هذا كان العامل الاول من بين العوامل الثلاثة التي ادت الى ضياع بيت المقدس من الروم وفتح العرب لها . ذلك لان صفرونيوس حكم على الامبراطور وعلى البطارقة الذين اتبعوا المذهب المونوثيلي بالخروج على الدين وشنع عليهم في جمع من رجال الكنيسة فاضطر الامبراطور الى التضييق على معارضيه واضطهادهم الى حد جعلهم يتربصون به الدوائر ويضمرون له كل شر . قال ابو الفرج : «ولما شكا الناس الى هرقل لم يجب جوابا ، ولذلك نجانا الله من الروم على يد العرب فعظمت نعمته لدينا ان اخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرة . ان هؤلاء العرب الذين اعطاهم الله السلطان في ايامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويحلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وادبرتنا » .

وكان العامل الثاني من العوامل التي مهدت لضياع فلسطين على دولة الروم ، وفتح العرب لبيت المقدس تألب اليهود على الروم وتربصهم لهم في الصحراء ، وقلوبهم تتقد بنار الحقد وطلب الانتقام والثأر من الذين اوقعوا بهم تلك المقتلة العظيمة التي اشرنا اليها سابقا وشتتوهم في اطراف الصحراء . اجتمع اليهود في الرها ومثل كل سبط من الاثني عشر محدث

Digitized by Birzeit University Library

ينطق بلسان قبيلته ، فرأوا خلو المدينة من الجند لجلاء الفرس عنها وتأخر مسلحة الروم في الوصول اليها فاغلقوا الابواب واصلحوا حصون المدينة ورابطوا وراء الاسوار انتظاراً لمحاربة الروم واتاهم هرقل بجنوده فحاصرهم ونزلوا على حكمه حين سمح لهم ان يعودوا آمنين الى اوطانهم ولكنهم لم يؤمنوا لعهوده فولوا وجوههم شطر الصحراء واتفقوا مع جند الاسلام وصاروا له ادلاء يعينون له المواقع في اتجاهه نحو بلاد فارس بقيادة خالد ابن الوليد سنة ٦٣٤ ، ومن ثم في فتحه لفلسطين وقد راجع اليهود هرقل بعد اتفاقهم مع العرب لان يتخلى لهم عن بيت المقدس وهددوه بأنهم سيأخذون من الروم حقهم وزيادة ان لم يصدع بما امروه به ويجيبهم الى طلبهم فكان جوابه حربهم ، واضطهادهم .

واما العامل الثالث الذي ازال حكم الروم عن فلسطين ومهد للفتح الاسلامي فكان ثورة العرب من بني جفنة وغيرهم على الروم ، وقد كان هؤلاء في خدمة الامبراطور لكي يحرسوا طرق الصحراء ، فلما قطعت عنهم وظائفهم واستغنى الروم عنهم ، اساءهم ذلك ونزحوا الى قومهم وذهبوا الى ارض غزة قاصدين الى الصحراء التي في طريق جبال سيناء ، بين وادي عربة ونقب غارب . ولسنا نعلم على وجه التحقيق ما اذا كان هرقل (قيصر الروم) عاد فاسند عمالة سوريا الى احد امراء بني جفنة بعد ان انتصر على الفرس واسترد البلاد منهم ، ولكننا نعلم ان احد خصيان الروم ابى ان يدفع للعرب الذين كانوا يحمون مداخل الصحراء جعالتهم من المال الذي كانت تنقدهم اياه الدولة فيما سبق ؛ فاتحدوا مع العرب المسلمين واقتحموا واياهم البلاد حتى مدينة غزة حيث احرز العرب اول انتصار لهم على الروم في فلسطين وذلك نهار الجمعة في ١ شباط سنة ٦٣٤ . وكان هؤلاء العرب من قبائل لخم وجذام وغيرها .

Digitized by Birzeit University Library

ويلوح لنا ان هذه الفترة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية وصلتها بالفتح الاسلامي وبالقبائل العربية المتنصرة هي من اشد ازمان التاريخ تعقداً؛ فانك لا تكاد تقع على بصيص نور تعتمد عليه لينير امامك السبيل في حل عقدة معينة إلا وتقف فجأة حيال عقدة اخرى جديدة لا تمت إلى ما حللته بصلة ما: وهكذا فان الكثير من المسائل التي نشأت حول هذا الدور البيزنطي العربي بقيت الى اليوم تحتاج الى اكتشاف عناصر تاريخية جديدة دونها مؤرخون عاصروا تلك الحوادث تصل بين خيوط تلك العقد المتباينة وتجمع بين الآراء المتغايرة. ومهما يكن من امر فان انباء هزيمة جيش هرقل العظيم الذي كان اخوه «تيودور» يقوده قد وصلت الى هرقل وهو في انطاكية فتيقن — وقد فتح العرب «بصرى» عاصمة بلاد الشام القديمة — ان الامر قد افلت من يده وان الله قد خذل الامبراطورية «وجمع كبار قومه في حفل حافل في كنيسة انطاكية يستشيرهم فيما يعمل؛ فقام شيخ اشيب وقال: ان الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ولما يرتكبونه من الربا والقسوة — وكان حتما عليهم ان يؤخذوا بذنوبهم». عندها رحل هرقل الى القسطنطينية وقال إذ هو راحل: «وَداعا يا بلاد الشام وداعا ما اطول أمده، وعليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو.» وهنا تتضارب الآراء في الصليب المقدس: فيقول بعض المؤرخين ان هرقل اندفع الى بيت المقدس لا يلوي على شيء لكي ينجي الصليب المقدس من ايدي اعدائه، وقد تم له ذلك واخذ معه الصليب الى القسطنطينية. ويقول آخرون ان اهل بيت المقدس، وعلى رأسهم صفرونيوس اخذوا الصليب الاعظم وكل ما في الكنائس من الآنية وجعلوا كل ذلك عند الساحل ثم وضعوها في سفينة وبعثوا بها الى دار الملك بالقسطنطينية. وسواء أصح قول هؤلاء ام صح قول اولئك،

Digitized by Birzeit University Library

فلا شك في ان الصليب المقدس قد وصل الى القسطنطينية حين وصول هرقل اليها فاودعه في كنيسة آيا صوفيا . يقول « بتلر » ان الصليب لم ينزع نزعاً من يد صاحبه البطريق صفرونيوس بل انه ارسله مختاراً ليحفظ عند الامبراطور دلالة على ولائه له . لقد وقع ارسال الصليب الى القسطنطينية في الليلة التي عقبت بلوغ انباء قدوم العرب الى بيت المقدس بعد موقعة اليرموك الحاسمة (رجب سنة خمس عشرة وفق ١٠ اغسطس سنة ٦٣٦) .

وقد فتح العرب قبل فتح بيت المقدس جل جند فلسطين (وسمي العرب فلسطين جنداً لانه جمع كوراً والتجند التجمع وجندت جنداً اي جمعت جمعاً على ما نقل ياقوت) وكان يمتد من رفح جنوبا الى اللجون شمالا — وتضم اليه زغر وديار قوم لوط وجبال الشراه الى ايلة وهي عقبة مصر ، ففتح عمرو ابن العاص غزة في خلافة ابي بكر رضي الله عنه ، ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس على ان اعطى السكان الامان على انفسهم واموالهم ومنازلهم وعلى ان تكون الجزية على رقابهم والخراج على ارضهم . ثم فتح مدينة لد وارضها ثم فتح يبنى وعمواس وبيت جبرين واتخذ بها ضيعة تدعى عجلان باسم مولى له، وفتح يافا — ويقال فتحها معاوية — وفتح عمرو رفح على مثل ذلك وحاصر بعد ذلك بيت المقدس — وكانت تسمى ايلياء — فقدم عليه ابو عبيدة بن الجراح ونزل الاردن فعسكر بها وبعث الرسل الى اهل ايلياء وكتب اليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم من ابى عبيدة بن الجراح الى بطارقة اهل ايلياء وسكانها : سلام عـــلى من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول . اما بعد فاننا ندعوكم الى شهادة ان لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور ؛ فان شهدتم بذلك حرمت علينـــا دماؤكم واموالكم وذراريكم وكنتم لنا اخوانا ؛ وإن أبيتم — فاقروا لنا باداء الجزية عن يد وانتم صاغرون ؛ وإن ابيتم سرت اليكم بقوم هم اشد حبا للموت

Digitized by Birzeit University Library

منكم لشرب الخمر واكل لحم الخنزير، ثم لا ارجع عنكم ان شاء الله ابداً حتى اقتل مقاتليكم واسبي ذراريكم .»

انتظر ابو عبيدة اهل ايليا ان يأتوه وان يصالحوه ولكنهم لم يردوا عليه بجواب، فسار اليهم وحاصرهم مع عمرو بن العاص حصاراً شديداً وضيق عليهم فخرجوا اليه ذات يوم فقاتلوا المسلمين ساعة ولكنهم انهزموا امام هجمات المسلمين المركزة ودخلوا المدينة واغلقوا ابوابها دون المهاجمين، وكان الذي ولي القتال من امراء المسلمين خالد بن الوليد ويزيد بن ابي سفيان كل امير منهما بجانب. اقام ابو عبيدة يومين او ثلاثة في اثناء الحصار واوجب على نفسه انه غير مقلع عن المدينة إلا بعد ان يفتحها؛ عندها طلب اهل المدينة من ابي عبيدة الامان والصلح على مثل ما صولح عليه اهل مدن الشام من اداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على ان يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه .

واستمر حصار العرب لبيت المقدس قبل تسليمها اليهم مدة شتاء سنة ١٦ و ١٧ للهجرة (٦٣٦ — ٦٣٧) كله ولعله استطال اكثر من ذلك . فقد كان بالمدينة شيء كثير من المؤونة وكانت اسوارها قد اصلحت وحصنت بعد خروج الفرس منها، فلما جاء العرب اليها ظلوا حولها عدة اشهر يحيطون باسوارها ويرمون جندها بالسهام، ويقاتلون من خرج اليهم منهم ولكنهم لم يستطيعوا ان ينالوا منهم إلا يسيراً . لانه لم يكن للعرب عهد بالحصار في حروبهم ولم تكن لهم المعدات المقتضاة لنقب الاسوار وتخريبها . ولكن لم يكن احد ليشك في النتيجة : لقد كان محتوماً ان يدخل العرب المدينة طالت مدة حصارهم لها ام قصرت . فان لم يدخلوها عنوة فسيسلمها اهلها اليهم صلحاً لانه لم تكن لهم قوة على رفع حصار العرب عنها، ولم تأت من قبل الرومان انباء تؤملهم في النجدة، بل كانت الانباء — على النقيض من

Digitized by Birzeit University Library

هذا الامر — تترى بالمصائب والنكبات ؛ فلما نفذت المؤونة وقرب وقوع المجاعة بين السكان فاوض البطريق الشيخ صفرنيوس قواد العرب من فوق الاسوار على التسليم بشرط ان يأتي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه ويتسلم المدينة ويتولى بنفسه عقد الصلح كما بينا .

كتب ابو عبيدة بن الجراح الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بما طلب اهل ايلياء فسار عن المدينة حتى نزل الجابية — والجابية قرية من اعمال دمشق من ناحية الجولان في شمالي حوران — فلقيه فيها من امراء الاجناد يزيد ابن ابي سفيان وابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، لقيه هؤلاء على الخيول عليهم الديباج والحرير فأخذ عمر الحجارة ورماهم بها وقال سرع سرع ما لفتم عن رأيكم ! إياي تستقبلون في هذا الزي ، وإنما شبعتم منذ سنتين ، سرع ما ندت بكم البطنة ! وبينا عمر بالجابية إذ نظر الى كردوس من خيل مقبل فلما دنوا منه سلوا السيوف فقال عمر : هؤلاء قوم يستأمنون فأمنوهم . فأقبلوا فاذا هم اهل ايلياء ، فصالحهم عمر على فتح بيت المقدس له وكتب لهم الصلح وهو مقيم في الجابية وهذا نص عهد عمر كما رواه الطبري :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان ؛ اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها : انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن بايلياء احد من اليهود ؛ وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن ؛ وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن اقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن احب من اهل ايلياء

Digitized by Birzeit University Library

ان يسير بنفسه وماله مع الروم وبخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم : ومن كان بها من اهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى اهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا اعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن ابي سفيان .

وكتب وحضر سنة خمس عشرة . »

ولما بعث عمر بأمان اهل ايلياء وسكنها الجند واستعمل علقمة بن مجزر عليها شخص الى بيت المقدس من الجابية فرأى فرسه يتوجى فنزل عنه واتى ببرذون فركبه فهملج به البرذون وخطام ناقته بيده بعد فنزل وركب راحلته ووصل المدينة وهو اشعث اغبر خشن الملبس والهيئة ، حتى اقتحمته عيون مترفي الروم ، ونزل على الجبل الشرقي وهو طورزينا المعروف اليوم بجبل الزيتون وكان مجيئه من جنوبي المدينة من الجبل المعروف اليوم بجبل المكبر (نسبة اليه رضي الله عنه لانه هلل وكبر عندما ظهرت له مدينة القدس حال وصوله من الجابية) . وجاء رسول البطريق يرحب بعمر ويسأل الامان لصاحبه ليتولى مصالحته ومكاتبته فانعم عمر بذلك، وقدم عندها صفرونيوس اليه وهنا تختلف رواية مؤرخي الاسلام وحكاية رواة الروم فيما قاله البطريق عندما قابل الخليفة لاول مرة : قال الاولون ان البطريق ذكر ما معناه « اعلموا ايها النصارى ان في كتابنا يفتح الله بيت المقدس على يد عمر من غير قتال . » وقال الآخرون ان البطريق التفت الى اصحابه وقال : « حقاً ان هذا هو الرجس الآتي من القفر الذي ذكره النبي دانيال « ويقول « بتلر »

Digitized by Birzeit University Library

ان هذه كانت آخر قالة وردت عن ذلك البطريق «صاحب اللسان المعسول» في الدفاع عن الدين وقد شهد مرة ثانية في آخر حياته اسر بلاد المقدس، وكان حزنه وألمه لذلك الاسر الاخير سبباً في الاسراع به الى قبره.

ثبّت عمر لصفرونيوس على جبل الزيتون العهد الذي اعطاه ووقعه في الجابية؛ وتلي كتاب الصلح مرة اخرى وبعد انتهاء المجلس طلب عمر من صفرونيوس ان يدله على مسجد داود. قال نعم! وخرج عمر مقلداً بسيفه في اربعة آلاف من الصحابة متقلدين بسيوفهم ايضاً. سار البطريق بين يدي عمر في اصحابه ودخلوا المدينة — ولا يعين لنا التاريخ الباب الذي دخلوا منه ولعله كان باب الاسباط — وتوجهوا تواً الى كنيسة القيامة، ومنها الى كنيسة صهيون ولكن عمر لم يجد في المكانين الصفة التي ذكرها له رسول الله ﷺ عن مسجد داود. ثم أتى صفرونيوس بعمر الى الحرم الشريف من الباب الذي عرف فيما بعد بباب محمد فدخلوا منه الى صحن المسجد حبواً ودخل وراءهم الصحابة واستووا فيه قياماً فوجدوا على الصخرة زبلا كثيراً فبسط عمر رداءه وجعل يكنس ذلك الزبل وجعل المسلمون يكنسون معه. ثم قال عمر لكعب بن مالك المعروف بكعب الاحبار ابن ترى نجعل المصلى؟ قال الى الصخرة. قال ضاهيت والله يا ابا اسحق اليهودية، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها: اذهب اليك، فانا لم نؤمر بالصخرة ولكن امرنا بالكعبة. فجعل محراب عمر في الرواق الشرقي من المسجد الاقصى المبارك وما زالت آثاره باقية حتى اليوم. ويروي ابن حجر في الاصابة في ترجمة الصحابي ابي شعيب: ان عمر صلى عند الكنيسة ثم بزق في احد قميصيه فقيل له ابزق فيها فانه يشرك فيها بالله، فقال: ان كان يشرك فيها بالله فانه يذكر الله فيها كثيراً.

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو الاسلام عن المصلى الذي اقامه عمر

Digitized by Birzeit University Library

رضي الله عنه في الحرم الشريف ، ويؤيد رواة النصارى وصف ساحة الحرم حين دخلها عمر : يقول « اينيكوس » : ان هيلانة والدة قسطنطين لما بنت الكنائس في بيت المقدس تركت موقع الصخرة وما جاورها خراباً يباباً . ولكن النصارى القوا على الصخرة زبلا كثيراً واهمل الرومان تلك البقعة غيظاً لليهود الذين احترموها » .

وبعد ان قضى عمر في بيت المقدس اياماً ودخل الناس بعضهم في بعض يتعاملون ويتبادلون شؤون الحياة ولم يبق امير من امراء الاجناد إلا استزار عمر تهيأ عمر للرحيل الى يثرب وجمع الناس وخطب فيهم قائلا :

« يا اهل الاسلام ان الله تعالى قد صدقكم الوعد ونصركم على الاعداء واورثكم البلاد ومكن لكم في الارض فلا يكونن جزاؤه منكم إلا الشكر واياكم والعمل بالمعاصي فان العمل بالمعاصي كفر للنعم ... »

ثم حضرت الصلاة . قال عمر يا بلال ألا تؤذن لنا رحمك الله ؟ قال بلال يا امير المؤمنين والله ما اردت ان اؤذن لاحد بعد رسول الله ﷺ ولكن فسأطيعك إذا امرتني في هذه الصلاة وحدها . فلما أذن بلال وسمعت الصحابة صوته ذكروا نبيهم ﷺ فبكوا بكاء شديداً . فلما قضى عمر صلاته انصرف راجعاً للمدينة . وبقي علقمة بن مجزز عاملا على بيت المقدس يصلي في الناس ويقيم شعائر الاسلام وينظر في مصالح البلاد . وعلقمة هـــذا كناني مدلجي صحب رسول الله « صلعم » الى تبوك فبعثه منها الى فلسطين وشهد اليرموك وحضر الجابية وكان عاملا لعمر على حرب فلسطين وقد بعثه عمر في سنة عشرين في جيش الى الحبشة في البحر فأصيبوا فجعل عمر على نفسه ان لا يحمل في البحر احداً (ترجمة علقمة في الاصابة) . وكان فتح بيت المقدس في ربيع الآخرة سنة ست عشرة على رواية الطبري ، وفي سنة سبع عشرة حسب رواية البلاذري . والرواية الثانية هي الاصح لانها

Digitized by Birzeit University Library

تتفق مع التاريخ الذي عينه مؤرخو الروم للفتح العربي وهو سنة ٦٣٧ م .

وولى عمر بن الخطاب خلفه بيت المقدس للصلاة بالنـــاس سلامة بن قيصر الحضرمي من اصحاب رسول الله (صلعم) فمكث في هذه الولاية زمناً ثم رجع الى مصر بعد فتحها وعاد الى بيت المقدس والياً لمعاوية عليها ومات فيها ودفن في مقبرة مأمن الله .

وبين عمر لعامله هذا حدود النصارى والحدود المباحة للمسلمين . قال : وقف عمر على رأس السوق في باب الخليل فقال لمن هـذا الصف مشيراً الى سوق البزازين (وهو وادي الطواحين في هذه الايام) فقالوا للنصارى . فقال لمن هذا الصف الغربي الذي فيـه حمام السوق (وهو حارة النصارى اليوم) فقالوا للنصارى . فقال بيده هكذا مشيراً الى السوقين : هذا لهم وهذا لهم — يعني للنصارى ، وهذا لنا مباح يعني السوق الاوسط الذي بين الصفين وهو السوق الكبير (سوق خان الزيت اليوم) الذي كانت فيه قبة الرصاص.

والذي يبدو من كتاب عمر ان سكان المدينة عند الفتح كانوا من متنصرة العرب ومن الروم ومن نفر قليل من اليهود كانوا قد هربوا او اختفوا عندما امر هرقل باجلائهم عن بيت المقدس ؛ ذلك لان الكتـاب يتحدث عن ثلاث فئات من السكان : يتحدث عن اهل ايلياء وهؤلاء كانوا — على ما يلوح لنا — من النصارى العرب عامة ، ويتحدث عن الروم وهم من رعايا الامبراطور هرقل ، ويتحدث ايضاً عن اليهود . فيتعهد بان يحافظ على الحالة الراهنة التي اوجدهم فيها هرقل ، فلا يسكن منهم احد بايلياء مع النصارى لان هرقل اجلاهم عن المدينة وحظر عليهم ان يعودوا لمسافة تقل عن الثلاثة اميال وراء اسوارها .

وقد بين عمر بن الخطاب الجزية التي اوجبها بكتابه على اهل بيت المقدس واخذها عماله منهم ؛ فقد وجبت على الرجال منهم دون النساء والصبيـان ،

Digitized by Birzeit University Library

على الموسر خمسة دنانير، وعلى الوسط اربعة، وعلى المحتاج الحراث بيده ثلاثة يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ، وان جاءوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة . ولا يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر . قال عمر : ولوا (الميتة والخنزير) اربابها فليبيعوها وخذوا منهم أثمانها .

وقد استثني من الجزية : المسكين الذي يتصدق عليه (والمسكين هو من له مال او كسب لا يكفيه) ، والاعمى الذي لا حرفة له ولا عمل ، والمقعد والزمن إذا لم يكن لهما يسار وليس على كبير فان شيخ[1] ، والمترهبون الذين في الديارات إذا لم يكن لهم يسار ايضاً .

وقد مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو راجع في مسيره على قوم قد اقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقالوا : عليهم الجزية فلم يؤدوها فهم يعذبون حتى يؤدوها . فقال عمر فما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية ؟ قالوا ، يقولون : لا نجد ، قال : فدعوهم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فاني سمعت رسول الله (صلعم) يقول « لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة » وامر بهم فخلي سبيلهم . (كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٥٠) .

اما قرى بيت المقدس التي بعضها ارض كثيرة لا يرى عليها اثر زراعة ولا بناء لاحد ولم تكن مسرحاً ولا موضع مقبرة ولا موقع محتطب ولا موضع مرعى دواب اهل القرية واغنامهم وليست بملك لاحد ولا في يد احد فقد اعتبرت مواتاً قال عمر : « من احياها فهي له ، وليس لمحتجز من

---

١. انظر صفحة ٩٣ من مخطوط كتاب فضائل البيت المقدس للخطيب الامام ابي بكر بن محمد الواسطي المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

Digitized by Birzeit University Library

بعـــد ثلاث سنين ، ذلك لان رجالا كانوا يحتجزون من الارض ما لا يعملون .

وقد ولى عمر عبادة بن الصامت الانصاري رضي الله عنه قاضياً على بيت المقدس وقد وجهه قبل ذلك الى الشام قاضياً ومعلماً فاقام بحمص ثم انتقل الى بيت المقدس حيث ولي قضاءها . وعبادة هذا هو ابن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي شهد بدراً والمشاهد كلها بعد بدر وكان احد النقباء الذين بايعوا رسول الله (صلعم) ليلة العقبة ، وروى عنه كثيراً وكان ممن جمع القرآن في عهده (صلعم) « ولما حارب بنو قينقاع بسبب ما امرهم عبد الله بن أبي — وكانوا حلفاءه — مشى عبادة بن الصامت — وكان له من الحلف مثل الذي لعبدالله بن أبي — فخلعهم وتبرأ الى الله ورسوله من حلفهم ، فنزلت : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . ونقل ابن حجر في الاصابة ان يزيد بن ابي سفيان كتب الى عمر انه « قد احتاج اهل الشام الي من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذ وعبادة وأبا الدرداء فاقام عبادة بفلسطين » وكانت قصبتها على ما روى ياقوت بيت المقدس . ودخل عبادة مصر وكان من كبار الصحابة الذين وقفوا على اقامة قبلة جامع عمرو ابن العاص .

وكان عبادة طوالا اسود جميلا توفي ببيت المقدس ودفن بها في مقبرة باب الرحمة في سنة اربع وثلاثين ، وتروى لعبادة قصص متعددة مع معاوية وانكاره عليه اشياء ، وفي بعضها رجوع معاوية له وفي بعضها شكواه الى عثمان منه ، تدل على قوته في دين الله وقيامه في الامر بالمعروف . وقـــد استنتج البعض من هذه القصص ان عبادة عاش بعد ولاية معاوية الخلافة .

وزعم البعض انه عاش الى سنة خمس واربعين وهذا وهم على ما يبدو لنا

Digitized by Birzeit University Library

فان الثقات اجمعوا على موت عبادة في سنة اربع وثلاثين واعقب عبادة في بيت المقدس ولكننا لا نعرف احداً بفلسطين ينتسب اليه اليوم (الاصابة ومسالك الابصار والانس الجليل) .

وكان عبادة يقضي بكتاب الله وسنة رسوله فان لم يجد فيهما الحكم — فيسير على منهاج بقية الصحابة — يجتهد رأيه ولا يألو .

ووجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى بيت المقدس من أئمة الصحابة نفراً يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينشرون دين الله في المدينة وما والاها من القصبات والقرى ، كان من ابعدهم ذكراً وابرزهم اثراً بين الناس شداد بن اوس وابو ريحانة القرظي ؛ فأما شداد فهو ابن اوس بن ثابت الخزرجي الانصاري ابن اخي حسان بن ثابت رضي الله عنهما فقد شهد بدراً مع ابيه وكان من الناس الذين اوتو العلم والحلم ، وفضله الصحابة على اقرانه بخصلتين : ببيان اذا نطق ، وبكظم اذا غضب . وكان شداد قوياً في دين الله جباراً على اعدائه له عبادة واجتهاد في العمل . نقل ابن حجر في الاصابة : ان شداد ابن اوس كان عند رسول الله (صلعم) وهو يجود بنفسه فقال : مالك يا شداد ؟ قال ضاقت بي الدنيا . فقال : ليس عليك : ان الشام سيفتح ، وبيت المقدس سيفتح ، وتكون انت وولدك أئمة بها ان شاء الله تعالى . فكان كما اخبر (صلعم). فسكن شداد وابناه يعلى ومحمد بيت المقدس وأموا الناس بها واعقبوا فيها وتوفي شداد ببيت المقدس سنة ثمان وخمسين وفيها أرخه غير واحد وهو ابن خمس وسبعين سنة وقبره ظاهر يزار حتى يومنا هذا في مقبرة باب الرحمة تحت سور المسجد الاقصى رضي الله عنه وارضاه . اما عقبه الذين كانوا في بيت المقدس فيقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة انه كانت — في سنة ثلاثين ومائة — « زلازل شديدة بالشام واخربت بيت المقدس واهلكت

Digitized by Birzeit University Library

اولاد شداد بن اوس فيمن هلك ، وقع منزل شداد عليهم فماتوا جميعاً وخرج اهل الشام الى البرية واقاموا اربعين يوماً . »

ويلوح لنا ان شداد خلف سلامة بن قيصر في ولاية الحسبة فكان محتسب المدينة بعد ان نزح سلامة عن بيت المقدس الى مصر؛ فكان يباشر النظر في احوال الناس والكشف عن امورهم ومصالحهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر : وقد توفرت فيه شروط والي الحسبة كلها فقد كان حراً عدلا ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة . وكانت ولايته ولاية تامة شملت ما يتعلق بحقوق الله تعالى وما يتعلق بحقوق الآدميين وما كان دائراً بينهما . رحم الله شداد ورضي عنه .

واما ابو ريحانة واسمه شمعون القرظي من بني قريظة ويقال من بني النضير واشتهر بكنية الازدي ويقال الانصاري ويقال القرشي فقد كانت له صحبة برسول الله (صلعم) وقد غزا معه بعض غزواته وقدم الشام وعسقلان ومصر وسكن بيت المقدس واقام بها يعظ الناس في المسجد الاقصى في البقعة التي اقام عمر فيها المصلى . ويقال لابي ريحانة مولى رسول الله (صلعم) وكانت ابنته ريحانة سرية رسول الله (صلعم) . لم يرو لنا التاريخ سنة وفاة ابي ريحانة ولكن المشهور انه دفن ببيت المقدس وقبره معروف في حارة السعدية بالقدس وتسميه العامة قبر الشيخ ريحان .

والصحابة الذين نزلوا بيت المقدس كثيرون يكاد عددهم لا يقع تحت حصر؛ فمنهم من جاءه زائراً ومصلياً ومنهم من اقام فيه زمناً في ولاية اوعمل او قضاء ، ولكن هنالك نفراً منهم اتخذوا هذه المدينة سكناً لهم واصبحوا في عداد اهلها واشار اليهم ابن فضل الله العمري وصاحب الانس الجليل بقولها : « ومات في بيت المقدس ، عبادة بن الصامت ، وشداد بن اوس ،

Digitized by Birzeit University Library

وابو أبي بن ام حرام ، وابو ريحانة واسمه «شمعون» ، وذو الاصابع ، وابو محمد النجاري ، هؤلاء من اهل بيت المقدس ماتوا به والذي اعقب منهم عبادة وشداد بن اوس ، وسلامة بن قيصر وفيروز الديلمي واولادهم ببيت المقدس وقبورهم بها والذين لم يعقبوا منهم ابو ريحانة وابو محمد النجاري وذو الاصابع . » (صفحة ٩٢ مخطوط فضائل البيت المقدس للواسطي) .

وقد دفن ابو أبي وذو الاصابع وابو محمد النجاري في مقبرة مأمن الله .

وقبل ان نختم هذا الفصل في فتح العرب لبيت المقدس نرى ان ننقل حادثتين وقعتا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المدينة .

قال مجير الدين الحنبلي :

ان الروم ناهضوا المسلمين القتال بعد قدوم عمر فظهر المسلمون على اماكن لم يكونوا ظهروا عليها قبل ، وظهروا يومئذ على كرم كان في ايديهم لرجل من النصارى له ذمة مع المسلمين في كرمه عنب فجعلوا يأكلونه ؛ فأتى الذمي عمر بن الخطاب فقال : يا امير المؤمنين كرمي كان في ايدي الروم فلم يستبيحوه ولم يتعرضوا له وانا رجل في ذمة مع المسلمين فلما ظهر عليه المسلمون وقعوا فيه . فدعا عمر رضي الله عنه ببرذون له فركبه عرياناً من العجلة ثم خرج يركض في اعراض المسلمين ، فكان اول من لقيه ابو هريرة يحمل فوق رأسه عنباً فقال له : وانت ايضاً يا ابا هريرة! فقال ياامير المؤمنين اصابتنا مخمصة شديدة فكان احق من اكلنا من ماله من قابلنا ، فتركه عمر . ثم اتى الكرم فنظره ، فاذا هو قد اسرعت الناس فيه فدعا عمر رضي الله عنه الذمي فقال له : كم كنت ترجو من غلة كرمك هذا ؟ فقال له شيئاً . قال فخل سبيله ، ثم اخرج عمر رضي الله عنه ثمنه الذي قال فاعطاه اياه ثم اباحه للمسلمين .

واما الحادثة الثانية فهي ان عمر قال لابي عبيدة : لم يبق امير من امراء

Digitized by Birzeit University Library

الاجناد غيرك إلا استزارني ، فقال ابو عبيدة : إني اخاف ان استزرك فتعصب عينيك في بيتي . قال فاستزرني . قال فزرني ؛ فلما اتاه عمر في بيته فاذا ليس فيه شيء إلا لبد فرسه واذا هو فراشه وسرجه وإذا هو وسادته واذا كسرة يابسة في كوة بيته . فجاء بها فوضعها على الارض بين يديه واتاه بملح جريش وكوز خزف فيه ماء . فلما نظر عمر الى ذلك بكى ، ثم التزمه وقال : انت اخي وما من احد من اصحابي إلا نال من الدنيا ونالت منه غيرك فقال ابو عبيدة : ألم اخبرك انك ستعصب عينيك .

والذي يلوح لنا بعد هذا ان فتح العرب لبيت المقدس وعهد عمر الذي بسطناه امامك وما صنع حول ذلك من اقاصيص وروايات صحيحة كل ذلك يؤيد ان اجدادنا هيأوا بالاسلام للعالم جميع ضروب الراحة والهناء وعملوا على ان يبعدوا عنه ، ما امكن ، الجور والشقاء وغيروا اوضاع معاملة الغالب للمغلوب وبسطوا قواعد التسامح الديني والاخوة الانسانية الحقة . فكان عملهم هذا اول ركن بنيت عليه المدنية الصحيحة في العالم .

يا أَيُّها ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثالث

عهد دول الاســـلام

تكاد كتب مؤرخي الاســـلام خلال الستين سنة التي تلت فتح بيت المقدس واستقرار المسلمين فيه الى حين بناء عبد الملك بن مروان قبة الصخرة المشرفة ، تخلو من وقوع حوادث ذات بال في تاريخ هذه المدينة ، اللهم إلا الاشارة الى: زيارة بعض الصحابة والتابعين للمسجد الاقصى وصلاتهم فيه والاقامة بالبيت المقدس اياماً وشهوراً او ســـنوات للتعبد والانقطاع، والاجتماعات التي كان يعقدها الامراء والساسة والمتآمرون على الحكم من امية وهاشم واتباعهم . مثال ذلك ما نقله لنا مجير الدين من قدوم امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان الى المدينة وقدوم عمرو بن العاص رضي الله عنهما اليها وتعاهدهما فيها . قال :

« بايع عمرو معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما على طلب دم عثمان وكتبا كتاباً بينهما : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تعاهد عليه معاوية بن ابي سفيان وعمرو ابن العاص ببيت المقدس بعد قتل عثمان ، وحمل كل واحد منهما صاحبه الامانة ان بيننا عهد الله ، على التناصر والتخالص والتناصح في امر الله والاسلام ولا يخذل احدنا صاحبه بشيء ، ولا يتخذ من دونه وليجة ولا يحول بيننا ولد ولا والد ابداً ما حيينا فيما استطعنا . » وكان هذا الاتفاق قد عقد سنة ٣٦ هـ. وكان عمرو قبل قدومه على معاوية « جالساً بعجلان ومعه ابناه » عبدالله ومحمد وذلك بعد ان خرج من المدينة وقال لاهلها : « والله ما يقيم احد هنا فيدركه قتل هذا الرجل (يعني امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه) إلا ضربه الله بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب . فمر به وهو بعجلان

Digitized by Birzeit University Library

ـــ وعجلان قرية من اقطاع عمرو كانت بين غزة والخليل ـــ راكب . قالوا من اين ؟ قال من المدينة . قال عمرو وما اسمك ؟ قال حرب . قال فما الخبر ؟ قال قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبويع لعلي بن ابي طالب ... » الى آخر ما رواه الطبري في هذا الباب ـ مما ليس له علاقة مباشرة ببحثنا .

وفي سنة ٧٢ هـ وقعت احداث لفتت انظار المسلمين الى بيت المقدس فقد كانت الفتنة بين عبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان يستعر أوارها منذ ثماني سنين ؛ وكانت دعوة عبد الله لنفسه بمكة والحجاز ، فكان يخطب في ايام منى وعرفة وينال من عبد الملك ويذكر مثالب بني امية ، ويقول ان جده الحكم كان طريد رسول الله (صلعم) ولعينه ، فمال اكثر اهل الشام الى ابن الزبير ، ومنعهم عبد الملك من الحج فضجوا . عندها سئم بنو امية من سكان الحجاز المقام في الشام واخذوا يفضلون ملك قريش على ملك امية ونصرة مضر على نصرة قضاعة وهموا بقبول سلطان ابن الزبير مؤيدين له او صابرين عليه ، فبنى لهم عبد الملك القبة على الصخرة والجامع الاقصى . ليصرف اهل الشام عن الحج والعمرة وليشغل امية الحجازيين واتباعهم الى حين. فصاروا يطوفون حول الصخرة كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ضحاياهم ، وصار اخوه عبـــد العزيز بن مروان صاحب مصر يعرّف بالناس بمصر ويقف بهم يوم عرفة . رأى عبد الملك بثاقب نظره ان يتمشى على سياسة «المنع بالابدال» ، فبدلا من ان يمنع الناس من الحج ، يوجههم لزيارة المسجد الاقصى في البيت المقدس . والمسجد الاقصى مبارك بنص القرآن الكريم واحد المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال في الحديث الشريف . لقد لاقت دعوته اقبالا من عامة اهل الشام وتربصاً من امية الحجازيين ، وكان حدث سياسي السبب في انشاء تلك القبة العظيمة التي ما زالت منذ بنائها من محاسن الفن الاسلامي .

Digitized by Birzeit University Library

ولعل حديث « صريع الوطن[١] » ابي قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة ابن ابي معيط ، واخباره - وهي اول ما يلقاك في كتاب الاغاني إذا نظرت فيه ، يصور لك مقدار ما قاساه عبد الملك مع رحمه وعصبيته من امية الحجازيين إبان خلافة عبدالله بن الزبير في الحجاز . كانت سياسة الدولة تقضي على عبد الملك ان يكون حليما ، وان لا يصطنع العنف في تلك الايام التي كان فيها نصف البلاد الاسلامية خارجاً عن سلطانه خاضعاً لابن الزبير.

يقول ابو الفرج ان ابا قطيفة قضى حياة سهلة ناعمة نيفاً وعشرين عاماً ، فلما كانت فتنة ابن الزبير أخرج بنو امية من الحجاز وفيهم ابو قطيفة ، فظل يتحرق على المدينة ، فأتى عباد بن زياد عبد الملك ذات يوم فقال له : إن خاله اخبره ان العراقين قد فتحا ، فقال عبد الملك لابي قطيفة ، لما كان يعلمه من حبه المدينة ، اما تسمع ما يقوله عباد عن خاله ؟ قد طابت لك المدينة الآن فقال ابو قطيفة :

اني لأحمق من يمشي على قدم ... ان غرّني في حياتي قول عباد
انشا يقول لك المصران قد فتحا ... ودون ذلك يوم شره بادي

وامتلأت نفسه جزعاً على المدينة ، وامتلأ شعره حنيناً اليها . قال :

ليت شعري وابن مني ليت ... أعلى العهد يلبن فبرام
ام كعهدي العقيق ام غيرته ... بعدي الحادثات والايام
وبأهلي بدلت عكا ولخماً ... وجذاما واين مني جذام
وتبدلت من مساكن قومي ... والقصور التي بها الآطام
كل قصر مشيد ذي أواس ... يتغنى على ذراه الحمام
اقرِ مني السلام ان جئت قومي ... وقليل لهم لدى السلام

---

١. ملحق السياسة الاسبوعية لسنة ١٩٣١ .

Digitized by Birzeit University Library

فلما بلغ ابن الزبير شعر ابي قطيفة هذا قال: حن والله ابو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ؛ من لقيه فليخبره انه آمن . فاخبر بذلك ، فانكفأ الى المدينة راجعاً ، فلم يصل اليها حتى مات .

لقد لازم عهد بني امية خاصتان ؛ انشاؤهم المدن وإعمارهم المساجد ، فاما انشاؤهم المدن فقد نتج عن حرصهم على تجنب العيش في المدن القديمة واحيائها « الحقيرة » — كما يقول علماء الاجتماع الحديث — ولا سيما في فصول السنة التي كانت تكثر فيها الاوبئة والحميات ، ورغبتهم في حياة المرح والترف ، فاقاموا لذلك الرصيفة ، وتقع اليوم بين عمان والزرقاء في شرق الاردن ، وقصر هشام الذي اكتشف حديثاً في خربة المفجر باريحا . « وقصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والزيتونة والجابية وحوارين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب واياير في البلقاء وشمالي سوريا وشرقها وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن ثوما من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لا تزال اسسه ماثلة للعيان[١] » . واقاموا مدناً اخرى خططوها على نظام صحي ليقيموا بها حاشيتهم واتباعهم كما فعل سليمان بن عبد الملك بابتنائه مدينة الرملة . واما اعمارهم المساجد فكان اول من امتاز به عبد الملك فانشأ قبة الصخرة وتبعه ابنه الوليد بن عبد الملك فانشأ المسجد الاموي بدمشق . وقد ادخل بنو امية الزخرفة في مساجدهم واستخدموا الفسيفساء الزجاجية في تزيينها . روى الحاكم في المستدرك : ان الوليد قال لأبان بن عثمان بعد ان اتم بناء مسجده بدمشق : ابن بناؤنا من بنائكم ! قال ابان : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس .

---

١. محاضرات المجمع العلمي العربي ص ٣٥٢ .

Digitized by Birzeit University Library

وكان عبد الملك « لبيباً عاقلا عالماً ملكا جباراً ، قوي الهيبة ، شديد السياسة حسن التدبير للدنيا . في ايامه نقل الديوان من الفارسية الى العربية ؛ واخترعت سياقة المستعربين ، وهو اول من نهى الرعية عن كثرة الحديث بحضرة الخلفاء ومراجعتهم ، وكانوا — قبل ذلك — يتجرأون عليهم » . وبناء قبة الصخرة كان من حسن تدبيره وشدة سياسته . واننا نورد فيما يلي طرقاً مما ذكره احمد بن محمد المقدسي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٧ هـ في الفصل السابع من كتابه « مثير الغرام بفضائل القدس والشام . »

قال العلماء رضي الله عنهم بني عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى مسجد بيت المقدس سنة سبعين من الهجرة وحمل الى بنيانه خراج مصر سبع سنين . وقال سبط ابن الجوزي في كتاب مرآة الزمان ابتدأ ببنيانه في سنة تسع وستين وفرغ منه سنة اثنتين وسبعين للهجرة . قال المصنف رحمه الله : ويقال ان الذي بنى قبة صخرة بيت المقدس وجددها سعيد بن عبد الملك بن مروان . روي عن رجا بن حيوة ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان ان عبد الملك حين هم ببناء صخرة بيت المقدس والمسجد قدم من دمشق الى البيت المقدس وبث الكتب في جميع عمله الى جميع الامصار ان عبد الملك اراد ان يبني قبة على الصخرة ، صخرة بيت المقدس ، تكن المسلمين من الحر والبرد والمسجد فكره ان يفعل ذلك دون رأي رعيته؛ فلتكتب الرعية اليه برأيهم وما هم به عليه. فوردت الكتب عليه من سائر الاعمال: امير المؤمنين رأيه موافقاً رشيداً . نسأل الله ان يتمم له ما نوى من بناء بيته وصخرته ومسجده ويجري ذلك على يده ويجعله مكرمة له ولمن مضى من سلفه . فجمع الصناع من جميع عمله كله وامرهم ان يصنعوا له صفة القبة وسمتها من قبل ان يبنوها له في صحن المسجد وامر ان يبنى بيت المال في شرقي الصخرة. فبني وهو الذي فوق على حرف الصخرة واشحن بالاموال ، ووكل عليه رجا بن حيوة ويزيد بن سلام وامرهما بالنفقة عليها والقيام بها ، وامرهم ان يفرغوا المال عليها افراغاً — دون ان ينفقوا انفاقاً واخذوا في البناء والعمارة حتى احكم وفرغ من البناء ولم يبق للمتكلم فيه كلام .

وكتب اليه بدمشق قد اتم الله تعالى لامير المؤمنين ما امر به من بناء الصخرة

Digitized by Birzeit University Library

والمسجد الاقصى وقد تبقى مما امر به امير المؤمنين من النفقة عليه بعد ان فرغ البناء واحكم مائة الف دينار : ليصرفها امير المؤمنين في احب الاشياء اليه . فكتب اليهما قد امر بها امير المؤمنين جائزة لما وليتهما من عمارة ذلك البيت الشريف المبارك . فكتبا اليه : نحن اولى ان نزيد من حلي نسائنا فضلاً عن اموالنا فاصرفها في احب الاشياء اليك . فكتب اليهما تسبك وتفرغ على القبة . فسبكت وافرغت على القبة . فما كان احد يقدر ان يتأملها مما عليها من الذهب . وهيأ لها اجلالا من لبود وأدم فاذا كان الشتاء ألبسوها تلك الاجلال لتكنها من الامطار والرياح والثلوج . وكان جابر ابن حيوة ويزيد بن سلام قد حفا الحجر بدرابزين ومن خلف الدرابزين ستور ديباج مرخاة بين العمد . وكان كل اثنين وخميس يأمرون بالزعفران فيدق ويطحن ثم يعمل من الليل ويخمر بالمسك والعنبر والماورد الجوري ثم يؤمر الخدم بالغداة فيدخلون حمام سليمان بن عبد الملك يغتسلون فيه ويتطهرون ثم يأتون الى الخزانة التي فيها الخلوق فيلقون اثوابهم عنهم ثم يخرجون من الخزانة اثواباً جدداً مروياً وهروياً وشيئاً يقال له العصب ويخرجون مناطق محلاة يشدون بها اوساطهم ثم يأخذون سطول الخلوق ثم يأتون بها حجر الصخرة فيلطخون ما يقدرون ان تناله ايديهم حتى يغمروه كله وما لم تنله ايديهم غسلوا اقدامهم ويصعدون حتى يلطخوا ما بقي منها . ثم ترفع آنية الخلوق ثم يأتون بمجامر الذهب والفضة ويوضع فيها العود القماري والند المصري بالمسك والعنبر وترخى الستور حول تلك الاعمدة كلها ثم يأخذون البخور ويدورون بها حولها حتى يحول بينهم وبين القبة من كثرته . ثم تشمر الستور فيخرج البخور وتفوح رائحته من كثرته حتى يبلغ الى رأس السوق فيشم الريح من يمر من هناك وينقطع البخور من عندهم ثم ينادي مناد في صف البزازين وغيرهم : ألا إن الصخرة قد فتحت للناس فمن اراد الصلاة فليأت فتقبل الناس مبادرين الى الصلاة في الصخرة فاكثر الناس من يدرك ان يصلي ركعتين واقلهم اربعاً فمن شم رائحته قال هذا مَنْ دخل الصخرة ثم تغسل آثار اقدامهم بالماء وتمسح بالآس الاخضر وتنشف بالمناديل وتغلق الابواب وعلى كل باب عشرة من الحجبة ولا تفتح الا يوم الاثنين ويوم الخميس ولا يدخلها في غيرها الا الخدام .

ويقول مجير الدين نقلاً عن بعض الرواة انه : «كان في السلسلة ، التي وسط القبة ،

Digitized by Birzeit University Library

على الصخرة درة ثمينة وقرنا كبش ابراهيم وتاج كسرى معلقات في ايام عبد الملك بن مروان فلما صارت الخلافة الى بني هاشم حولوها الى الكعبة حرسها الله تعالى . وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الاقصى في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة الشريفة وهي السنة التي قتل فيها عبدالله بن الزبير رضي الله عنه . ويقال ان عبد الملك وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصناع فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة التي هي شرقي قبة الصخرة التي يقال لها قبة السلسلة فاعجبه تكوينها وامر ببنائها كهيأتها . »

« وكان يسرج قبة الصخرة في ايام عبد الملك كلها ابو بكر بن الحارث بالبان المديني والزئبق الرصاصي وكان الحجبة يقولون له يا أبا بكر : مر لنا بقنديل ندهن به وتطيب فكان يجيبهم الى ذلك . » (مثير الغرام)

ولعل من الصحيح ما زعمه بعض المؤرخين الغربيين من ان بين العوامل التي ساعدت عبد الملك على بناء الصخرة امرين : اولهما : وجود بعض العمال الفنيين الذين جاء بهم هرقل لاعادة بناء الكنائس التي خربها الفرس في بيت المقدس عند احتلالهم لها . وكان هؤلاء العمال قد علموا ابناءهم اسرار صناعتهم وطرق ممارستها فلما بدىء ببناء القبة استخدم وكلاء عبد الملك هؤلاء العمال في تزيين القبة بالفسيفساء الزجاجية والرسوم المنقوشة بالالوان الثابتة . والثاني : وجود ثروة عظيمة من العمد الرخام وحجارة المرمر في انقاض الكنائس والبنايات البيزنطية المهدمة استخدمت بعد تجديد نقوشها وتسويتها التسوية المناسبة في جدران واركان القبة . (انظر قبة الصخرة لريتشموند) .

« لقد رتب عبد الملك للمسجد الاقصى من الشوام القوام ثلاثماية خادم اشتراهم له ، كلما مات منهم ميت قام مكانه ولده وولد ولده او من اهليهم ، يجري عليهم ذلك ابداً ما تناسلوا يقبضون مرتباتهم بايديهم من بيت المال »

Digitized by Birzeit University Library

«مثير الغرام»، ويسمون الاخماس لانهم مماليك اقامهم عبد الملك من خمس الاسارى ولا يخدمه غيرهم ولهم نوب يحفظونها. (ياقوت). ولعل التعامل الجاري في وظائف الاوقاف البدنية «من مات عن وظيفة فلولده». نشأ من المسجد الاقصى واستمر العمل به في الممالك الاسلامية الى ان افتى به شيخ الاسلام ابو السعود في ايام السلطان سليم وولده سليمان القانوني العثماني.

ويقول احمد بن محمد المقدسي الشافعي في مثير الغرام ـ وينقل عنه مجير الدين هذا القول ـ انه كان للمسجد خدام من اليهود لا تؤخذ منهم الجزية، عددهم عشرة رجال، وتوالدوا فصاروا عشرين رجلا لكنس اوساخ الناس في المواسم والشتاء والصيف، ولكنس المطاهر التي حول الجامع. وانه كان به من الخدم النصارى عشرة رجال اهل بيت يتوارثون خدمته لعمل الحصر وكنس حصر المسجد وكنس القني التي تجري الى صهاريج، وكنس الصهاريج ايضاً وغير ذلك، وكان له من الخدم اليهود جماعة يعملون الزجاج للقناديل والاقداح والبزاقات وغير ذلك لا يؤخذ منهم جزية، وكذلك لا يؤخذ من الذين يقومون بالسراقة والفتل التي للصابيح جارياً عليهم وعلى اولادهم ابداً ما تناسلوا من عهد عبد الملك بن مروان» الى ايام تأليف المقدسي هذا لكتابه حوالي سنة ٧٥٧هـ. وكان الخدم اليهود هم الذين يسرجون المسجد الاقصى وقبة الصخرة منذ ايام عبد الملك بن مروان الى ان كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فاخرجهم وجعل الشعالة فيه للاخماس ايضاً.

ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد: ان وظيفة المسجد الاقصى في كل شهر من الزيت كانت سبعمائة قسط بالابراهيمي وزن القسط رطل ونصف بالكبير (اي حوالي نصف واربعة كيلوغرامات) ووظيفته في كل عام من الحصر ثمانية الآف ووظيفته في كل عام من افة السر

Digitized by Birzeit University Library

لفتائل القناديل اثنا عشر ديناراً (حوالي ستة جنيهات) ولزجاج القناديل ثلاثة وثلاثون ديناراً (حوالي سبعة عشر جنيهاً) ولصناع يعملون في سطوح المسجد في كل عام خمسة عشر ديناراً .

وقد اجمع مؤرخو الاسلام على ان الذي بنى قبة الصخرة وجامع الاقصى كان عبد الملك بن مروان ولم يشذ عنهم في هذا الرأي إلا ابن الطقطقي الذي قال في « الفخري » : إن الوليد بن عبد الملك « بنى الجوامع، جامع دمشق وجامع المدينة، على ساكنها افضل السلام، والمسجد الاقصى .» وقبة الصخرة التي بناها عبد الملك بن مروان والمسجد الاقصى تقعان الآن داخل سور الحرم الشريف. وتطلق لفظة الحرم في الاسلام على اربعة مساجد : الحرم المكي والحرم النبوي في المدينة والحرم القدسي وحرم بلد سيدنا الخليل . ومساحة الحرم القدسي تبلغ ١٤١٦٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، والمساحة التي عليها قبة الصخرة المشرفة ٢٠٩٣ متراً مربعاً تقريباً والمساحة التي يشغلها اليوم المسجد الاقصى تبلغ ٤٤٠٠ متراً مربعا تقريبا .

« وقد كانت ابواب قبة الصخرة ملبسة جميعها ذهبا وفضة في خلافة عبد الملك فلما قدم الخليفة ابو جعفر المنصور الى بيت المقدس في سنة سبع وثلاثين ومائة وكان شرقي المسجد وغربيه قد وقع فرفع اليه : يا امير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد الاقصى وغربيه زمان الرجفة سنة ثلاثين ومائة؛ فلو امرت ببناء هذا المسجد وعمارته . فقال : ما عندي شيء من المال . فأمر بقلع الصفائح الذهب والفضة التي كانت على الابواب فضربت دنانير ودراهم وانفقت عليه حتى فرغ منه . ثم كانت الرجفة الثانية فوقع البناء الذي امر به ابو جعفر وقدم المهدي في سنة ثلاث وستين ومائة وهو خراب فرفع ذلك اليه فامر ببنائه . فقيل له لا يفي برده الى ما كان بيت مال المسلمين ، فكتب الى امراء الاطراف وسائر القواد ان يبني كل واحد

Digitized by Birzeit University Library

منهم رواقا فبنوه اوثق واغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي الى حد اعمدة الرخام وما كان من الاساطين المشيدة فهو محدث بعد ذلك . » وقد تم ذلك البناء في خلافة المهدي .

ولكي يسهل عبد الملك للناس زيارة بيت المقدس والطواف بقبة الصخرة المشرفة عبد جميع الطرق المؤدية اليها واقام علامات للاميال تهدي السالك الى المدينة وتعين المسافات اليها للرائح والغادي ؛ وقد اكتشف من تلك العلامات في سنة ١٨٩٤ شاهدتان من الحجر : احداهما عند الخان الاحمر في منتصف الطريق بين القدس واريحا وقد كتب عليها ما نصه :ـ « عبدالله عبد الملك امير المؤمنين رحمة الله عليه ـ من دمشق الى هذا الميل تسعة اميال ومائة . » والثانية اكتشفت عند قرية دير ايوب بالقرب من باب الواد على الطريق بين القدس ويافا وقد كتب عليها : « الطريق .... عبدالله عبد الملك امير المؤمنين رحمة الله عليه ـ من ايلياء الى هذا الميل ثمانية اميال . »

وقد حدث قبل ان ينفرط عقد القرن الاول للهجرة ان نازع مكانة بيت المقدس كعاصمة سياسية لجند فلسطين ، ظهور مدينة الرملة وتحول رجال السياسة والحكم من بني امية اليها. واننا نورد فيما يلي خلاصة ما اورده المؤرخون في بناء هذا المصر العربي الاسلامي .

تناقل المؤلفون الغربيون في ابحاثهم الزعم بان الرملة اقيمت على انقاض مدينة قديمة . قال بعضهم انها « ارمثيا »[١] وقال بعضهم انها « راماتا » وقال الآخرون انها «راماتايم» . واستمر هذا الزعم السائد في حلقات المستشرقين واوساط المبشرين أجلا طويلا الى ان طوي آخر اثر له بصدور الملحق

---

١. دائرة المعارف الاسلامية (الرملة) .

Digitized by Birzeit University Library

الخامس من دائرة المعارف الاسلامية في سنة ١٩٣٨ فقد اعلن فيه المستشرق (هونجمن) فساد هذا الزعم واهمال العلماء له لخطله . واصبح من المحقق عند اهل العلم بجغرافية فلسطين ان الرملة مدينة اسلامية بناها سليمان بن عبد الملك في سنة ٩٨ هـ و ٧١٦ م . واستندوا في ذلك الى المصادر الاسلامية الكثيرة التي سلسلها لاول مرة في كتاب واحد المستشرق «لوسترينج» في كتابه «فلسطين تحت حكم المسلمين» الصادر سنة ١٩٨٠م . واليك مقتبسات من تلك المصادر ومن مصادر اخرى لم يشر اليها ذلك المؤلف :

قال احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي في كتاب البلدان الذي ألفه سنة ٢٧٨ و ٨٩١ م ما نصه :

«ومدينة فلسطين القديمة كانت مدينة يقال لها لد ، فلما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة ابتنى مدينة الرملة وخرب مدينة لد ونقل اهل لد الى الرملة . الرملة مدينة فلسطين ولها نهر صغير منه شرب اهلها ، ونهر ابي فطرس[1] منها على اثني عشر ميلا ، وشرب اهل الرملة من الآبار ومن صهاريج يجري فيها ماء المطر واهل المدينة اخلاط من الناس من العرب والعجم وذمتها سامرة . »

وذكر الامام ابو الحسن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية و ٨٩٢ م في كتابه «فتوح البلدان» صفحة (١٤٩ — ١٥٠) ما نصه :

«وحدثني جماعة من اهل العلم بامر الشام ، قالوا : ولى الوليد بن عبد الملك سليمان بن عبد الملك جند فلسطين فنزل لد ، ثم احدث مدينة الرملة ومصرها وكان اول ما بنى منها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين ، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً لها ثم اختط المسجد خطة وبناه ، فولي

---

١. نهر ابي فطرس هو المعروف اليوم بالعوجا .

Digitized by Birzeit University Library

الخلافة قبل استتمامه ثم بنى فيه بعد في خلافته ، ثم اتمه عمر بن عبد العزيز ونقص من الخطة وقال : اهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه .

ولما بنى سليمان لنفسه أذن للناس في البناء فبنوا ، واحتفر لاهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آباراً وولى النفقة على بنائها بالرملة ومسجد الجماعة كاتباً له نصرانياً من اهل لد يقال له البطريق بن النكا . ولم تكن مدينة الرملة قبل سليمان ، وكان موضعها رملة . قالوا : وقد صارت دار الصباغين لورثة صالح بن علي بن عبدالله بن العباس لانها قبضت مع اموال بني امية . قالوا : وكان بنو امية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك ، فلما استخلف بنو العباس انفقوا عليها ، وكان الامر في تلك النفقة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة ؛ فلما استخلف امير المؤمنين ابو اسحاق المعتصم بالله اسجل بتلك النفقة سجلا ، فانقطع الاستئمار وصارت جارية يحتسب بها العمال فيحسب لهم . قالوا : وبفلسطين فروز بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة ، وبها التخفيف والردود ، وذاك ان ضياعاً رفضت في خلافة الرشيد وتركها اهلها فوجه امير المؤمنين الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها ، فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها الى الرجوع اليها على ان يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا ؛ فاولئك اصحاب التخافيف وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم ارضهم على مثل ما كانوا عليه فهم اصحاب الردود . »

وقال ابو اسحق الفارسي الاصطخري المتوفى سنة (٣٤٩ هـ و ٩٦٠ م) في كتاب الاقاليم (ص ٣١) ما نصه :

« واما جند فلسطين وهو اول اجناد الشام مما يلي المغرب فانه يكون مسافة الراكب طول يومين من رفح الى حد اللجون وعرضه من يافا الى

Digitized by Birzeit University Library

اريحا يومين. وفلسطين أزكى بلاد الشام ومدينتها العظيمة الرملة، ويليها في الكبر بيت المقدس؛ وفلسطين من اخصب بلاد الشام.»

واما الشيخ شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري فقد افتتن بالرملة من بين الامصار العربية والاقطار الاسلامية فوصفها في كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» (طبعه دى خوى — مطبعة بريل سنة ١٩٠٦ ص ١٦٤) وصفاً شاملا ننقل منه:

«الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مُرِّيته واسعة الفواكه جامعة الاضداد: بين رساتيق جليلة، ومدن سرية، ومشاهد فاضلة، وقوى نفيسة، والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة؛ ليس في الاسلام ابهى من جامعها ولا احسن واطيب من حواريها ولا ابرك من كورتها ولا ألذ من فواكهها، موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات انيقة واطعمة نظيفة، وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وامور جامعة؛ قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل، وانبتت الزروع على البعل، حوت الخيرات والفضل: غير انها في الشتاء جزيرة من الوحل وفي الصيف ذرية من الرمل، لا ماء بجري ولا خضر، ولا طين جيد ولا ثلج؛ كثيرة البراغيث عميقة الآبار مالحة، وماء المطر في جباب مقفلة، فالفقير عطشان والغريب حيران وفي الحمام ديوان ويدور في الدولاب خدام؛ وهي ميل راجع في ميل. بنيانهم حجارة منحوتة حسنة وطوب. والذي اعرف من دروبها بئر العسكر درب مسجد عنابه درب بيت المقدس درب بيلعه درب لد درب يافا درب مصر درب داجون. يتصل بها مدينة تسمى داجون[1] فيها جامع.

---

١. لعلها اليوم بيت دجن.

Digitized by Birzeit University Library

وجامع القصبة في الاسواق ابهى وارشق من جامع دمشق يسمى الابيض ليس في الاسلام اكبر من محرابه ولا - بعد منبر بيت المقدس - احسن من منبره ، وله منارة بهية بناه هشام بن عبد الملك، وسمعت عمي يقول لما اراد بناءه قيل له ان للنصارى اعمدة رخام مدفونة تحت الرملة استعدوها لكنيسة بالغة . فقال لهم هشام بن عبد الملك اما ان تظهروها واما ان نهدم كنيسة لد فنبني هذا الجامع على اعمدتها . فاظهروها وهي غليظة طويلة حسنة وارض المغطى مفروشة بالرخام والصحن بالحجارة المؤلفة وابواب المغطى من الشربين والتنوب مداخلة محفورة حسنة جداً . »

« ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا انها اطيب بلد في الاسلام لانها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور وغور وبحور معتدلة الهواء لذيذة الثمار سرية الاهل ، غير ان فيهم جهلا ، خزانة مصر ومطرح البحرين ، رخية . » (ص ٣٦) .

وورد ذكر الرملة في كتاب الشريف الادريسي عند وصفه لفلسطين ، قـــال :

« وفلسطين ماؤها من الامطار والسيول واشجارها قليلة، وديار فلسطين حسنة البقاع بله ازكى بلاد الشام؛ ومدينتا الشام هنا الرملة، ثم بيت المقدس : فاما الرملة فهي مدينة حسنة عامرة ، وبها اسواق وتجارات ، ودخل وخرج ومنها الى يافا التي على ساحل البحر نصف يوم ؛ ومن الرملة الى نابلس يوم ؛ ومن الرملة الى قيسارية مرحلة كبيرة . »

وجاء في كتاب تقويم البلدان لابي الفداء ما نصه :

« قال في المشترك : والرملة بلدة بفلسطين اختطها سليمان بن عبد الملك الأموي وهي مشهورة . قال العزيزي : والرملة قصبة فلسطين وهي محدثة وبينها وبين بيت المقدس مسيرة يوم ، وقال : الرملة لم تكن مدينة قديمة ،

Digitized by Birzeit University Library

وانما كانت المدينة لد ، فأخربهـا سليمان بن عبد الملك وبنى مدينة الرملة ، وبينهما نحو ثلاثة فراسخ . ولد في ناحية المشرق . وكان لسليمان بن عبد الملك دار بالرملة . وجر الى الرملة قناة ضعيفة للشرب منها ، وأكثر شربهم الآن من آبار عذبة ومن صهاريج يجتمع فيها مياه المطر وهي في سهل من الارض . » (ص ٢٤٠)

وقد زار الرملة الرحالة ناصرخسرو القباذياني المروزي الفارسي، ودون زيارته لها في مذكرات رحلته التي خطها باسم سفر نامة واكملها سنة ٤٣٤ هـ قـــال :ـ

« في يوم الاحد غرة رمضان المبارك نزلنا الرملة . والمسافة من قيسارية الى الرملة تبلغ ثمانية فراسخ ؛ والرملة مدينة عظمى يحيط بها سور عال متين عمل من الحجر والبلاط وهي على ثلاثة فراسخ من البحر، وشرب اهلها من ماء الامطار يجمعونه في كل موسم في حوض وعندهم منه ما يحتاجون اليه على الدوام وفي وسط الجامع الكبير صهاريج واسعة اذا ملئت يستطيع الانسان ان يستقي منها بحسب حاجته . ومساحة الجامع الاعظم ثلاثمائة قدم في مائتين وقد نقش في اعلى الصفة ان الارض زلزلت زلزالا عظيماً يوم ١٥ المحرم سنة ٤٢٥ هـ ١١ كانون اول سنة ١٠٣٣ م فهدمت عدة ابنية ولم يجرح احد من السكان .

والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الابنية والدور مغشاة بصفائح من الرخام مرصعة باتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشارلا اسنان له ويرمل برمل تلك البلاد ، وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد .

ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والاخضر والاحمر والاسود والابيض وبالجملة من مختلف الالوان . وفي

Digitized by Birzeit University Library

الرملة بخرج نوع من التين اللذيذ ولا يوجد مثله في بلد آخر ومنها تحمل الى سائر البلدان وتعرف هذه المدينة في الشام والمغرب باسم فلسطين[١] .»

ولما افل نجم بني امية مضى مروان بن محمد فنزل نهر ابي فطرس (وهو المعروف اليوم بنهر العوجا) وقد غلب العباسيون على فلسطين فتبعه عبدالله بن علي ونزل صالح بن علي الرملة، فهرب مروان وظفر عبدالله ابن علي باثنين وسبعين رجلا من بني امية منهم محمد بن عبد الملك بن مروان ابن موسى امير مصر واخوه، فقتلهم عن آخرهم عند النهر . وفي اول سنة ثلاث وثلاثين ومائة ولى صالح بن علي بن عباس مصر من قبل اخيه امير المؤمنين عبدالله السفاح فقبض على جمع كثير من المصريين الامويين ، وقتل كثيراً من شيعة بني امية، وحمل طائفة منهم الى العراق وقتلوا بقلنسوة، وهي قرية تقع الى الغرب من مدينة طولكرم بأرض فلسطين .

والآن وقد وصلنا الى هذا الحد من رواية تاريخ هذا البلد ليكون اساساً نستند اليه في بحث التطور الاجتماعي والاقتصادي في اسباب المعيشة ومستوى المعيشة في فلسطين العربية وما لازم ذلك من ظروف وملابسات وعوامل متضاربة اثرت في حياة البلاد ، نرى ان نجتزىء بما اوردناه من بيان اعظم الاعمال العمرانية التي قام بها اسلافنا ، وان نضيف الى ذلك تتمةً من النظم الادارية والحركات الاجتماعية التي سادت البلاد خلال القرون التي تلت بناء مدينة الرملة وامتدت الى آخر حكم بني عثمان لهذه الديار .

ان المصادر التي تبحث في حكم ابن طولون والدولة الاخشيدية والفاطمية والصلاحية والمماليك اصبحت ، بعد ان طبع كتاب « السلوك لمعرفة دول

---

١. انظر بحث الاستاذ عبدالله مخلص ، مئذنة الجامع ، في مجلة الكلية لسنة ١٩٣١ ، وترجمة سفر نامة للدكتور يحيى الخشاب ــ القاهرة سنة ١٩٤٤ .

Digitized by Birzeit University Library

الملوك » للمقريزي ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغري بردي وغيرها من امهات كتب التاريخ ، في متناول الباحثين في تاريخ هذه العصور ، ولقد عددت هذه الكتب — كما عدد القاضي مجير الدين الحنبلي في الانس الجليل — اعظم الاحداث التاريخية واجل الاعمال العمرانية التي قام بها رؤساء تلك الدول وعمالهم في فلسطين . ويمكن بحث الاحـــداث الهامة والنزعات الفكرية والاعمال العمرانية الجليلة التي وقعت في فلسطين إبان عهود الدول الاسلامية في اربعة اقسام :

١ — المعارك الحربية الفاصلة التي كانت هذه البلاد ميداناً لها .

٢ — حقيقة التفاف العالم الاسلامي حول هذا البلد وتعلقه به وتقديسه له لبركة ارضه وسكانه من الانبياء والصحابة والعلماء والاولياء .

٣ — الفتن الداخلية والخلافات بين الملوك والامراء والحكام .

٤ — الآثار العمرانية من المدارس والجوامع والبيمارستانات والمشاهد والزوايا وغيرها .

اما المعارك الحربية الفاصلة في التاريخ فقد وقع منها بعد الفتح الاسلامي اثنتان : معركة حطين بين صلاح الدين والصليبيين ، ومعركة عين جالوت بين الملك المظفر قطز وجموع التتر من عساكر هولاكو . ولقد كانت الحروب الصليبية من الحوادث البعيدة الاثر في مصير الانسانية . وهي في جوهرها صراع بين الشرق والغرب ، واضطرام بين الديانات والشعوب والمدنيات المتنافسة ، وقد وقع في المنطقة التي تصل بين اروبا وآسيا وظهر باشكال مختلفة : فتارة كان تنافساً اقتصادياً ، وطوراً كان تصادماً دينياً ، وبعضاً كان نزاعاً بين اجناس مختلفة من اجل الحكم والسيطرة ، وفي بعض الاحيان كان خليطاً من كل ذلك . وقد كان فريقاه :

الكنيسة المسيحية الغربية وحضارتها وشعوبها من جهة ، والعقيدة

Digitized by Birzeit University Library

الاسلامية وحضارتها وشعوبها من جهة اخرى. وقد بدأت هذه الحروب سنة تسعين واربعمائة للهجرة و ١٠٩٦ م فتحرك الافرنج لاخذ السواحل وخرجوا اليها في ولاية المستعلي بالله ابي القاسم احمد بن المستنصر بالله العبيدي الفاطمي: «فاول ما اخذوا نيقيه (وهي مدينة من اعمال استنبول على البر الشرقي) ثم اخذوا انطاكية والمعرة في سنة احدى وتسعين واربعمائة فاجتمع عليهم ملوك المسلمين ولكنهم كسروهم وفرقوا شملهم وساروا الى بيت المقدس عن طريق الساحل، وكان فيها افتخار الدولة عامل المستعلي على فلسطين، فاقاموا يقاتلون اربعين يوماً الى ان استولوا عليها في يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان سنة اثنتين وتسعين واربعمائة.

وقد بقي في يدهم نيفاً وتسعين سنة من يوم اخذوه في خلافة المستعلي ووزارة بدر الجمالي الى ان استرده منهم السلطان الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدين يوسف بن ايوب في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة بعد ان كسر الافرنج في معركة حطين الفاصلة في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر من تلك السنة.» (النجوم الزاهرة ١ ج ٦).

«وللحروب الصليبية وجهان: فهي من حيث الباعث الاصلي عليها تعد حركة روحية اتخذت شكل نظام روحي ايضاً. كانت حروباً مقدسة؛ لم تكن في نظر رجال الدين عادلة فحسب، بل انها استحقت منهم ان يباركوها؛ وكانت حقيقة ان يقف الناس عليها حياتهم، هي شيء مسيحي يربط الامم المسيحية جميعاً برابطة العداوة لعدو عقيدتها. اما من حيث النتائج كانت الحروب الصليبية الثمن الذي دفعته المسيحية لتأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس حيث كان العراك مستمراً والاتصال دائماً بين المسيحية والاسلام. وقد ساعد اضطرام الف

Digitized by Birzeit University Library

هذه المملكة وتدعيمها؛ إلا انها ما كادت تقف على ساقيها حتى هددها الدمار، إذ أن الضغط المسيحي ولد رد فعل اسلامي، وكان مركز المقاومة الاسلامية مدينة الموصل. وهنا بين اطلال دولة السلاجقة التي انهارت الى دويلات صغيرة ظهر الاتابك زنكي لاول مرة واستولى عام ١١٤٤ ميلادية على اكثرها من الافرنج، وهذه اول عقبة مني بها هؤلاء وهم يعملون على تحقيق مشروعهم. وكان خلفه نور الدين معروفا بتحمسه للجهاد ضد الحروب الصليبية؛ وقد استطاع قائده الكردي شيركوه، وصلاح الدين ابن اخي هذا القائد، ان يمدا نفوذه الى مصر. وازاء هذا الخطر الذي تهدد الافرنج في مملكتهم من الموصل، ومن مصر، وازاء الحماس الجديد للجهاد ضد الحرب الصليبية، لم يسع الافرنج - وقد خارت عزيمتهم، إلا الخضوع والاستسلام بغير ابطاء فانهزموا في يوليو ١١٨٧ م في موقعة حطين، وعقدت مدينة القدس شروط التسليم في اكتوبر من العام نفسه، وبذا بلغ صلاح الدين غاية امانيه وانقذ المسجد الاقصى الذي اليه اسرى الله بعبده ليلا من المسجد الحرام[١]. »

والآن ماذا كانت نتائج احتكاك المسيحية بالشرق الاسلامي؟ لقد غالى المؤرخون في جوابهم على هذا السؤال. والواقع ان هذا الاحتكاك انتج تضامناً بين مسلمي الشرق الاوسط وجعلهم يوحدون صفوفهم تحت راية زعيم واحد يقي بلادهم عادية المغيرين ويحفظ مقدساتهم من عبث العابثين. وما المدارس والزوايا التي انشئت في البلاد، والمواسم والاعياد القومية التي سنت لها النظم ووقفت عليها الحبوس، إلا مشروعات حربية، قصد منشؤوها من ورائها الى جمع اكبر عدد ممكن من الناس في صعيد واحد استعداداً للطوارىء

---

١. تراث الاسلام، فصل الحروب الصليبية، ايرنست باركر. ترجمة الاستاذ: احمد علي عيسى.

Digitized by Birzeit University Library

وتحفزاً لمقاومة الصليبيين، فما لو سولت لهم انفسهم اخذ المسلمين على حين غرة عندما يفدون الى زيارة بيت المقدس . ومن الجهة المادية فقد نتج عن هذا الاحتكاك نمو حركة التجارة بين الشرق والغرب . « ذلك لان التجارة قد سارت في اثر الحروب الصليبية ، فهرع التاجر الايطالي في اعقاب الفارس الافرنسي ولم تقتصر هذه التجارة على منتجات سوريا وفلسطين وبضائعهما ، بل شملت كذلك منتجات الهند والصين وجزائر البهار وبضائعها . »

ومع ان معركة حطين كانت فاصلة، غير ان الفتن التي احدثت الانقسام بين خلفاء صلاح الدين مكنت للافرنج البقاء في البلاد الساحلية ، الى ان استولى على عرش مصر سلاطين المماليك وكانوا « عنصراً اسلامياً جديداً قوي المراس محباً للحرب ، فهزم الظاهر بيبرس امارة انطاكية الصليبية وضمها اليه ١٢٦٨ م ، وفتح خلفه قلاوون طرابلس وضمها اليه . واستولى خليل بن قلاوون خلفه على عكا آخر معتقل للصليبيين على ساحل فلسطين ١٢٩١ م ، وما ان قاربت نهاية القرن الثالث عشر للميلاد حتى كانت اللاتينية المسيحية قد لفظت نهائياً من الاراضي الآسيوية . »

ويؤدي بنا هذا البحث الى المعركة الفاصلة الثانية معركة عين جالوت ، لقد ظهر امام الصليبيين بارقة امل جديدة في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد بظهور امبراطورية جنكيزخان المغولية التي لم تكن مسيحية ولا اسلامية، ولكنها كانت متسامحة — سعد المسيحيون النسطوريون في كنفها . لقد حاولت هذه الامبراطورية المغولية تأسيس قاعدة لها في سوريا وفلسطين، فاستولت على حلب ودمشق « وبلغت غاراتها في سنة ٦٥٧ هـ الى غزة وبلد الخليل — عليه السلام — وقتل جنودها الرجال وسبوا النساء والصبيان واستاقوا من الاسرى والابقار والاغنام والخيل ما لا يكاد يحصى كثرة »

Digitized by Birzeit University Library

والسلطان الملك المظفر قطز سلطان مصر يتهيأ للقائهم ، فلما اجتمعت العساكر الاسلامية بالديار المصرية ، القى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم ، بعد ان أيست من النصرة على التتر ، وصمم — رحمه الله — على لقائهم ، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في شهر رمضان ووصل غزة والقلوب وجلة (النجوم الزاهرة ص ٧٧ ج ٧) ، « واقام بها يوماً ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا ، وبها يومئذ الفرنج فخرجوا اليه بتقادم وارادوا ان يسيروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم ان يكونوا لاله ولا عليه ، واقسم لهم انه متى تبعه منهم فارس او راجل يريد اذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل ان يلقى التتر . » (السلوك ص ٤٣ ج ١ قسم ٢) . ثم امر السلطان الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ان يسير بقطعه من العسكر فسار حتى لقي طليعة التتر ، وكتب الى السلطان يعلمه ذلك . واخذ في مناوشتهم ، فتارة يقدم ، وتارة يحجم الى ان وافاه السلطان على عين جالوت . وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو ، لما بلغهما مسير العساكر المصرية جمعا من تفرق من قبائل التتر في بلاد الشام وسارا بريدان محاربة المسلمين ، فلما كان يوم الجمعة خامس عشري شهر رمضان سنة ٦٥٧ هـ التقى الجمعان ، وفي قلوب المسلمين وهمٌ عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادي ، وكثر صياح اهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان فتحيز التتر الى الجبل فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه . فالقى الملك المظفر قطز عندذلك خوذته عن رأسه الى الارض وصرخ باعلى صوته : « وا إسلاماه ! » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر وانهزم باقيهم ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون ، وابلى الامير بيبرس ايضاً بلاء حسناً بين يدي السلطان . وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بنى

Digitized by Birzeit University Library

الملك الظاهر بيبرس مشهداً في عين جالوت[١] عرف بمشهد النصر (ص ٤٤٦ السلوك) وقد غيرت معركة عين جالوت هذه مجرى التاريخ في هذا القسم من الشرق الاسلامي.

ولنبحث الآن في القسم الثاني من الاحداث الجليلة في إبان عهود دول الاسلام في هذا البلد. ومدار هـــذا البحث عنصر روحي بثه في الناس واشاعه في المسلمين الفقهاء والمفسرون والمحدثون وغيرهم من حماة الشرع وعلماء الدين، فقد جعلوا حدود الارض المباركة لانها حول المسجد الاقصى «من القبلة جبال الشراة وصحراء سيناء، ومن الشرق برية السماوة الممتدة الى العراق والتي ينزلها عرب الشام، ومن الشمال نهر الفرات وتدخل في هذا الحد البلاد السورية كلها ومن الغرب بحر الروم.»

قالوا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: قال رسول الله (صلعم) من اراد ان ينظر الى بقعة من بقاع الجنة فلينظر الى بيت المقدس.

وروي عن خالد بن معدان: ان حذو بيت المقدس باب من السماء يهبط منه في كل يوم سبعون الف ملك يستغفرون لمن يجدونه يصلي فيه.

قال مقاتل: ان الله تعالى تكفل لمن سكن بيت المقدس بالرزق إن فاته المال. ومن مات مقيما محتسباً في بيت المقدس فكأنما مات في السماء، ومن مات حول بيت المقدس فكأنما مات في بيت المقـــدس واول ارض بارك الله فيها بيت المقدس.

واوصى ابراهيم واسحق لما ماتا ان يدفنا بارض بيت المقدس. والمحشر والمنشر يكونان الى بيت المقدس.

---

١. تقع عين جالوت هذه على مسافة عشرة كيـــلومترات الى الشمال الشرقي من جنين وقد اصبح — ويا للاسف — مكان المشهد اليوم مستعمرة يهودية.

Digitized by Birzeit University Library

ومن صلى في بيت المقدس فكأنما صلى في سماء الدنيا .

وقال النبي ﷺ ان خيار أمتي من هاجر هجرة بعد هجرة الى بيت المقدس ومن صلى ببيت المقدس بعد ان توضأ واسبغ الوضوء ركعتين او اربعاً غفر له ما كان قبل ذلك .

ويطول بنا البحث اذا استقصينا هذه الاحاديث والاقوال في الترغيب بالهجرة الى هذا البلد والاقامة فيه وتقديسه لبركته ؛ من ذلك نزعة الامراء والعظماء ووصيتهم ذويهم بان يدفنوهم في بيت المقدس ، فقد اوصى محمد ابن طغج الاخشيد ان يدفن ببيت المقدس فكان له ما اراد ، فنقل بعد وفاته في الساعة الرابعة من يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة، من دمشق فدفن ببيت المقدس الشريف (النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٢٥٦) ، وكذلك فعل انوجور بن الاخشيد فلما مات بمصر في يوم السبت سابع او ثامن ذي القعدة سنة تسع واربعين وثلاثمئة، وحمل الى القدس فدفن عند ابيه الاخشيد (النجوم الزاهرة ج ٣ ص٢٩٣) والاخشيد وابنه انوجور كانا ولاة على مصر والشام من قبل خلفاء بني العباس . ولما توفي تكين بن عبدالله الحربي الامير ابو منصور المعتضدي الخزري ، والي المعتضد بالله والمقتدر والظاهر بالله محمد من خلفاء بني العباس على مصر والشام ، في يوم السبت لست عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة احدى وعشرين وثلثمئة وحمل في تابوت الى بيت المقدس فدفن به (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١١) . ولما مات علي ابن الاخشيد والي مصر لاحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمئة حمل الى القدس ودفن عند ابيه الاخشيد واخيه انوجور (النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٦)

وفي سنة ٦٤٨هـ حمل الى بيت المقدس تاج الملوك ، بن الملك المعظم

Digitized by Birzeit University Library

فخر الدين ابو المفاخر توران شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ودفن به (ص ٨ النجوم الزاهرة ج ٧) .

اما القسم الثالث من الاحداث الجليلة فيشمل الفتن الداخلية والخلافات بين الملوك والامراء والحكام ، واننا لا نرمي في بحثنا هذا إلا تعداد الفتن، وسرد الوقائع وبيان اسماء الملوك والقواد ، والاشادة بذكر الابطال . الذين ابلوا في المعارك بلاء حسناً ؛ لأن ذلك كله موجود بالتفصيل في امهات الكتب التي أرخت عهود دول الاسلام في هذا البلد ، ولا تكاد صفحة تخلو من فتنة داخلية او خلاف على الملك ، او تطاول على الحكام فمن ذلك :

معركة الطواحين التي دارت رحاها بين ابي احمد الموفق اخي الخليفة المتوكل بن المعتصم العباسي وولي عهده وبين خمارويه بن احمد بن طولون : « خرج خمارويه في جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة احدى وسبعين ومائتين ، فالتقى مع ابن الموفق بنهر ابي فطرس المعروف بالطواحين من ارض فلسطين (وهو المسمى اليوم بنهر العوجا) فاقتتلا وانهزم اصحاب خمارويه : وكان خمارويه في سبعين الفاً وابن الموفق في نحو اربعة آلاف ، واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه . »

وقد حدث في ولاية المستنصر بالله الخليفة الفاطمي أن ثار « أتسز بن أوق مقدم الاتراك وفتح الرملة وبيت المقدس . وضايق دمشق واخرب الشام . »

ولما رحل الملك الصالح نجم الدين ايوب في مماليكه وغلمانه وجاريته شجرة الدر ام خليل ، من القصير يريد نابلس طمع اهل الغور والقبائل فيه وكان مقدمهم شيخاً جاهلا يقال له مسبل من اهل بيسان ، قد سفك الدماء فتقاتل عسكر الصالح معه حتى قتلوه . »

Digitized by Birzeit University Library

والامثله على ذلك كثيرة في كتب التاريخ يخرجنا سردها عن الموضوع الذي نرمي اليه من هذه الاسس التاريخية لهذا الكتاب . غايتنا بحث الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين العربية ، ولكن هذا البحث لا يقوم بغير اركان ، بعضها جغرافي وتاريخي . على ان الاقتصاد والاجتماع يعنيان بالجماعات لا بالافراد ، ولذلك فسنورد اخبار فتنتين وقعتا في عهود دول الاسلام وتركتا اثراً في هذا البلد :

أ) الفتنة بين القيسية واليمانية : وقعت في سنة ١٦٨ هـ فتنة بين المضرية واليمانية بدمشق وانتشرت الى الاردن وفلسطين ؛ ذلك لان القبائل التي رافقت الفتح الاسلامي الى هـذه البلاد كانت في الغالب اما قيسية (ينضم اليها المضرية والنزارية) ، واما يمانية . وهذه الفتنة كانت سبب العداوة بين قيس وبين اليمن في فلسطين الى اواخر القرن الماضي ، وكان اول الفتنة بين المضرية واليمانية عندما كان رأس المضرية ابو الهيذام واسمه عامر بن عمارة المري احد فرسان العرب . وكان سبب الفتنة اموراً منها : ان احد غلمان الرشيد بسجستان قتل اخاً لابي الهيذام ، فرثى ابو الهيذام اخاه ، وجمع جمعاً وخرج الى الشام واستولى عليها . وقيل : ان اول ما هاجت الفتنة بالشام ان رجلا من القين خرج بطعام له يطحنه في الرحى بالبلقاء فمر بحائط رجل من لخم او جذام وفيه بطيخ فتناول منه ، فشتمه صاحبه وتضاربا فقتل رجل من اليمانية فطلبوا بدمه واجتمعوا لذلك. فخاف الناس ان يتفاقم الامر، فاجتمع الناس ليصلحوا بينهم. فاتوا بني القين فكلموهم فاجابوهم ، فاتوا اليمانية فقالوا : انصرفوا عنا حتى ننظر في امرنا ثم ساروا ويئتوا للقين فقتلوا منهم ستمائة . فاستنجدت القين قضاعة وسليحا (قبيلة يمانية) فلم ينجدوهم ، فاستنجدت قيساً فاجابوهم ، وساروا معهم ، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وكثر القتال بينهم والتقوا غير مرة بنحو سنتين

ثم اصطلحوا ثم تقاتلوا ، وتعصب لكل طائفة آخرون ودام ذلك الى يومنا هذا بسائر بلاد الشام ». وكان القيسيون حزب العباسيين على الاغلب، واليمانيون حزب الامويين، والمنافسة بينهما على الملك والسلطان. ومن القبائل التي ما تزال في فلسطين تنتمي الى قيس سكان جبال الخليل وبعض القرى في قضاء رام الله ؛ اما لواء غزة فسكانه الاصليون يمانيون وكذلك بعض سكان قرى رام الله هم يمانيون ايضاً .

وفي سنة ٢٢٦ هـ استجاب جماعة من رؤساء اليمانية وارباب البيوت منهم الى المبرقع ابي حرب تميم اللخمي الذي ثار على المعتصم وناصروه . وكان سبب خروج المبرقع ان جنديا اراد النزول في داره فمانعته زوجته فضربها الجندي بسوط ، فأثر في ذراعها . فلما جاء المبرقع شكت اليه ، فذهب الى الجندي فقتله وهرب ولبس برقعاً لئلا يعرف ، ونزل جبال الغور مبرقعاً وحث الناس على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاستجاب له قوم من فلاحي القري وقوي امره ، فسار لحربه رجاء الحضاري احد قواد المعتصم في الف فارس ، واتاه فوجده في مائة الف ، فعسكر بازائه ولم يجسر على لقائه ، فلما كان اوان الزراعة تفرق اكثر اصحابه في فلاحتهم وبقي في نحو الالفين فواقعه عند ذلك رجاء الحضاري المذكور واسره وحبسه حتى مات خنقاً في آخر هذه السنة . »

ب) الخوارزمية : هذه الفئة تنتسب الى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه وقد جاء الى بلاد الخلافة الاسلامية في سنة ثمان وعشرين وستمائة هرباً من التتر الذين ساقوا خلفه بعد ان واقعهم عدة وقائع في بلاد تبريز ، فانهزم بين ايديهم الى ديار بكر ، فقتل في قرية من اعمال ميافارقين ، وكان يقاتل التتر عشرة ايام بلياليها بعساكره ، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف ، ويبقى الرجل

ولما مات السلطان جلال الدين اخذ اتباعه يجوبون البلاد من الرها حتى غزة ، فتارة يجيئون الى صاحب ماردين فينزل اليهم ويقاتلهم ، ثم ينزلون نصيبين ويحرقونها ، وتارة يستخدمهم في سنة اربع وثلاثين وستمائة الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل فينضمون عليه وينفصلون من الروم ويسر والده الملك الكامل — ابن الملك العادل اخي السلطان صلاح الدين — بذلك ، فلا يلبثون ان يختلفوا عليه بعد سنة واحدة فيهرب منهم الى سنجار ، ويترك خزائنه واثقاله ، فينهبون الجميع .

قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٦٣٨ : واما الخوارزمية فانهم تغلبوا على عدة قلاع وعاثوا وخربوا البلاد ، وكانوا شراً من التتر ، لا يعفون عن قتل ولا عن سبي ولا في قلوبهم رحمة ، ولما عدت جموعهم الفرات ، وكانوا اكثر من عشرة آلاف ، ما مروا بشيء إلا نهبوه ثم تقهقر الذين بغزة منهم ، ولكنهم هجموا القدس وقتلوا من به من النصارى ، وهدموا مقبرة القمامة ، وجمعوا بها عظام الموتى فحرقوها ، ونزلوا بغزة وراسلوا صاحب مصر (يعني الملك الصالح) فبعث اليهم بالخلع والاموال ، وجاءتهم العساكر فنازلوا دمشق واخذت بالامان ، ولما رأت الخوارزمية ان السلطان قد تملك الشام بهم وهزم اعداءه صار لهم ادلال كثير ، فطمعوا في الاخباز العظيمة : فلما لم يحصلوا على شيء فسدت نيتهم له وخرجوا عليه ، وكاتبوا الامير ركن الدين بيبرس البندقداري (غير الملك الظاهر) وكان بغزة ، فاصغى اليهم فيما قيل : وراسلوا صاحب الكرك فوافقهم ، واستولى حينئذ على القدس ونابلس وتلك الناحية ، وهرب منه نواب صاحب مصر ، وراسلوا الملك الصالح اسماعيل وحلفوا له فسار اليهم ، واتفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر ، فقلق الصالح لذلك وطلب ركن الدين بيبرس فقدم مصر فاعتقله . وفي سنة اربع

Digitized by Birzeit University Library

واربعين وستمائة انكسر الخوارزمية عندما وقع المصاف بينهم وبين عسكر حلب وحمص على القصب ، وهي منزلة بريد من حمص من قبليها ، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان ، وانهزموا ولم تقم لهم بعدها قائمة ، وتشتتوا فخدمت طائفة منهم بالشام وطائفة بمصر وطائفة مع كشلوخان ذهبوا الى التتر وخدموا معهم ؛ وكفى الله شرهم . وقد اندمج فريق منهم بسكان هذا البلد واختلطوا فيهم بالتزاوج والمصاهرة ولكنه لم يعد لهم اليوم اثر يعرف .

واما القسم الرابع من الحوادث الجليلة في هذا البلد فهو الآثار العمرانية من المدارس والخوانق والربط والزوايا والبيمارستانات وما الى ذلك من المؤسسات العامة الخيرية وقد كانت كثيرة فقد عـــدد مجير الدين الحنبلي المدارس التي كانت على عهده — القرن التاسع للهجرة — في مدينتي القدس والخليل ، واقدمها ، في بيت المقدس ، ما بني على عهد صلاح الدين يوسف بن ايوب عقيب استخلاصه هذه المدينة من ايدي الصليبيين ، « ثم توفر اهل الخير من الامراء والاغنياء ، ومنهم النساء والاماء ، فانشأوا منها ما انشأوا ، قربة الى الله وغيرة على العلم وبث الفضائل . وما يزال بعض تلك المدارس قائماً حول سور الحرم الشريف ولكنه مقفراً من العلم واهله . وقد كان بغزة مدرسة انشأها قبل منتصف القرن الثامن علم الدين الجاولي نائب السلطنة في غزة ، ومدرسة اخرى انشأها قايتباي . » وكان لجميع هـــذه المدارس اوقاف دارة على الطلبة والمدرسين ومعالم لهم . »

وقد كانت اول خانقاه بنيت في الاسلام للصوفية زاوية اقامها بمدينة الرملة في القرن الثاني ابو هاشم الكوفي وسكنتها طائفة من الصوفية كانت الالفة والصحبة لله طريقتهم ، وقد عدد مجير الدين الربط والزوايا التي كانت في القدس على عهده ، ومنها الزاوية الحنفيه بجوار المسجد الاقصى وقفها السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٧ على رجل من اهل الصلاح اسمه جلال

---

١ Nicholson, P. 229, Ed. 1930

Digitized by Birzeit University Library

الدين الشاشي ثم من بعده على من يحذو حذوه ؛ « وقد وقف صلاح الدين نصف دار الاسبتار رباطاً للتصوفة والوافدين من اهل الطريقة والمعرفة ، ونصفها مدرسة للتفقهة ، وللطلبة المتعففة المتنزهة ، فجمع بين العلم والعمل ، وكتب الرزق لهم الى كتاب الاجل . »

وقد اقام السلطان صلاح الدين ، بقرب قمامة بيمارستانا للرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الادوية والعقاقير وفوض النظر والقضاء في وقفه الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم المشهور بابن شداد لعلمه بكفاءته . » (الانس الجليل ج ١ ، ص ٣٤٥) .

وفي سنة ٩٢٢ هـ و ١٥١٦ م لما كانت القدس ما تزال في حكم المماليك الشراكسة ، خرج — على ما يقول الرحالة التركي اوليا جلبي — « جميع العلماء والصلحاء فاستقبلوا السلطان سليم العثماني وسلموا اليه مفاتيح المسجد الاقصى وقبة صخرة الله المشرفة . فصلى سليم شكراً لله على ان جعل اولى القبلتين من بلاده . ثم خلع الهدايا على هؤلاء الرجال الاشراف واعفاهم من التكاليف الشاقة وثبتهم في وظائفهم . » واقام سليم للمدينة باشا حاكما عليها واعتبرت إيالة فلسطين « ارپالق [١] » تدفع للسلطان ٣٥٧٤٨٥

---

١. كانت الاراضي الاميرية منذ تأسيس السلطنة العثمانية لغاية سنة ١٢٥٥ هـ تقسم الى مقاطعات تدعى «تيمار» و «زعامة» : وكانت هذه المقاطعات: تعطى لكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين لقاء خدمة ماضية او تعهدات مستقبلة ؛ او تتبع دوائر مخصوصة ، كدائرة الخاصة التابعة للسلطنة المعروفة « بخواص همايون » ودوائر الخاصة التابعة للوزراء التي كانت تسمى « خواص وزراء » ؛ « وأرپالق » ويتألف التيمار من مساحة من الارض ريعها السنوي من ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ درهم ويجوز ان تزاد الى ان تعطى ريعاً قدره ١٩٩٩٩ درهماً .

وتتألف الزعامة من مساحة من الارض يبلغ ريعها السنوي ٦٠٠٠٠ درهم

Digitized by Birzeit University Library

اقجة (درهماً) وقسمت الى تسع زعامات ، وكان خمسمائة جندي تحت إمرة باشا القدس ، وكان هو امير الحج الشامي . وكان مرتبه السنوي يبلغ ٤٠٠٠٠ قرش .

وهذه البلاد إيالة حسنة . ومع ذلك فليس على اصحاب الزعامة فيها ان يخدموا في ساحات الحروب وانما واجبهم ينحصر في ان يرافقوا باعلامهم الحجيج ويوصلوه الى الاقطار الحجازية . وعدد هؤلاء يبلغ ستمائة . ويبلغ مرتب القاضي مثل مرتب الباشا ؛ ذلك لان ألفاً وستمائة قرية تقع ضمن صلاحيته ومولويته وهو الذي يعين خلفاءه عنه .

ولما تسلم سليم البلاد من المماليك كانت إيالة فلسطين تتألف من :

أ) لواء غزة .

ب) جبل عجلون .

= ويجوز ان تزاد — اذا ترقي صاحبها في الوظيفة — الى ان تشمل مساحة تعطي ربحاً لحد ١٠٠٠٠٠ درهم .

ويسمى رجال الدولة : الذين يقطعون التيمار اصحاب تيمار ، او سباهي ، والذين يقطعون الزعامة « اصحاب الزعامة . »

وكان يترتب على اصحاب التيمار واصحاب الزعامة واصحاب خواص الوزراء

أ) الخدمة العسكرية شخصياً .

ب) وان يقدموا للجيش عدداً من الانفار بنسبة مدخولهم بواقع نفر واحد في مقابل كل ٣٠٠٠ درهم من ريع اقطاعاتهم .

اما الارباليق ، فقد كانت اقطاعات يمنحها السلطان للوزراء والحكام والقضاة من الدرجة الاولى باسم ثمن شعير لآخوراتهم .

وكان اصحاب هذه الاقطاعات يحيلون اراضيهم هذه الى عامة الناس في مقابل مبالغ سنوية يفرضونها عليهم .

Digitized by Birzeit University Library

ج) اللجون .

د) نابلس .

هـ) القدس .

وهذه الالوية يحكمها الباشا، وهنالك خمسة اقضية يحكمها مشايخ الصحراء مباشرة وهم خاضعون لحكم السلطان .

وفي هذه الايالة الكثير من القرى الموقوفة على اعمال البر ، ولكن الاغلبيه تابعة لاصحاب الزعامة والتيمار والسباهي (الخيالة) وهنالك ايضاً قائد للجنود وآخر لليكيشاريه .

إن على اصحاب الزعامة ان يوصلوا الزوار المسلمين الى بلد سيدنا الخليل وبيت لحم مهد سيدنا عيسى والى النبي موسى عليهم السلام جميعاً ، لان الطرق لا تخلو من ثوار من البدو .

ويوجد في القدس مركز شيوخ مذاهب السنة الاربعة ونقيب الاشراف وفيها عدد كبير من العلماء والصلحاء. ويقيم فيها ايضاً محافظ القلعة (الدزدار) على رأس مفرزة مؤلفة من مئتي رجل .

وفي المدينة عشرون آغا تحت إمرة قاضي القدس او حاكمها المدني يعينون ببراءات سلطانية . اولهم رئيس المحضرين (محضر باشي) ووظيفته المحافظة على ابواب المدينة ومراقبتها بواسطة عساكر الدولة ، والثاني من الآغوات هو مدير البوليس وهو يعين خصيصاً لمدينة القدس . والثالث هو رئيس المعمارين . والرابع هو رئيس المهندسين . والخامس هو رئيس المالية . والسادس رئيس الصيارفة ، وهو الذي يدفع (الصرة) الى العلماء من هبات السلطان . والآغا السابع هو مدير الخزينة. والثامن مدير البوليس والتاسع المحتسب . والعاشر رئيس البلد . والحادي عشر شيخ سوق الحرير وكذلك يحضر جميع مشايخ الحرف والصناعات يومياً في المحكمة الشرعية .

Digitized by Birzeit University Library

وقد جدد السلطان سليم بناء سور المدينة على يد مصطفى لالا باشا (عامله على سوريا) وانفق عليه دخل اثني عشر سنجقاً . »

(انتهى ما نقلناه من رحلة اوليا جلبي)

والواقع ان الذي بنى سور القدس هو السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم ، ابتدأ في بنائه في سنة ٩٤٤ وانتهى في سنة ٩٤٧ للهجرة . ولعل البناء قد تم بمباشرة الامير ابرام مصطفى شاويش الذي كان عاملا له مدة طويلة على بيت المقدس . وقد عثرنا له على ثلاث وقفيات في سجلات محكمة القدس الشرعية يرجع تاريخها الى هذه الفترة . وهو الذي انشأ مسجد النبي موسى عليه السلام حول القبة التي انشأها الملك الظاهر بيبرس ، ومات بالقدس ودفن بها وقبره ما يزال معروفاً في محلة الواد .

وقد استعمل في السور حجارة الاسوار القديمة ونقلت بعض الحجارة المزخرفة من الابنية الوقفية القديمة مثال ذلك الحجارة التي تحمل رنك الملك الظاهر بيبرس (وهو صورة الفهد) قد نقلت من خانه في محلة الشيخ بدر وبنيت فوق باب الاسباط. والظاهر من التاريخ المثبت على السور والابواب ان الجهة الشمالية اول ما بنى منه ثم الشمالية الغربية وبعدئذ الشرقية والجنوبية

وقد كان السور باديء الامر ملكا للدولة إلا ان السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله قد وهبه بفرمان الى بلدية القدس بعد انشائها . وللسور ثمانية ابواب : ثلاثة شمالية ، الباب الجديد — وقد فتح في سنة ١٨٨٧ م ، وباب العمود ، وباب الساهرة، وواحد في الغرب هو باب الخليل، واثنان جنوبيان: باب النبي داود وباب المغاربة ، وواحد شرقي وهو باب الاسباط .

والآن وقد انتهينا من التمهيد لبحثنا في اسباب المعيشة ، ومستوى المعيشة في هذا البلد ، وقبل ان نبدأ في ابحاثنا الاقتصادية والاجتماعية نرى ان نختم هذه الفصول بنقل ما اوردته لجنة بيل في تقريرها الموسوم بتقرير اللجنة

Digitized by Birzeit University Library

الملكية (صفحة ٨) عن حال هذا البلد في آخر ايام الحكم العثماني فيها. قالت: «اما في الشؤون السياسية والاقتصادية فقد كانت فلسطين في معزل عن مجرى الحياة الاساسي في العالم .... وحالتها في النهاية كانت اسوأ من حالتها في البدء، ففي سنة ١٩١٤ كان وضع البلاد مثالا ناطقاً للغفلة وسوء الادارة التي كانت الحكومة العثمانية تمارسها فيها قبل الحرب، واهلها الذين كانوا لا يزالون باغلبيتهم الساحقة عرباً في طابعهم كانوا يعيشون معيشتهم الاتكالية في الجبال على الغالب. اما السهول التي لم تكن سلامة النفوس والاموال فيها مضمونة كما في الجبال، فان مرافق الري التي انشئت فيها خلال الازمنة القديمة كانت قد اندرست منذ امد طويل. وكانت اشجار البرتقال تزرع حول يافا غير ان القسم الاعظم من المنطقة الساحلية، لم يكن مأهولا إلا بعدد ضئيل من السكان كما ان الاراضي المزروعة في تلك المنطقة كانت نزرة قليلة ... ولكن فلسطين — او بالاحرى سوريا التي مابرحت فلسطين تؤلف قسما منها منذ ايام نبوخذنصر — كانت ولا تزال في نظر العرب الذين يستوطنونها، بلادهم وموطنهم والارض التي عاش فيها آباؤهم واجدادهم منذ اجيال ودفنوا في تربتها.»

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع

اسبـــاب المعيشـــة

يتحدث الرواد الذين زاروا فلسطين في القرون الغابرة عن العيش الهين الناعم الذي كان يتمتع به اهل البلد دون ما نصب او كدح في تهيئة اسبابه ؛ وخصص بعضهم ذلك العيش بأنحاء البلاد النائية عن العمران ، واشاروا الى ان تلك الحال من العزلة لن تدوم طويلا . وفعلا اخذت روح الاجتماع تدب في السكان فانشأوا القرى الكثيرة — وفي البلاد اليوم حوالي الف قرية عربية — حتى تتمكن الجماعات المتجانسة من ممارسة شؤون الحياة الاجتماعية يومياً في احوال السلم ، ولكي تتعاضد تلك الجماعات وتتساعد في الدفاع عن الانفس والاموال في حال الحرب . وقد بلغ معدل سكان القرية العربية الواحـدة ٧٣٧ نسمة . توخى العرب في انشاء قراهم امرين : صلاحية موقعها للدفاع المشترك ، وقربها من مصادر المياه . ومراعاة الامر الاول اقتضت انتخاب ذرى الاطواد ورؤوس التـلال مواقع تقام عليها القرى . فهذه الاماكن تطل على الاراضي المجاورة من من جميع الجهات وتؤهل القرية لان تقف في وجه المهاجمين في الحروب والمناوشات المحلية . اضف الى ذلك ان بناء الدور متلاصقة يكون من مجموع القرية قلعة واحـدة . وقد حدث في تاريخ القرى في فلسطين ان بعضهـا بني بادىء الامر في السهول ثم اقتضت ضرورات الدفاع الملحة نقلها الى رؤوس الجبال كي تصمد امام هجمات القبائل البدوية . على انه اذا تعذر مراعاة الامرين معاً — صلاحية الموقع للدفاع والقرب من مصادر المياه — كانت الافضلية تعطي دائماً للامر الاول ، وانك لتجد اليوم كثيراً

Digitized by Birzeit University Library

من القرى تبعد كيلومتر واحد او اكثر عن مياهها ، وتجد كذلك بعض القرى بنيت في اماكن لا توجد فيها ينابيع للمياه ، وانما شرب اهلها من مياه الامطار التي يجمعونها في الصهاريج والآبار . إلا ان نمو القرية واتساعها يتوقف على وجود مصادر للمياه فيها .

تلجأ الاجناس البشرية في تنازعها البقـــاء الى الاساليب التي تتبعها الحيوانات بالغريزة والطبع ، بيد ان حياة الانسان بوجه عام هي اكثر تعقيداً من المثل المستقاة من تلك الاساليب . وذلك التعقيد يرجع الى سببين : الى المبادىء الدينية والاخلاقية الموضوعة لمجتمع من المجتمعات من جهة ، والى مقدار تأثير البيئة على الانسان المقيم فيها من الجهة الاخرى . والاخـــلاق تختلف وتـــتمايز باختلاف البيئة والمحيط . والمكان والبيئة يؤثران على الانسان من حيث الاعمال التي يزاولهـــا جرياً وراء معيشته وانتجاعاً للرزق . وقد بينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب طبيعة المحيط الذي عاش فيه سكان فلسطين والادوار التي مرت عليه واثرت فيه . وها نحن أولاء نبين فيما يلي الاسباب التي اعتمد عليها هؤلاء السكان في معايشهم إبان اقامتهم في بلدهم هذا . وهي :

١) استثمار الاراضي برعي الحيوانات الاليفة .
٢) استثمار السواحل بصيد الاسماك .
٣) الاحتطاب من الغابات .
٤) التعدين وصناعاته .
٥) الزراعة والصناعات الناشئة مباشرة عنها .
٦) الصناعة .
٧) التجارة .
٨) الصدقات .

Digitized by Birzeit University Library

رعي الحيوانات الاليفة : يتألف الرعاة في فلسطين من القبائل البدوية الضاربة اطنابها في اراضي الغور ، وبين القدس والخليل وفي لواء حيفا ، ولواء الجليل ، وقبائل بئر السبع[١] . وهم من حيث اسباب المعيشة ثلاثة اقسام : قسم يعيش على نتاج الحيوان فقط ، وقسم يقايض بعضاً من

---

١. عدد منشور التشكيلات الادارية الصادر بموجب المادة ١١ من مرسوم دستور فلسطين لسنة ١٩٢٢ ، العشائر المشمولة في كل قضاء ، عدا قضاء بئر السبع وهي كما يلي :—

عشائر لواء القدس :

١) قضاء بيت لحم : العبيدية ، الرشايدة ، السواحرة ، التعامرة .

٢) قضاء الخليل : عرب الجهالين والسلامات ، عرب الكعابنة ، عرب الصرايعة .

عشائر لواء الجليل :

١) قبائل بيسان : عرب البشاتوة ، عرب الغزاوية ، عرب الصقر

٢) قضاء الناصرة : عرب الغزالين ، عرب الهيب ، عرب الحجيرات ، عرب الجواميس ، عرب المزاريب ، عرب السيارجة ، عرب الصبيح .

٣) قضاء طبريا : عرب الخرانبة ، عرب المنارة ، عرب المواسي ، عرب السميكة ، عرب السميري ، عرب التلاوية ، عرب وهيب ، سرجونه ، صدور .

عشائر لواء حيفا :

١) قضاء حيفا : عرب برة قيسارية ، عرب البلاونة ، عرب الدمايرة ، عرب الفقرا ، عرب الغوارنة ، عرب الحلف ، عرب الحجيرات ، عرب الجنادي ، عرب الكازنة ، عرب النفيعات ، عرب الرمل ، عرب السويطات ، عرب الزبيدات .

انظر بمجموعة قوانين فلسطين ، المجلد الرابع ، صفحة ٣٣٣٧ وما يليها .

Digitized by Birzeit University Library

نتاج حيواناته بالحاصلات الزراعية التي تنتجها الاراضي المجاورة له ، والقسم الثالث يستصفي قطعاً وقسائم من مراعيه ويجعلها خالصة لزراعة الحبوب التي يحتاج اليها لاقواته .

وكان من رعاة القسم الاول البدو الذين كانوا يقيمون الى الجنوب من مدينة زغر (او صغر) بين البحر الميت والبحر الاحمر . وما يزال عدد قليل منهم يعيش حتى اليوم مبعثراً في الهضاب التي تطل على جانبي وادي عربه وقيعان ذلك الوادي . وزغر — على ما روى ياقوت والمقدسي — تقع على البحيرة المقلوبة (البحر الميت وعرفه العرب ببحيرة زغر والبحيرة المنتنة) « كان اهلها سودان غلاظ ومأوها حميم وكأنها جحيم ، إلا انها البصرة الصغرى والمتجر المربح ... وهي في واد وخم رديء في اشأم بقعة إنما يسكنه اهله لاجل الوطن وقد يهيج بهم في بعض الاعوام مرض فيفني كل من فيه او اكثرهم . وذكر ياقوت انه هاج ذلك المرض في بعض الاعوام حتى اهلك اكثرهم ، وكان هناك دار من اعيان منازلهم وفيها جماعة تزيد على العشرة انفس فوقع فيهم الموت واحداً بعد واحد حتى لم يبق منهم إلا رجل واحد فرجع يوماً من المقبرة فدخل تلك الدار فاستوحش وحده فجلس على دكة هناك وفكر ساعة ثم رفع رأسه قبل السماء وقال: يا ربيي وعزتك لئن استمررت على هذا لتفنين العالم في مدة يسيرة ولتقعدن على عرشك وحدك».

وكان من القسم الثاني الى وقت قريب القبائل البدوية الضاربة الى الشرق من بيت المقدس وبلد سيدنا الخليل والقبائل التي كانت تقيم الى الجنوب من مدينة حيفا ولكنهم اليوم يعتمدون في معيشتهم على التجارة وعلى فلاحة اراضيهم بالاضافة الى رعي الابل والماشية .

وكذلك عشائر غور بيسان الذين يقول المسعودي انهم من لخم وجذام . وهؤلاء لم يكونوا يقيمون في الغور طوال ايام السنة ؛ ذلك لانه لم تكن لهم

طاقة بتحمل تأثيرات المناخ الحار في ايام الصيف، وقد كانت تبدو عليهم تأثيراته بمظاهر الانحطاط والمرض الملازم لهم، فكانوا يتجمعون الكلاً في الجبال التي تكتنف الغور من جانبيه الشرقي والغربي في ايام الصيف. اما اليوم فقد اصبحت عشائر الغور كعرب الغزاوية والغوارنة من الفلاحين الذين يقيمون في بيوت الشعر ويفلحون الارض ويعتنون بتربية الماشية.

وخير مثل على القسم الثالث قبائل بئر السبع؛ وهؤلاء — كأهل قضاء غزة من القبائل العربية العريقة التي يقول ياقوت (في معجم الادباء ترجمة الامام الشافعي رضي الله عنه). انهم من اليمانية التي جاءت فلسطين واستقرت فيها مع الفتح الاسلامي. وتتألف هذه القبائل اليوم من الترابين الذين تمتد دبرتهم، جنوباً في الاراضي المصرية فتصل خليج السويس وهم يتنقلون في البلاد ويجوبون السهول الواقعة شرقي رفح وغزة. اما التياها فتقع دبرتهم وراء خط بئر السبع — الرحيبة والقصيمة. وتقع دبرة الظلام الى الشرق من منازل التياها بين وادي الملح من الشمال وجبل اللسن في الجنوب، ودبرتهم هذه صحراء جبلية. وتتداخل دبرة العزازمة في اراضي الظلام. وتقطع وادي مراح من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي. اما دبرة السعيديين فتقع جنوب شرقي العزازمة وتمتد الى وادي عربه فتقطعه. وهذه القبائل جميعها اذا استثنينا منها الترابين، تبدو اليوم قليلة العدد ولكنها تملك مساحات شاسعه من الاراضي التي سنحدثك عنها بعد هنيهة في هذا الحديث.

ان الاراضي التي تقيم فيها هذه القبائل تعرف اداريا اليوم بقضاء بئر السبع وتبلغ مساحتها حوالي نصف مساحة فلسطين تقريباً، وقد عرفت مؤخراً باسم «النجب» زعماً بأن هـــذه الكلمة العبرية التي تعني الجنوب اطلقت في السابق على هذه المنطقة. والواقع ان العرب اسمت المنطقة منـذ القديم باسم «النقب»، وهو جمع واحده «النقب»، ومعناه الطريق في الجبل وذلك لكثرة ما في هذه المنطقة من النقـ[illegible] غارب والنقب

Digitized by Birzeit University Library

الصيفي ونقب الزويرة . وقد صحف النساخ في ياقوت نقب غارب فجعلوه «نقب عازب.» قال ياقوت في معجم البلدان: نقب بالفتح ثم السكون وآخره باء موحدة. ونقب عازب موضع بينه وبين بيت المقدس مسيرة يوم للفارس من جهة البرية بينها وبين التيه . ولكن ابا يعلي حمزة ابن القلانسي ذكر هذا النقب في تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق على وجه الصحيح قال : ونقب غارب بينه وبين بيت المقدس يومان للفارس . ولعل هذا المكان سمي بنقب غارب لان الطريق تقع في سفح الجبل وكأنها بالنسبة الى الجبل تقع على كاهله فيما لو شبه الجبل بالانسان او بين السنام والعنق فيما لو شبه الجبل بالبعير .

ومنطقة « النقب » هذه قليلة السكان بالنسبة الى مساحتها من اجل ذلك قامت حكومة فلسطين مؤخراً بالبحث والتنقيب للتوصل الى حقيقة ما اذا كان بالامكان اعمار هذه المنطقة واستثمارها وقد عقد فصل بنتيجة ذلك البحث في (تقرير الحكومة سنة ١٩٤٦ صفحة ١٣٦٨) نورد اليك فيما يلي خلاصة ما جاء فيه :

لقد شجعت الاكتشافات الاثرية في هذه المنطقة الرأي القائل بان بعض تلك الاراضي اعالت في العهد البيزنطي وما اليه ، عدداً من السكان يزيد عن عدد الانفس الذين يعيشون فيها اليوم .

وتقسم هذه المنطقة من حيث الاقليم الى ثلاثة اقسام :

(أ) المنحدر الهار الذي يقع الى الشرق من مسيل المياه فيما بين البحر الابيض المتوسط ووادي عربه (وهو الحد الجنوبي لمنخفض الاردن والبحر الميت العظيم .)

(ب) المنحدر العميق الواقع الى الجهة الغربية من هذا المسيل .

---

١. A Palestine Survey, Page 368

Digitized by Birzeit University Library

(ج) والسهل الواقع الى اقصى الحد الشمالي الغربي من هذه المنطقة.

ان المنطقة الداخلة في (أ) و (ب) من هذا التقسيم هي من حيث المناخ صحراء تقل كمية الامطار التي تهطل فيها عن ١٠٠ ميليمتر في السنة. اصقاعها تلال كلسية ليس فيها تراب وليس فيها ماء. على ان الوديان قد جرفت بعض التربة من اقصى حدود قسم (أ) الشرقية وحملتها الى وادي عربه حيث تنبت بعض الاعشاب التي تتحمل الجفاف وتنمو وتكيف نفسها للمحيط الصحراوي. وهذه الاعشاب هي التي ترعاها في الشتاء ابل وماعز بعض القبائل العربية المقيمة هناك. اما الزراعة فتنحصر في مساحات معزولة من هذا القسم تقع في وادي عربه (ولا سيما في جانب شرقي الاردن من حدوده) وفي وادي افجي، لكن نجاحها يتوقف دائماً على الاقدار التي ليس لبد الانسان عمل فيها نظراً لقلة سقوط الامطار. وتكاد تكون الحال في الجزء الغربي من القسم (ب) من حيث انجراف تربة التلال مشابهة للحال التي عليها قسم (أ) إلا ان منحدرات الوديان اقل انخفاضاً في هذه القسم عن شبيهاتها في القسم (أ) ولذلك فقد احتفظت بتربة عميقة الى حد لا بأس به. ولما كان هطول المطر في هذا القسم من مسيل الماء، هو اكثر منه في الاقسام الاخرى فانه يبدو اكثر صلاحية للرعي وللزراعة في قيعان الوديان إلا ان نجاح الزراعة يتوقف على كمية ما يهطل من الامطار في الموسم.

والواقع ان الاراضي الصالحة للزراعة تقع في القسم الثالث فقط، وذلك باستثناء بعض قيعان الاودية التي تزرع فيها اجزاء متفرقة هنا وهناك في بعض السنة، وتبلغ مساحة الاراضي القابلة للزراعة في هذا القسم حوالي ١٦٤٠٠٠٠ دونم يفلحها جميعاً السكان البدو (اللهم إلا الاراضي التي اشتراها اليهود البالغة مساحتها حوالي ٩٠٠٠٠ دونم). والبدو مزارعون من الطراز الاول وقد برهنوا على انهم يتمشون في اصولهم الزراعية مع الاساليب

Digitized by Birzeit University Library

الحديثة . وقـــد ادخلوا الى بلادهم المحاريث الآلية ويزيدون كل سنة في المساحات المزروعة بالاشجار المثمرة . وتغطى الكثبان الرملية المتنقلة جزءاً لا يستهان به من هذه المنطقة، وقد اثبتت الحفريات الاثرية ان هذه الكثبان كانت موجودة في الخلصة حوالي القرنين الثالث والرابع بعد المسيح .

وعلى ذلك فيمكن تقسيم ارض النقب الى الاقسام الفرعية التالية :

	دونم	دونم
قسم (ج) الارض القابلة للزراعة ومساحتها	١٦٤٠٠٠٠	
الارض الغير قابلة « «	١٢٦٠٠٠٠	٢٩٠٠٠٠٠
قسم (أ) و (ب)		٩٦٧٦٠٠٠
مجموع مساحة النقب		١٢٥٧٦٠٠٠

ويتوقف محصول قسم (ج) على المناخ ، وكذلك على المنـاخ يتوقف اتساع المساحة التي تفلح في اية سنة من السنين لان السكان يضنون باضاعة بذارهم في الارض . وقـد اثبت الاختبار ان سنة محل في المحصول تقع في كل اربع سنوات بسبب الجفاف في هذا القسم ، وان في سنتين من هذه المدة يصيب المزارعون نصف محصول وفي السنة الاخيرة ينالون محصولا كاملا . وبكلمة اخرى ان مزارعي هذا القسم من منطقة النقب يعود عليهم من فلاحتهم نصف محصول في كل دورة اربع سنوات.

لقد قدر عدد سكان قضاء بئر السبع في احصاء سنة ١٩٣١ بـ ٥١٠٨٢ نسمة . ولا تسجل المواليد والوفيات بين البدو ولذلك فان عدد سكان هذه المنطقـة لا يعرف بالضبط . بيـد انه لو اعتبرنا حـداً ادنى للزيادة الطبيعية للسكان نرى ان عدد السكان الحالي كبير بالنسبة لقابلية الارض للانتـاج وقد برهنت الاحصاءات التي اجريت مؤخراً ان عدد سكان المنطقة مائة ألف ويزيدون .

Digitized by Birzeit University Library

ويرجع السبب — ولا شك — في العجز عن زيادة انتاج الارض الى قلة المياه ؛ فمن جهة نجد مقدار المطر الذي يسقط في هذا القضاء قليلا جداً ولا تعلم اوقاته بالضبط ، والتجارب التي اجريت للكشف عن المياه التي تحت الارض باءت بالفشل من الجهة الاخرى . وقد حاولت الحكومة ان تقوم على وجه التجربة ، في سنة ١٩٣٥ ، بجمع مياه الامطار في سدود اقامتها في قيعان الاودية الكبيرة ولكن محاولاتها كانت عبثاً لان الارض اثبتت انها كثيرة الامتصاص للماء فابتلعت المياه التي جمعت بكاملها .

وقد حفر ثماني عشرة بئراً ارتوازياً اختير لها احسن المواقع جيولوجياً وطبيعياً ولكنها جميعاً ، باستثناء بئرين منها ، لم تؤد الى نتيجة ما . وهاتان البئران حفرتا في منطقة الرمال الساحلية التي يعتبر وجود المياه فيها امراً مسلماً به . اما الست عشرة بئراً الاخرى فان اربع عشرة منها كان حفرها تجربة فاشلة بالكلية؛ وجاءت البئران الاخريان بملح اجاج يشك في الاستفادة من مائه . وما زالت الحكومة الى اليوم تقوم بتثبيت الرمال بواسطة غرس الاشجار ، وبتحسين التربة عن طريق تحديد الرعي .

(انتهى ما اختصر من تقرير الحكومة)

ويتبين لك من هذا الفصل الصعوبات التي يقاسيها في معيشتهم اهل منطقة بئر السبع الذين جعلنا منهم مثلا على الفريق من السكان المتوقفة اسباب معيشتهم على رعي الحيوانات والزراعة ، وهم مع ما وصفهم به تقرير حكومة فلسطين من استخدامهم لاحدث الاساليب الزراعية ما يزالون يعانون الشيء الكثير من مرارة العيش ولا يكادون يحصلون على قوتهم الضروري إلا بشق الانفس ، ومحصولهم الرئيسي هو الشعير ، ويقدر ما يصلح منه للتصدير في السنين المخصبة بعشرين الف طن . إلا ان اول بادرة من مقاومة حكومة الانتداب وقفت عثرة في سبيل استفادة سكان هذه المنطقة كانت في سنة

Digitized by Birzeit University Library

١٩٢١ وهي من اخصب السنين التي عرفتها بئر السبع حين منعت تصدير الشعير بامر اصدره المندوب السامي ونشر في الجريدة الرسمية .

صيد الاسماك : تتألف صناعة صيد الاسماك في فلسطين من فرعين يختلفان من حيث موقع المياه التي تصاد منها الاسماك . وهذان الفرعان يساهمان في انتاج كميات غير متساوية من الغـــذاء ويضعان العائلات التي يمارسهما افرادها في مستويين اجتماعيين يختلف احدهما عن الآخر .

الفرع الاول : يتألف من صيد الاسماك في شواطئ البحر الابيض المتوسط الفلسطينية وفي خليج العقبة . وقد كانت سواحل قيسارية وارسوف (وهي حرم سيدنا علي اليوم) وعسقلان وغزة وعكا وحيفا من المواقع التي اشتهرت في القديم بصيد الاسماك . وقيسارية كانت ميناء معموراً في ايام المقدسي وقد وصفها في كتابه فقال : « ليس على بحر الروم (البحر الابيض اليوم) بلد اجل واكثر خيرات منها ، تفور نعماً وتتدفق خيرات طيبة الساحة حسنة الفواكه عليها حصن منيع وربض عامر قد ادير عليه الحصن ، شربهم من آبار وصهاريج ولها جامع حسن . » ولكنها اليوم اصبحت بعد أن هجرها سكانها الاقدمون قرية صغيرة يقيم في جوارها بعض البدو ويسكنها نفر قليل من البشناق . وكانت ارسوف في زمانه « مدينة حصينة عامرة بها منبر حسن وهي اصغر من يافا » ولكنها اليوم ليست سوى قرية صغيرة بها قبر الرجل الصالح الجليل سيدنا علي بن علم . وكان هدف الصيادين في هذه السواحل ان يصيدوا السمك ، ويجمعوا الاسفنج وما اليه من الاحياء المائية الاخرى من داخل البحر . إلا ان هذه الصناعة لم تكن يمارسها في القديم اربابها ليعيشوا من خيراتها مستقلة ، وانما كانوا يزاولون الى جانبها اعمالا اخرى طلباً للرزق . فكانوا يجوبون البحر في قواربهم ينقلون السلع التجارية من بلد الى آخر على ساحل البحر فتتقوى في نفوسهم

Digitized by Birzeit University Library

روح الشجاعة والاعتداد بالنفس وحب المجازفة . وكانوا يمثلون بقواربهم اسطول البلاد التجاري والحربي . وقلعة الصيادين في هذه الشواطئ هي ولا شك قواربهم .

واما الفرع الثاني : فيتألف من صيد الاسماك في داخل البلاد ، من بحيرة طبرية وبحيرة الحولة ، واعالي نهر الاردن. وطبرية اشتهرت في التاريخ بكثرة اسماكها . قال المقدسي : « هي كثيرة الاسماك ، خفيفة الماء ، والجبل مطل على البلد شاهق . » ومراكز صيد الاسماك لبحيره طبرية هي طبرية على الشاطئ الشرقي والطابغة والبطيحة (في عجلون) على الشاطئ الشمالي. ولكن صيد الاسماك في طبرية اكثر ما يكون بكميات كبيرة في الشتاء واوائل الربيع فقط . وخليج الطابغة اشتهر في القديم بكثرة ما يأوي اليه من السمك ليبيض في مياهه الدافئة في الربيع ، وليعيش على نفايا الحشائش التي تقذفها الينابيع الحارة الواقعة على الشاطئ اليه . وانك لترى الصيادين في الاكواخ الخشبية والعرائش المؤلفة من اغصان الشجر والحشائش يقيمونها حوالي الطابغة بين كانون الثاني ومنتصف نيسان من كل سنة . اما الصيد في البطيحة فيقع بشكل واسع مستمر طوال ايام السنة ، فتجمع كميات كبيرة من السمك بالقرب من مصب الاردن ، ومن مياه هذا النهر ، وهي من انواع يختلف ما يصاد منها في كل فصل من فصول السنة عما يصاد في الفصول الاخرى . وقد اشتهرت البقعة القريبة من خرائب التل بكثرة ما فيها من الاسماك . ويقيم الصيادون الطبريون في عرائش ينصبونها لانفسهم في هذه الناحية . وتصاد الاسماك من بحيرة الحولة وعين الملاحة من قبل البدو الذين يتخذون لانفسهم بيوتاً من اغصان الاشجار يعرشونها في موسم الصيد .

وقد كانت اشهر انواع السمك المعروفة في هذه الجهات ثلاثة : المشط ، والسلور ، (وهو سمك له سبال « شوارب » كالهر) ، والشبوط

Digitized by Birzeit University Library

وكانت جميع هذه الاسماك تصاد بشباك من اشكال ثلاثة : شبك الطرح ، وشبك الجذب والشبك المبطن . على انهم كثيراً ما كانوا يعمدون الى طريقة الصيد القديمة فيسممون الاسماك ثم يجمعونها .

وصيادو السمك الطبريون كانوا يؤلفون طبقة مخصوصة في المجتمع ، وكانوا رجالا بواسل من المسلمين وقليل منهم كانوا من النصارى العرب . وكانت هذه الصناعة وراثية في أسرهم وكان اصلاح الشباك من وظائف نسائهم . وكانت طبرية ترسل السمك الى صفد والناصرة وبقية مراكز الجليل بشكله الطري ؛ وترسل الى القدس ودمشق السمك المملح . وكانت الحولة وعين الملاحة ترسل السمك الطري الى صفد ومرجعيون ودمشق وترسل المملح الى زحلة وغيرها من مدن لبنان . إلا ان السمك الطري لم يكن يباع في الصيف في غير مدينة صفد . وكان الكيلو الواحد يباع بما يقرب من الخمسة والعشرين ملا بعملة فلسطين الحالية . وكانت الحكومة العثمانية تتقاضى خمس المحصول وقد لزمته لبعض الملتزمين فبلغ ما تقاضته عن ثلاث سنوات الف ليرة تركية .

وقد تطور صيد السمك اليوم في فلسطين : واصبح يصاد بالاساليب المشروعة ، وبالطرق الممنوعة . فاما الاساليب المشروعة فهي التي تناقلها الخلف عن السلف وتتألف من الصيد بالشباك وبالصنارة يضاف اليها اساليب اخرى حديثة استخدمها صيادو حيفا وعكا والزيب وتتألف من اطلاق انوار قوية في البحر تجذب السمك الى شباك خاصة ينصبونها له. اما الطرق الممنوعة فهي الصيد بواسطة اطلاق الديناميت في البحر وهذا يعاقب عليه قانونا في فلسطين .

ويتألف قسم كبير من صيد البحر في فلسطين من السردين ، وقد بلغت

Digitized by Birzeit University Library

كمية ما صيد منه ومن البوري الرمادي والاحمر ، ٢٨٢٠ طناً ، في سنة ١٩٤٤ وقد زاد عدد مصائد الاسماك في فلسطين خلال الحرب فاصبح خمسة واربعين بعد ان كان اثنتين فقط . على ان مما يؤخر في تقدم الصناعة ويحد من نشاط القائمين بها انعدام وسائل انزال الصيد ولا سيما في ميناء يافا .

وتوجد في خليج العقبة ، وهو في اقصى جنوب فلسطين ، انواع من سمك المناطق الاستوائية ، منها السلاحف والاسقمري والسمك المفلطح وكلب البحر وغيره ولم يكن احد يستفيد من اسماك هذا الخليج منذ ايام حكم العرب حتى الحرب الاخيرة ، وذلك بسبب فقدان طريق صالح بين العقبة ومدن فلسطين الرئيسية . إلا انه قد اقيمت ماكنات للتبريد في العقبة في مدة الحرب وسفينة للتبريد تلتقط السمك من الصيادين ويكبس فيها بالثلج ويحمل بسيارات النقل عبر سيناء وبئر السبع الى مدن فلسطين الرئيسية . غير ان الصيد في هذه المنطقة يقع تحت ادارة الحكومة وعلى نفقتها المباشرة . وقد اخرجت مصايد خليج العقبة منذ سنه ١٩٤٣ حتى اوائل سنة ١٩٤٥ خمسة وعشرين طناً من السمك بيع في فلسطين .

ان لبحيرة طبرية من حيث كثرة اسماكها قيمة اقتصادية وقد استمر التعامل القديم الذي خلفه العهد العثماني بصدد حقوق الصيد فكانت الحكومة تلزم حقوق الصيد في مقابل ضريبة قدرها عشرون في المائة . وفي سنة ١٩٢٠ ألغت الحكومة ضريبة الصيد واباحته للجميع في مقابل رخصة تصدرها اليهم فكانت النتيجة ان ازداد عدد زوارق الصيد في البحيرة وازداد عدد الافراد الذين اخذوا يعتمدون في معيشتهم على صيد الاسماك. وبعد مرور حقبة من الزمن هي خمس عشرة سنة تنبهت الحكومة الى ان

Digitized by Birzeit University Library

السمك يكاد ينقرض لكثرة ما يصاد منه فحددت عدد الافراد المسموح لهم الصيد في البحيرة وعينت مقاييس خاصة لعيون الشباك .

اما انواع السمك الرئيسية التي تصاد اليوم في البحيره فهي ثلاثة : « الكرسين » او القشيري ، او الحفافي ، والمشط ؛ والسبال .

والى جانب مصائد الاسماك الكبيرة في سواحل البحر الابيض والحولة تصاد كميات ضئيلة من السمك في نهر الاردن والعوجا في جميع ايام السنة .

وعدا عن صيد الاسماك تصاد كميات بسيطة من الاسفنج في سواحل البحر الابيض المتوسط الفلسطينية ولكن هذا النوع من الصيد ما يزال في دور التجربة والاختبار .

ولا توجد اليوم في فلسطين اسواق منظمة لبيع السمك بالجملة والمفرق بيد ان هناك حوانيت يورد اليها الصيادون اسماكهم فتشتريها منهم باسعار رخيصة وتبيعها للمستهلكين بارباح عالية : ذلك لان جل الصيادين يرزحون تحت ديون لاصحاب تلك الحوانيت . وبالرغم من ان اكل السمك في فلسطين — يكاد يكون من الكماليات التي لا تنالها الطبقات الفقيرة لارتفاع الاسعار ، ما يزال الصيادون يعيشون عيشة ضنك ومخمصة .

وقد بلغ عدد الصيادين خلال سنة ١٩٤٥ ، في انحاء البلاد ٣٣٥٧ وبلغ عدد زوارقهم ٦٧٣ وقد اصطادوا ٤٠٤٠ طناً من مختلف انواع السمك قدرت قيمتها بـ ١١٢٥٩٦٠ جنيهاً فلسطينياً .

ان للطبقة التي تعيش على صيد السمك في فلسطين اليوم مورداً للعيش لا ينضبه إلا تدخل الحكومة المحلية في وضع قيود والتزامات على الصيادين، فالسمك في الماء لا يتعرض لخطر الامراض التي تتعرض اليها انعام الرعاة ومواشيهم ، ولا تحد من نموه وتكاثره العوامل الجوية التي كثيراً ما تؤثر

Digitized by Birzeit University Library

في الحشائش التي تتغذى منها ابل الرعاة وحيواناتهم . والصيادون يعيشون في الشواطئ يلجأون اليها بزوارقهم ويتخذون بقربها مساكن لهم ؛ ومنهم من ينشئ لنفسه مزارع صغيرة او يزاول حرفة اخرى او تجارة يساعده الكسب منها على اقامة اود حياته . والصيادون — بسبب تعرضهم دوماً لاخطار المياه — تجدهم على الغالب يؤمنون بالله ويتوكلون عليه ويعلمون ابناءهم صناعتهم وما يحيق بها من مجموعة الاصول المتعارف فيما بينهم حتى اذا ما نموا ونرعرعوا ساروا على آثارهم دون ان يحيدوا عنها قيد أنملة .

استثمار الاحراش : كان السكان الذين اعتادوا العيش من حاصلات الاحراش يقيمون في مناطق تتوفر فيها شروط خاصة . فكانوا يقيمون في الاماكن الجبلية التي لا تصلح عادة للزراعة وكانت في الغالب بعيدة عن العمران وعن الحركة الاجتماعية التي تسود الوديان الممرعة والسهول الخصبة ، وتلك المناطق حبتها الطبيعة بغابات كثيفة واشجار برية ملتفة . كانوا يستخرجون منها الحطب للوقود والخشب للعمران يبيعونهما في اسواق المدن والقرى القريبة منهم . وقد اشتهرت سلسلة جبال الكرمل في التاريخ بانها من مناطق الاحراش الطبيعية في فلسطين . ويقول « اوليفانت » : إن الارض الواطئة تحيط بالكرمل ، وإن الاودية التي في بطون جباله كانت غاصة بالاشجار الكثيفة . » إلا ان جل الاشجار الصالحة لاستخراج الخشب منها قد استؤصلت لتقديم الحطب والفحم لمدينة حيفا ولاشباع معامل الجير الملحة التي كانت كثيرة في تلك النواحي . ومن جهة اخرى جنت قطعان الماعز على تجديد تلك الاحراش بالتقاطها بذور الاشجار من الارض حتى لم يبق منها ما ينبت منه اشجار جديدة بفعل الامطار .

وقد كانت شجرة البلوط قوام احراش الكرمل وكان فيه الكثير من اشجار الصنوبر .

Digitized by Birzeit University Library

وكانت المنطقة الواقعة بين نهر المقطع ووادي الملك من القسم الغربي من سلسلة جبال الناصرة مكسوة باشجار البلوط الكثيفة . وكذلك كانت تلال الشاغور والجبال الواقعة شرقي الرامة تؤلف غابات عظيمة . اما الجبال التي تبدأ من سهول عكا الى الناصرة وشرقي جبل الطور فقد اجتزت الحرب العظمى احراشها الكثيفة لتغذي بها قاطرات السكة الحديدية .

وفي جبال الخليل الغربية كثير من احراش البلوط الطبيعية التي اعتمد عليها السكان في القديم للوقود وصنع الادوات الزراعية .

ولما كانت فلسطين ، برغم انها تحد الصحراء ، بلاداً ليست صحراوية ما عدا الارض الواقعة الى جنوب بئر السبع وبعض اقسام في غور الاردن ، فان اقسامها الاخرى صالحة للاشجار والاحراش الطبيعية المختلفة التي ما زالت بقاياها منتشرة في انحاء البلاد حتى يومنا هذا ، ولا سيما في المنطقة الواقعة الى الغرب الجنوبي من مدينة الخليل التي تكاد تغطيها اشجار البلوط. وقد اتحدت عوامل ثلاثة على اتلاف اشجار الغابات البرية في فلسطين : فقد قام الحطابون بقطع هذه الاشجار لبيعها وقوداً للمدن والقرى اما بشكلها الطبيعي كحطب او بعد تحويلها الى فحم او بتقديمها للنيران تأكلها لصنع الجير ؛ وقد رعت الاغنام بقايا هذه الاشجار وبذورها فلم تنبت اشجار جديدة مكانها؛ واستأصل اصحاب بعض اراضي الاحراش الخاصة اشجارها واصلحوا اراضيهم واستعملوها لزراعة الحبوب والاشجار المثمرة كما حدث في اللواء الشمالي وجبل نابلس . وقد نتج عن ذلك انجراف التربة وافقار الاراضي التي كانت تكسوها تلك الاحراش .

وقد كانت هنالك طبقة خاصة من السكان تعيش على حاصلات تلك الاحراش إلا ان تلك الطبقة اندمجت اليوم في المزارعين لان حاصلات

Digitized by Birzeit University Library

الاحراش اصبحت ضئيلة جداً وعاجزة عن ان تقوم بأودهم. واصبح بعض الحطابين القدماء يصنعون الفحم من حاصلات الاحراش في مواسم الصيف، ولكنهم لا يعتمدون على هذا العمل إلا لسد قسم من نفقات معيشتهم؛ ولا سيما بعد ان تدخلت الحكومة المحلية في الامر وحظرت قطع الاشجار من الغابات وجعلتها مناطق ممنوعة على رعي الحيوانات. ومع ذلك فقد بلغ مقدار الحطب الذي انتجته الغابات العامة والاحراش الخاصة في فلسطين خلال سني الحرب حوالي ربع مليون طن. وبلغ مجموع مساحة الاحراش العامة ٩٥٨٧٥٢ دونماً، في آخر سنة ١٩٤٥.

على ان حياة حطابي الاحراش في فلسطين كانت سليمة راضية. ذلك لان هؤلاء الناس كانوا — على النقيض من سكان السهول، حيث يتفاوت توزيع الثروة وادخار الاموال، يعيشون في احراشهم ويحافظون عليها لتصل الى ورثتهم صالحة للانتاج؛ فيجد هؤلاء الوارثون مورداً ضئيلا يعتمدون عليه في بدء حياتهم فيما اذا انفصلوا عن مساكن آبائهم. ولم يكن في وسع هذه الطبقة من السكان ان تحصل على جميع اغذيتها من الطبيعة مباشرة، (كدأب الرعاة وصيادي السمك) وانما كان هذا الغذاء يصلهم بسهولة لرغبة سكان القرى المجاورة والمدن في استبدال الاغذية بالحطب والاخشاب من جهة، ولانهم كانوا يتصرفون ببعض الاراضي يفلحونها ويتمتعون بخيراتها. من الجهة الاخرى.

لقد تسبب عن قطع الحكومة العثمانية في الحرب الكبرى لجل احراش البلاد وعن استيلاء الحكومة الحالية في فلسطين على مناطق الاحراش وجعلها غابات ممنوعة، انقراض هذه الطبقة من بين السكان واندماجها في الطبقات الاخرى

Digitized by Birzeit University Library

فقل الانتاج المحلي من الحطب والاخشاب وبذلك ارتفعت «المنفعة الحدية ١» لهذا الانتاج وارتفعت اسعاره تبعاً لذلك .

---

١. «المنفعة الحدية لاي سلعة هي الزيادة او النقص الذي يطرأ على «المنفعة الكلية» نتيجة للزيادة الضئيلة او النقص الضئيل الذي يطرأ على الكمية المعروضة من السلعة . وهي لا تمثل دائماً بوحدة معينة ، فقد تكون جميع وحدات العرض متماثلة في الجودة فتعتبر انها حدية باستمرار تغير الظروف . حقاً قد يتكون العرض في بعض الحالات من وحدات مختلفة الجودة ، وذلك مثل الارض بمختلف درجاتها ومثل الآلات المختلفة الكفاية في المصنع ، ففي مثل هذه الحالة تعارف الناس على وصف اردأ درجة من الارض بالارض الحدية ، وعلى اقل الآلات كفاية في المصنع بالآلة الحدية ؛ وذلك لانه اذا حدث لاي سبب من الاسباب ما يدعو الى نقص العرض ، فان هذه الارض وتلك الآلات هي التي يحتمل — ولا نقول يتحتم — عدم استغلالها بادئ ذي بدء . ولا تعتبر هذه الارض ولا تلك الآلات حدية بطبيعة جودتها ، بل انها تعتبر حدية بالنسبة للعرض الجديد . . . فاذا نقص العرض لاي سبب من الاسباب فلن نستعمل بعض الاراضي وبعض الآلات سواء أكانت هذه الاراضي وتلك الآلات مماثلة تماماً لغيرها (من التي تبقى في الانتاج) أم مختلفة عنها .

والمنفعة الكلية للسلعة — التي يملكها شخص من الاشخاص — تزيد بزيادة كميتها ولو ان ذلك يتم بمعدل متناقص بعد حد معين ، في حين ان منفعتها الحدية تنقص على كل زيادة تطرأ على هذه الكمية .

والسلع ، إما حرة ، وهي التي توجد بكميات تفيض عن حاجات الانسان ، كالماء والهواء والنور وجميع الاشياء التي لا خيار لنا في زيادة او نقص الكمية الموجودة ؛ منها ؛ وإما اقتصادية ، وهي وحدها التي تكون الثروة التي يمكننا تلخيص خصائصها في الآتي : انها قادرة على اشباع الحاجات ، اما بطريق مباشر او بطريق غير مباشر وانها نادرة وهي تشمل السلع والخدمات المادية وغير المادية مما لا تدخل في نطاق السلع الحرة . راجع مارشال في كتابه « مبادىء علم الاقتصاد » ، وشارل جيد في كتابه « مبادىء علم الاقتصاد السياسي » وعناصر علم الاقتصاد ج ١ ، للدكتور محمد فهمي لهيطة ، ومحمد حمزة عليش .

Digitized by Birzeit University Library

التعدين وصناعاته : ينقسم التعدين من حيث علاقته باسباب المعيشة الى انواع ثلاثة: استخراج المعادن التي تستعمل في الوقود وقد بدأت تظهر مكانتها في الوجود في القرن التاسع عشر واهم عناصرها الفحم الحجري والزيوت المعدنية . ولم يثبت وجود هذه المعادن في فلسطين في عهد ما من العهود . بيد ان شركة (سوكوني فاكوم) الاميركية كانت تعد عدتها لحفر آبار للبترول بالقرب من خربة قويص جنوب شرقي (كرمل) في دبرة الجهالين وهذه المنطقة تقع على بعد سبعين كيلومتراً تقريباً من جنوب الخليل وقد انشأت طريق من الخليل الى منطقة البترول ولكن الحرب العظمى عطلت العمل ولم تقم له بعد ذلك قائمة . إلا انه لوحظ مؤخراً ان اعمال التنقيب في كرمل اخذت تظهر للعيان ثانية في سنة ١٩٤٦ .

والنوع الثاني من هذه المعادن هو المواد المستعملة في البناء والتعمير والانشاء كالحجارة والاسمدة الكيماوية والمواد الاولية المستعملة في صناعة الزجاج والفخار وكثير من الحاصلات الطبيعية التي توجد بكميات وافرة على عمق قليل من سطح الارض . ولا يستلزم استخراج هذه المواد عملا يزيد على العمل اليومي الذي تعتبره بعض الجماعات التي تعتمد في معيشتها على اعمال اخرى عملا اضافياً لها . ولما كان هذا الضرب من العمل متقطعاً فانه قلما تكون منه في القديم صناعة مستقلة تعيل مجموعة من الناس طوال ايام السنة . ففي المنطقة الجبلية في فلسطين مثلا تجد انواعاً من الحجارة التي تستعمل في البناء : فهناك الحجر الكلسي الاحمر بالقرب من بيت لحم في لواء القدس ، وهناك محاجر وادي رشميا ومقاطع عتليت للحجارة في لواء حيفا ، وتوجد في قضاء صفد محاجر يستخرج منها الحجر الاصفر الجميل . ويوجد في طبقات بعض اراضي الغور الكلسية وبالقرب من مدينة غزة معدن الكبريت . وقد كان البدو يستعملونه في عمل المساحيق . ويوجد

Digitized by Birzeit University Library

القار او الحمر — كما يسميه العرب — والحجارة القارية بالقرب من النبي موسى وفى وادي « محوات » وفي غور البحر الميت وفى وادي الهجير بالقرب من طبريا . وكان اهل بيت لحم فى السابق يعملون من الحجر القاري (ويسمى ايضاً حجر موسى) اطساتاً واواني اخرى للزينة . ويوجد الجبس فى بعض جبال القدس . وتوجد ينابيع مياه معدنية حارة فى لواء نابلس ، فى وادي المالح الى الشرق من طوباس . ويستخرج الملح من ملاحات اقيمت على الشاطىء بالقرب من عتليت ومن البحر الميت ويستخرج البوتاس من هذا البحر ايضاً .

اما النوع الثالث من هذه المعادن فيتألف من المعادن الثقيلة التي توجد فى طبقات الارض ممزوجة بالاتربة ولم يكتشف فى فلسطين منها فى السابق إلا منجم واحد للحديد افتتح بالقرب من اجزم فى لواء حيفا ، ولكنه اهمل فيما بعد . ولو وجد فى البلاد معادن من هذا القبيل ولم تعط امتيازات بها للاجنبي ، لجاءت السكان بخير عميم . ولكن استثمار المعادن يحتاج الى جهد كبير ورأسمال ضخم ينفق الكثير منه فى الاعمال الاولية فيستفيد العامل من ذلك وتكون غاية العمل حقاً — ما قاله « لوبلي » : « وغاية العمل السامية ، لا ان نخلق الثراء المادي فقط ، وانما ان توجد جيلا من الناس يطيعون الله ويأكلون من خيراته ويخدمون وطنهم ايضاً . »

الزراعة وصناعاتها : استخدمت الزراعة منذ اقدم العصور لغايتين : لتطمئن الشعوب المتوحشة على معيشتها بارتباطها بالارض ، ولتحول السهول التي لا تصلح للرعي الى اراضى منتجة ، ولتزيد في موارد العيش عند صيادي الاسماك ولكي تنتج الاغذية الضرورية لجموع الحطابين ورجال التعدين وعمال المناجم ؛ وفي احوال اخرى نشأت الزراعة كصناعة مستقلة . ومهما يكن من امر نشوء الزراعة وتطورها فان الزراع ، دأبهم في ذلك

Digitized by Birzeit University Library

دأب جمهرة الطبقات الاخرى التي تحدثنا عنها في هذا الفصل — لا يعتمدون في معايشهم عادة على هذه الصناعة وحدها .

ويلوح لنا من غضون التاريخ ان حكام البلاد العرب شجعوا القبائل العربية التي رافقت الفتح الاسلامي الى فلسطين على الاستقرار في الارض وزراعتها ليتوصلوا بذلك الى امرين : انتاج الاغذية بكميات كافية ؛ وتكوين قوة دفاعية يستندون اليها عند الحاجة ، بتجمع عدد كبير من السكان في صعيد واحد يبنون فيه قراهم الزراعية . وقد نشأ من ذلك تقاليد وعادات كانت بعيدة الاثر في حياة هذه البلاد منها : حيازة الاشياء والحاصلات بشكل الملكية المشاعية ، وملكية الزعامة ، والملكية الفردية؛ ونشوء العادات التي تلزم الملاكين باستخدام مواردهم في تأمين حياة السكان .

اما نظام « الملكية المشاعية » فقد جعل لبعض الاسر الزراعية كامل الحق في التمتع ببعض الاراضي . وفي فلسطين نوعان من الملكية المشاعية في اراضي القرى الزراعية . وقد بينت اللجنة التي عينتها حكومة فلسطين في سنة ١٩٢٣ لدرس المشاعات وتوزيعها في هذا البلد تاريخ هذين النوعين . قالت :

يبدو ان النوع الاول من الملكية المشاعية — وقد كان واسع الانتشار في فلسطين — قد نشأ في زمن سابق ، لم يدركه احد من الناس الذين على قيد الحياة اليوم ، فقسمت اراضي القرية بين سكانها الذكور بالتساوي وجعل لكل منهم سهم معين فيها . ولعل هذه الاراضي كانت في القديم ملكا او اقطاعاً لبعض الزعماء او المشايخ فمنحوها اسهماً للسكان في مقابل حصة في الحاصلات . وعند وفاة صاحب السهم آل سهمه الى ورثته ، لكل منهم جزء معين . وقد يجمع شخص واحد بالشراء او بغير ذلك من الطرق المشروعة سهمين او اكثر . وانك لتجد اليوم بسبب تجزئة الاسهم شخصاً يملك مثلا $\frac{١}{١٧}$ من $\frac{٣}{٢٣}$ من $\frac{٢}{٩}$ السهم . وقد كان للنساء نصيب في هذه الاسهم ولكنهن

Digitized by Birzeit University Library

كانوا دائماً يغرون على التنازل عنه ، ذلك لكي لا يؤدي زواجهن بالاجانب الى اشتراك هؤلاء بملكية الاسهم . وهذا النظام في الملكية المشاعية يختلف بين قرية وقرية . وسكان القرى في فلسطين يتألفون من « حمايل » ولكل « حمولة » مساحة معينة من ارض القرية خالصة لها من دون السكان . وتلك المساحة تقسم بين افرادها على الوجه المبين فيما بعد . وبتعيين ارض لكل حمولة لا يسري نظام المشاع على القرية بكاملها وانما تختص كل حمولة مستقلة بمشاعها .

اما النوع الثاني من الملكية المشاعية — وهذا غير منتشر انتشار النوع الاول — فمبني على الحال الحاضرة التي يجري فيها التوسع . فلكل ذكر من سكان القرية — من الطفل الحديث الولادة الى الشيخ الهرم — موجوداً على قيد الحياة حال القسمة ، نصيب متساو في مشاع القرية . وجلي ان موقع حصة كل فرد بموجب هذا النظام الشيوعي يتغير عاما فعاما ، وان البيع والقسمة المؤبدة يستحيل وقوعهما .

ولما كانت مشاعات القرى تختلف من حيث الصقع ، فيقع بعضها في الجبل وبعضها في الحزن ، وبعضها قريب من القرية وبعضها بعيد منها ؛ وبعضها يصلح للزراعة الشتوية وبعضها للموسم الصيفي ، فقد اعتاد السكان تقسيم المشاعات الى مواقع يعطى للحمولة او للفرد اسهم معينة في كل منها .

وفي حالة النوع الاول — نظام الاسهم — تجري اعادة التقسيم بالاتفاق او بالقرعة . ولا يحسب حساب لاجزاء السهم الواحد وانما يخصص لكل سهم كامل ، مساحة من الارض يوزعها مالكو الاجزاء بينهم فيما بعد .

وفي نظام الملكية المشاعية الثاني — نظام الذكور — توضع قطع الاراضي المختلفة في المزاد فيأخذ اجودها الفريق الذي يضم اكبر عدد من المستحقين ، وهكذا الى ان ينال كل مستحق نصيباً يرضيه .

Digitized by Birzeit University Library

وتجري اعادة التقسيم في فترات مختلفة تمتد من سنة واحدة الى خمس سنوات وقد تصل في بعض القرى الى تسع سنوات . ويحتفظ اقرب الناس الى الغائبين والقصر بحصصهم بطريق الامانة الى حين عودتهم او بلوغ رشدهم . (انتهى ما اختصر من التقرير)

والى جانب هذه الملكية المشاعية توجد المباحات التي لم يكن لاحد حق الاستئثار بها إلا ان يتملكها بالاحراز ، وهذه المباحات هي الواردة بحديث : « الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار . » وقد عدد قانون الاراضي في فلسطين اربعة انواع اخرى من المشاعات :

الاحراش الفراعية (البلطه لق) المخصصة منذ القديم لاحتطاب قرية او قريتين معينتين يتنفع السكان بالاحتطاب منها دون تمايز او تفريق بينهم، الكبير والصغير والمجنون والعاقل منهم في ذلك سواء وبحق لهم بيع ما يحتطبونه للغير.

المراعي المخصصة منذ القديم لرعاية مواشي قرية او قريتين بالاشتراك معاً تتمتع بكلأها وحشيشها — والكلأ والحشيش هو النبات الذي لا ساق له .

ومحلات البيادر المخصصة منذ القديم ليستعملها اهل قرية ما بالاشتراك .

والمسارح والمحلات التي تستريح فيها الماشية في مدة الصيف .

ونظام « ملكية الزعامة » كان موجوداً في الاماكن التي تملك فيها اسرة واحدة مساحة من الارض تزيد على ما تستطيع ان تفلحه منها حتى ولو حشدت من اجل ذلك عدداً كبيراً من الخول والعمال .

ذلك ان اراضي الدولة العثمانية الاميرية كانت تقسم الى مقاطعات تدعى «تيمار» وهي الاراضي التي كان يبلغ ريعها بين ٣٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ درهم «وزعامة» وهي التي كان يتراوح ريعها بين عشرين الف ومائة الف درهم ، وكانت تعطى لكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين لقاء خدمات ماضية او التزامات

Digitized by Birzeit University Library

مستقبلة ، وكان يترتب على اصحاب التيمار والزعامة الخدمة العسكرية فعلا وان يقدموا عدداً من الجنود بنسبة مدخولهم من الدراهم، وكان عامة الناس يطلبون الاراضي من اصحاب التيمار والزعامة فيحيلونها لعهدتهم لقاء ما يتقاضونه منهم من المبالغ التي يفرضونها. وقد ألغيت المقاطعات بعد تنظيم الجيش العثماني إلا انه بقي في البلاد ملاكون ممن ورثوا مساحات شاسعة من الارض عن هؤلاء الزعماء ، وهؤلاء الملاكون ما يزالون منذ القديم يؤجرون اراضيهم في مقابل جزء عيني من الحاصلات وينتظمون بذلك في شركة مزارعة : هم يقدمون الارض فيعمل بها المستأجرون ويزرعونها والحاصلات تقسم بينهما او يدفعون للزعماء اجراً نقدياً او عينياً محدداً . ومتى دفع المزارعون هذه الاجور يتمتعون بكل الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها اصحاب « الملكية الفردية » ويخلفهم وارثوهم في المزارعة، ويخلف الزعماء نسلهم في الملكية وكان الزعماء دائماً يعتبرون اصحاب الاراضي وقد سجلت على اسمائهم عند صدور قانون الطابو سنة ١٢٥٧ هجرية . « وخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، باعوا بعد الاحتلال تلك الاراضي الى اليهود وسببوا للبلد المحنة التي ما زالت تقاسي ويلاتها حتى اليوم .

وتنحصر « الملكية الفردية » في اراضي فلسطين بنوعين : الاراضي المملوكة والاراضي الاميرية ؛ فالاراضي المملوكة « هي التي يتصرف بها صاحبها كيف يشاء كما يتصرف بالمنقولات، فله رقبتها وكافة حقوقها ويجوز له بيعها او رهنها او الايصاء بها، كما انه يورثها الى ورثته الشرعيين فلا تعود الى بيت المال بعد وفاته إلا إذا لم يوجد احد من ورثته ولو بعيداً . . . » واسباب تملك الاراضي ثلاثة، الاول الناقل من مالك الى مالك آخر كالبيع والهبة؛ والثاني كون واحد خلف الآخر كالارث ؛ والثالث تحويل الارض من اميرية الى ملك .

Digitized by Birzeit University Library

واما الاراضى الاميرية فرقبتها لبيت مال الحكومة ولكن اصحـــابها يملكون التصرف بها كاملا من زراعتها بكل شيء كالحنطة والشعير والارز والنيلة وغيرها من الحبوب وتزرع إجارة او إعارة او بخلاف ذلك . ولما كانت نسبة مساحة الاراضى المملوكة الى مجموع مساحة الاراضى الاميرية فى البلاد ضئيلة جـــداً لذلك فان قانون ميراث الاراضي الاميرية يكاد يكون القـانون الذي يطبق على جميع الاراضي الزراعية فى البلاد وهذا القانون يعتبر الورثة فى الاراضي الاميرية من درجات ثلاث :

درجة الانتقال الاولى، واصحابها هم فروع المتوفى، يعني اولاده واحفاده فيعود حق الانتقال في هذه الدرجة اول الامر للاولاد ، وبعدهم للاحفاد الذين يكونون خلفاً لهم ولاحفاد الاولاد . على ان الفرع الذي مات قبل المتوفى تقوم فروعه مقامه، يعني انهم يأخذون الحصة التي كانت ستنقل اليه.

واصحاب درجة الانتقال الثـانية ، هم ابوا المتوفى وفروعهما ، واذا كان الابوان في قيد الحياة ينالان حق الانتقال على المساواة .

اما اصحاب درجة الانتقال الثالثة، فهم اجداد وجدات المتوفى وفروعهم، واذا كان الاجداد والجدات جميعهم على قيد الحياة ينالون حق الانتقال على المساواة .

ويشترط في هذه الدرجات أن لا تنال حق الانتقال المؤخرة منها عند وجود المقدمة؛ على انه في حالة وجود اولاد واحفـاد للمتوفى إذا وجد له ام او اب او احدهما ، فحصة السدس تنتقل لهؤلاء . وفى حالة وجود زوج او زوجة للمتوفى ينال الموجود منهما حصة الربع عند الاجتماع مع اصحاب حق الانتقال الذين في الدرجة الاولى، وحصة النصف عند الاجتماع مع اصحاب حق الانتقال في الدرجة الثانية. واذا وجد الجد او الجدة وفروعهما ـ وقد اوجب لهم نيل حق الانتقال ـ فان الحصة التي كانت ستوجب لهؤلاء الفروع يأخذها

Digitized by Birzeit University Library

ايضاً الزوج او الزوجة . واذا لم يوجد احد من اصحاب حق الانتقال الذين في الدرجتين الاولى والثانية ، ولا احد الجدين فينال الزوج او الزوجة حق الانتقال منحصراً . واننا نورد فيما يلي مثالا على تطبيق هذا القانون .

فلو فرضنا ان شخصاً توفي عن ابن، على قيد الحياة، وعن احفاده، واحفاده من ولديه المتوفين قبله ، وعن ابويه وزوجته ؛ فتقسم اراضيه الاميرية باسهم مشاعية على الوجه التالي :

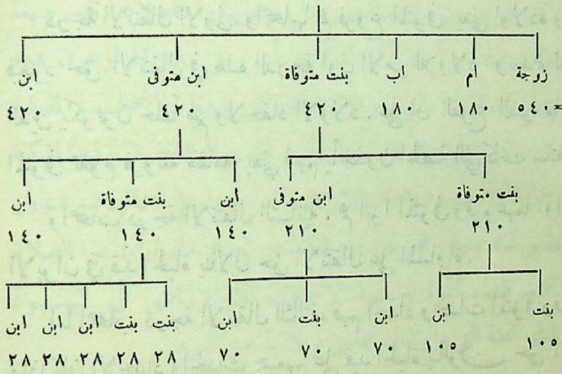

ويتضح من هذا انه بعد اجيال قليلة قد يصل مخرج الكسور لهذه الحصص المشاعية في الاراضي الموروثة الى اعداد فلكية ١ .

ولعل المثال التالي يبين تأثير قانون الانتقال في الاراضي الاميرية على معدل ما يحرزه الفرد الواحد من الاراضي الزراعية ١ .

يبلغ عدد سكان قرية السنديانة في قضاء حيفا حوالي ألف شخص يملكون فيما بينهم حوالي ستة عشر الف دونم من الارض يصلح ٦٠٪

---

١. A Palestine Survey

منها للزراعة . ولما بدأت فيها اعمال التسوية بلغ عدد الادعاءات غير المتنازع عليها في ثلاث قطع من سهل القرية (بمجموع مساحتها حوالي ٢٦٤٢ دونماً) ١٣٨٤ إدعاء تتناول ٣٢٦ قسيمة . وهذا يعني ان معدل المساحة المطالب بها في كل ادعاء هي ٨٩٤ متراً ٢ دونم تقريباً . وبعد مفاوضات وبحث انقص بالاتفاق عدد تلك الادعاءات الى ٣٩٣ واصبح معدل ما يتناوله كل ادعاء ٦٧٠ متراً ٦ دونم .

ان النظام القروي عند العرب اليوم في فلسطين ، ما يزال كما كان في السابق ؛ يتناول انواع المزارعين الثلاثة :

المزارع الذي يملك حصة مشاعية من الارض لا يحق له بيعها او قسمتها قسمة مؤبدة .

والمزارع المستأجر لبعض مساحات من الارض من ملاكي المساحات الشاسعة من السكان .

والمزارع الذي يعمل في ارضه الخاصة التي يملكها ويتصرف بها منفرداً ومستقلا ، واننا نورد فيما يلي جدولا يبين مساحات الارض التي زرعها العرب واليهود بانواع مختلفة من المزروعات وكمية ما انتجته من الحاصلات في موسم سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ :

Digitized by Birzeit University Library

جدول يبين

مساحات الأراضي المزروعة والحاصلات التي انتجتها في موسم سنة ١٩٤٤ / ١٩٤٥

البيان	مزروعات العرب		مزروعات اليهود		المجموع	
	المساحة المزروعة بالدونم	الحاصلات بالطن	المساحة المزروعة بالدونم	الحاصلات بالطن	المساحة بالدونم	الحاصلات بالطن
الحبوب	٤١٥٢٤٣٨	١٩٣٣٧٦	٢١٥١٩١	١٦٥٧٩	٤٣٦٧٦٢٩	٢٠٩٩٥٥
الخضراوات	٢٣٩٧٣٣	١٨٩١٠٤	٤٠٢٠٧	٥٥٧٣٠	٢٧٩٩٤٠	٢٤٤٨٣٤
العلف	٢٣٩٧٠	٢٠٨٢٧	١١٩٥٧٣	١٧٦٥٢٥	١٤٣٥٤٣	١٩٧٣٥٢
الفواكه عدا الحمضيات	٣٥٥٧٠٩	٧٣٣٢٠	٣٧٢١٧	٢١٣٩٨	٣٩٢٩٢٦	٩٤٧١٨
الزيتون	٥٩٢٥٤٦	٧٨٢٨٧	٧٥٨٧	١١٨٢	٦٠٠١٣٣	٧٩٤٦٩
البطيخ	١٢٠٣٠٤	١٣٥٦٣٤	٥٦٧٥	٧١٩٣	١٢٥٩٧٩	١٤٢٨٢٧

Digitized by Birzeit University Library

والارض الزراعية في فلسطين - على الرغم من انها ليست في جميع المواقع على مستوى واحد - نجدها على العموم خصبة الى حد بعيد، ولا سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار انها لم تنل نصيباً من السماد خلال قرون طويلة فالسهل الساحلي برماله او بالرمال الممزوجة بالتربة الكلسية، وبأراضيه الثقيلة الشاسعة، خصب جـــداً وتقع فيه منطقة الحمضيات. اما السهول الداخلية، كمرج ابن عامر واراضي الحولة، فان تربتها تشبه الطمى وهي صالحة جداً لزراعة الحبوب. وجبال القدس ونابلس والخليل والجليل بهضباتها وسفوحها ذات التربة الحمراء تنتج الفواكه والاعناب والزيتون. اما اراضي غور الاردن فتصلح منها اماكن لزراعة المناطق الحارة وهي البقاع التي تخلو تربتها من الاملاح الى حد ما وتروبها المياه. وصحراء بئر السبع - كما سبق ان بينا في هذا الفصل - ارض صالحة لزراعة الشعير.

ولعل ابرز عامل في مناخ فلسطين ان السنة فيه تقسم الى فصلين: فصل الشتاء وهو من منتصف اكتوبر الى منتصف ابريل، ثم تتلوه ستة شهور للصيف جافة. والرطوبة والجفاف هما العاملان الرئيسيان في الانتاج الزراعي لهذا البلد. وحيثما توجد المياه — كالتي تخرجها الآبار الارتوازية والينابيع ومياه الحولة والاردن — يزداد انتاج الارض طوال ايام السنة. بيد ان الزراعة الصيفية على العموم يتوقف نجاحها على مقدار ما تختزنه الارض وتحتفظ به من الرطوبة في ايام المطر. ومعدل ما يهطل من الامطار في فلسطين يتراوح من ١٥٠ ملليمتراً في اريحا الى ٢٢٠ ملليمتراً في بئر السبع، ومن ٣٧٠ ملليمتراً في غزة الى قرابة ٥٠٠ ملليمتر في السهل الساحلي ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ ملليمتر في الجبال. ويهبط هذا المعدل في المنطقة الواقعة الى الجنوب من بئر السبع ويكون ١٠٠ ملليمتر في عسلوج و١٢٠ في عوجا الحفير.

وقد قامت حكومة فلسطين بدراستين لمعرفة معدل ما يملكه كل فرد من سكان

Digitized by Birzeit University Library

القرى العربية في الاراضي الزراعية ، وكمية انتاج تلك الاراضي ، وتحديد نصيب كل فرد في المشاعات الخاصة وما الى ذلك ، فجمعت دائرة تسوية الاراضي في سنة ١٩٣٦ المعلومات المقتضاة لهذا البحث من ٣٢٢ قرية مجموع مساحة اراضيها ثلاثة ملايين وربع المليون من الدونمات ويسكنها نيف و ٢٤٢٠٠٠ نسمة . وهذه القرى موزعة كما يلي : ١٣ منها في سهل عكا ، و ٩١ في السهل الساحلي ، و١٤٨ في الجبال الداخلية ، و ٧٠ في جبال الجليل . وقد بلغ مجموع القسائم التي اصابها البحث ٧٧٥٠٠٠ قسيمة . ولم يدخل في هذا البحث اراضي الحكومة ، وانما ادخل فيه اراضي الشركات اليهودية ، والاوقاف وهذه تؤلف مساحة كبيرة فزاد بسبب ذلك المعدل النهائي .

وقامت دائرة الاحصاء في سنة ١٩٤٤ بدراسة ثانية في خمس قرى عربية اختارتها لهذه الغاية . وقد استبعدت من بحثها اراضي الحكومة والاوقاف والشركات اليهودية ، فكانت النتيجة ان المعدل الذي توصلت اليه عن مساحة ما يملكه المزارع الفرد في تلك القرى جاء اصح من الاول . ومع ذلك فقد كان المعدلان متقاربين . فبلغ حجم كل قطعة في القرى الخمس ٤١ر٤ دونماً بينما بلغ ٤٥ر٣ دونماً في الـ ٣٢٢ قرية . وبلغ معدل ما يفلحه كل مزارع من الارض ١٠ر٣ دونماً وهذا المعدل يختلف من ٨ر٦ دونماً في الخليل ، الى ١٤ر٢ دونماً في رام الله . ولما كان معدل ما تشمله كل اسرة من الافراد يبلغ ٦ر١ شخصاً لذلك فان مقدار ما تملكه كل اسرة من مزارعي القرى العربية هو ٦٣ دونماً متريباً تقريباً على المعدل .

ولا بد لنا من ان نبين هنا ان ما يملكه الفرد من الارض لا يتألف من قسيمة واحـــدة وانما يكون موارس[١] موزعـــة في مواقع كثيرة ، ويزداد

---

١. جمع مارس وهو ، في اصطلاح القرى العربية ، قسيمة من الارض مستطيلة على الغالب يملكها بعض الناس ، ولا يفصلها عن قسائم المجاورين اي حاجز طبيعي او اصطناعي ، ولا تقل مساحتها عن حراث زوج من البقر يوماً واحدا

Digitized by Birzeit University Library

عدد المواقع بازدياد مساحة الارض المملوكة. فمن يملك من ٦ الى ١٠ دونمات تجدها على المعدل في خمس مواقع مثلا . ومن يملك من ٢١ الى ٤٠ دونماً تكون ارضه موزعة على المعدل في ١٢ موقعاً؛ وارض من يملك مساحة من ٨١ الى ١٢٠ دونماً تنتشر على المعدل في ١٢ موقعاً . اما المعدل العام لاماكن جميع قسائم الاراضي المملوكة فهو ٩ مواقع .

وسنتحدث اليك بعد هذا عن زراعة الحمضيات في فلسطين لانها من اسباب المعيشة التي يعتمد عليها عدد كبير من السكان في هذا البلد . فلقد كانت الأثمار الحمضية المادة الرئيسية في صادرات فلسطين الزراعية . وقد اشتهر منذ القرن الماضي برتقال يافا المعروف بالشموطي في العالم .

وكانت مساحة الارض المغروسة بالاشجار الحمضية في سنة ١٩٢٣ (٣٠٠٠٠) فبلغت (٢٩٣٠٠٠) دونم في سنة ١٩٣٩ يملك نصفها العرب والنصف الآخر اليهود . وقد نقصت هذه المساحة الآن بسبب قلع بعض البيارات واهمال البعض الآخر خلال الحرب الى نيف و (٢٦٦٠٠٠) دونم يملكها العرب واليهود مناصفة تقريبا . وتقع منطقة الحمضيات في منتصف اراضي السهل الساحلي الخفيفة . وقد بلغت صادرات الأثمار الحمضية في سنة ١٩٢٢ مليوناً وربع مليون صندوق (ويتألف الطن المتري من ٢٤ صندوقاً تقريباً) . وكانت في سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٢ ثلاثة ملايين صندوق. وبلغت الذروة في سنة ١٩٣٩ فكانت ١٥ ١/٤ مليون صندوق ثمنها واصلة ظهر المركب في الموانىء الفلسطينية ٤ ١/٤ مليون من الجنيهات الفلسطينية . وقد بلغت تكاليف صيانة كل دونم مغروس بالاشجار الحمضية من خمسة الى عشرة جنيهات وكان الدونم يؤتي ثمراً من اربعين الى مائة صندوق قابلة للتصدير ، فاصبحت اليوم تكاليف صيانة الدونم الواحد تتراوح بين عشرة جنيهات وثمانية عشر جنيهاً وهبط معدل ثمر الدونم الواحد — بسبب ارتفاع اجور الايدي العاملة وقلة الاسمدة — الى ٣٥ صندوقاً .

وقد يعمل في موسم قطف البرتقال في فلسطين خمسة عشر الف عامل

Digitized by Birzeit University Library

في البيارات العربية ، وتسعة عشر الف عامل في البيارات اليهودية . وقد كان معدل سعر الصندوق الصادر الى المملكة المتحدة (٣٠٠ مل) . وفي مدة الحرب هبطت صادرات البرتقال — الى اقل من مليون صندوق ولكنها بلغت اربعة ملايين في موسم سنة ١٩٤٥ — ٤٦ .

وقبل أن نختتم هذا البحث — في الزراعة كأحد اسباب المعيشة — لا بد من الماما قصيرة بتربية الحيوانات في فلسطين : ذلك لان عليها تتوقف معيشة عدد كبير من المزارعين . وقد تقدمت هذه الصناعة تقدماً كبيراً في السنوات الاخيرة وضربت بنصيب وافر في إعالة السكان خلال مدة الحرب . وتبين من تعداد الحيوانات الذي قامت به الحكومة في فلسطين سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ان مجموع حيوانات البلاد هو ٩٩٩١٠٠ رأساً موزعة على الوجه الآتي :

	عند العرب سنة ١٩٤٣	عند اليهود سنة ١٩٤٢
الابقار	٢١٩٤٠٠	٢٨٤٠٠
الخراف (عمرها سنة فأكثر)	٢٢٤٩٠٠	١٩١٠٠
الماعز (عمرها سنة فأكثر)	٣١٤٦٠٠	١٠٨٠٠
الابل	٣٣٢٠٠	—
الخيل	١٦٩٠٠	٢٢٠٠
البغال	٧٣٠٠	٢٥٠٠
الحمير	١٠٥٤٠٠	٢٣٠٠
الخنازير	١٢١٠٠	—
المجموع	٩٣٣٨٠٠	٦٥٣٠٠

Digitized by Birzeit University Library

ومقابلة هذا البيان باحصاء سنة ١٩٣٧ يبين ان الابقار قد زادت ٧٠٠٠٠ رأس وان الخراف قد زادت ٥٠٠٠٠ رأس . اما الزيادة السنوية المعتادة فهي بواقع ١٠ ٪ . ومنزلة انتاج الحليب بالنسبة لمزارعي فلسطين تتلو تصدير البرتقال في الدرجة لانها تدر على عدد جزيل من المزارعين دخلا كبيراً .

وقد بلغت كمية ما انتج من الحليب سنوياً في البلاد من الابقار والنعاج والماعز ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ لتراً، او (٢٧) مليون جالون انتج العرب منه ٤٠٪ وانتج اليهود ٦٠ ٪ . وقد قدر انتاج الحليب عند المزارعين العرب في سنة ١٩٤٥ بخمسة وسبعين مليون لتر انتجته ابقار، معظمها بلدي — وبعضها ولا سيما في ضواحي المدن — هولندي، والنعاج والماعز والجاموس .

على ان هذه الكمية تختلف سنة عن سنة نظراً لان جل الحيوانات عند العرب تقتات من الاعشاب والحشائش وتعيش على المراعي الطبيعية .

إن تربية الحيوان عند العرب تؤلف قسماً رئيسياً من حياة البلاد الاقتصادية . وقيمة ما يربونه من الماشية والاغنام تتوقف على ما تنتجه من اللحوم ولا سيما لحوم الحملان والجديان، وعلى ما تنتجه من الحليب الذي يستعمل في انتاج الجبن البلدي والسمنة واللبنة وما الى ذلك من المصنوعات المحلية . وتوليد الماشية والبغال والحمير وتربيتها والاعمال الزراعية امر ذو تأثير في حياة البلاد الزراعية .

وقد تقدمت تربية الطيور الى حد بعيد، ولكنها لم تصل بعد الى المستوى المطلوب ، وقد ظهر بنتيجة الاحصاء في سنة ١٩٤٣ ان مجموع الطيور الداجنة في فلسطين كان ١١٩٠٢١٣، منها ٧٠٠٠٠٠ عند اليهود و ١٨٩٠٢١٣ عند العرب . وقد قدر مجموع ما تنتجه من البيض بمائة وعشرين مليوناً .

ومع اننا نرجىء التحدث عن دخل المزارعين الى البحث « في مستوى

Digitized by Birzeit University Library

المعيشة في البلاد ، إلا اننا سنثبت فيما يلي جدولا يبين الاجور اليومية التي تقاضاها العمال الزراعيون العرب واليهود في سنة ١٩٣٩، وفي سنة ١٩٤٤/٤٥ وهي مبينة بوحدة الملّ (وهو $\frac{1}{1000}$ من الجنيه).

نوع العمل	العمال العرب في المزارع العربية				العمال اليهود			
	١٩٣٩		١٩٤٤/١٩٤٥		١٩٣٩		١٩٤٤/١٩٤٥	
	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث
عمال البيارات	١١٠	٦٠	٤٥٠	٣٠٠	٣٦٣	١٧٥	١٠١٠	٦٢٥
الحراثون	٢٠٠	—	١٠٠٠	—	٢٢٥	—	١٠٠٠	—
عمال الحفر	١٠٠	—	٤٥٠	—	—	—	—	—
عمال زراعة الدخان	١١٠	٧٠	٤٠٠	٢٥٠	—	—	—	—

ويتضح من هذا الجدول ان اجور العمال العرب الذين يعملون في المزارع قد زادت زيادة كبيرة وكان من اسبابها غلاء المعيشة في البلد وهبوط قيمة النقود الشرائية .

ولما كان بموجب احصاء سنة ١٩٤٤ التقديري حوالي (٧٣٣٨٧٠) شخص من السكان العرب يقيمون في قرابة الف قرية ويحصلون على معيشتهم من مواردهم الزراعية، لذلك كانت الزراعة أعظم اسباب المعيشة عند العرب وسنبين مقدار دخل الفرد الواحد في حديثنا عن مستوى المعيشة ان شاء الله .

الصناعة: يستهدف الانسان في عمله لاسباب المعيشة الخمسة التي وصفناها هنا انتاج مواد لا يستغني عنها السكان عامة في معيشتهم . اما الاسباب الثلاثة التالية فليست من ضروريات حياته . وانما هي تعزز الخمسة الضرورية الاولى . ولعل الصناعة هي اهمها . لقد كانت الصناعة بادئ

Digitized by Birzeit University Library

الامر « عملا بيتيا » وكان العمل الصناعي ينحصر في افراد الاسرة يقومون به — كعمل ثانوي في الحياة العائلية . وكانت الصناعة في فلسطين باديء الامر تنتهج هذا السبيل ولم تكن تتعدى تجهيز الاغذية وبعض الملابس . انها كانت تتألف من استثمار المواد التي هيأتها الطبيعة لسكان البلد . فكان في كل بيت مصنع تقوم فيه النساء واولادهن بتجهيز الاطعمة ونسج الثياب لجميع افراد الاسرة ، بينما كان الرجال يقومون خارج البيت بجمع المواد الضرورية لذلك وحملها الى المسكن . وقد تطورت الحال قبل الحرب العالمية واصبحت الصناعة في فلسطين تقوم على اسس عامة . واصبح في البلاد اسر صناعية تصنع الملبوسات والآلات والاثاث والادوات والاسلحة وادوات الزينة . وتنتج انواع الاغذية كالطحين والزيت والصابون وما إلى ذلك . وكانت تستورد ما كنات من اوربا . إلا انه اسس مصنعان لها كنات في يافا وثالث في حيفا قبل الحرب الكبرى لتزويد البيارات بما تحتاج اليه من الموتورات والادوات . وقد كان من ٦٠—٧٠ في المئة من السكان يعيشون على الزراعة ومن ٥ — ١٠ في المئة يعيشون على الصناعة والاشغال اليدوية . وكان عدد المصانع التي يعمل فيها اكثر من ثلاثين رجلا قليل جداً وقد قدر بخمسة وعشرين مصنعاً باستثناء معامل تصليح قاطرات سكة حديد الحجاز في حيفا . وفي هذا الدور ايضاً لم تكن الصناعة قد نظمت على اساس حديث بشكل واسع بل ظلت في الغالب صناعات بيتية يقوم بعض افراد الاسرة بصنع حاجات معينة للتجار يتقاضون اجوراً عليها على اساس القطعة .

وكان في البلاد طواحين منتشرة في القرى تدار في الاماكن التي توجد فيها المياه بقوة الماء . وفي الاماكن الاخرى إما بالهواء وإما بالحيوانات . ثم بدأت

Digitized by Birzeit University Library

الطواحين الآلية فكان منها في يافا مثلا سنة ١٩١٢ عشر طواحين، وفي غزة خمسة.

وقد كانت الصناعات التي تتوقف على شجرة الزيتون وحاصلاتها ذات مكانة عظيمة في البلاد. وكان معدل انتاج الزيتون قبل الحرب الماضية حوالي سبعة آلاف طن سنوياً. وقد قدر عدد معاصر الزيتون بمئتي معصرة وعدد الاشخاص الذين كانوا يعملون في هذه الصناعة كل موسم بثلاثة آلاف شخص؛ وقدرت قيمة المحصول السنوي بثلثمئة الف جنيه. وقدوجد في قضاء عكا وحدها قبل الحرب الكبرى حوالي ثلاثين معصرة آلية للزيت.

واشهر بلد في صناعة الصابون نابلس وقد كان فيها قبل الحرب الماضية حوالي ثلاثين مصبنة وكان صابونها يصنع من زيت الزيتون الصافي وكانت تصدره الى مصر، وبلاد العرب والعراق وآسيا الصغرى. وقد ازدهرت هذه الصناعة الى حد كبير حتى ان حاصلات البلاد من الزيت لم تكن كافية لها فاضطرت فلسطين ان تستورد زيوتاً من ازمير وغيرها فاستورد عن طريق يافا ٦٤٧ طناً في سنة ١٩١١ و ١١٠٠ طن في سنة ١٩١٢. وكانت معامل الصابون تستخدم حوالي ستمئة عامل وكانت تنتج ستة آلاف طن سنوياً.

وكانت الخليل تستخرج الدبس وتصنع الزبيب من اعنابها؛ وقد بلغت قيمة ما كانت تصنعه سنوياً من هذين الصنفين قبل الحرب خمسة عشر الف جنيه. وكانت الخمور تصنع في المناطق الساحلية وتصدر منها للخارج. وكان في البلاد حوالي اربعين معملا لعصر السمسم واستخراج السيرج والطحينة منه؛ اكثرها في يافا واللد والرملة.

وكان في غزة والمجدل معامل لصناعة النسيج. واشتهرت الاولى بصناعة الاواني الخزفية كما اشتهرت الخليل بصناعة الزجاج ودباغة الجلود؛ واشتهرت

Digitized by Birzeit University Library

القدس بصناعة مواد الزينة من خشب الزيتون كما اشتهرت بيت لحم بصناعة الصدف وفيما يلي جدول يبين عدد المصانع التي كانت في سنة ١٩١٨ في القدس ويافا وحيفا ونابلس وغيرها من انحاء البلاد .

نوع الصناعة	القدس	يافا	حيفا	اماكن اخرى	المجموع
صناعات المعادن					١٠١
الصباغة					٢٠
النسيج					١٦٨
الملابس					١٦٦
المأكولات					١٧٨
الصناعات الكيماوية					٣٩٥
الورق والطباعة					٢٧
صناعة الجلود					٢٩
الخشب					٩٠
الخزف والطوب					٥٢
الصناعات الاخرى					١٠
	١٦٧	١١٩	٨٢	٨٦٨	١٢٣٦

ويتضح مما بيناه هنا ان ثلاث خواص لازمت الصناعة في فلسطين قبل الحرب العالمية الماضية :

١ — ان الصناعة كانت ابتدائية جداً وانها على الغالب كانت اعمالا يدوية اكثر منها صناعة عامة منظمة .

٢ — ان العلاقة بين صاحب المعمل والعمال كانت علاقة عائلية. فلقد كان الابن يرث الصناعة عن الاب والخلف عن السلف

Digitized by Birzeit University Library

وكان المعلم والعمال يعملون على اساس القطعة في بيوتهم ودكاكينهم لحساب التجار المختلفين .

٣ — وكانت جميع الصناعات تقريباً تعتمد على المواد الاولية التي تنتجها البلاد محلياً ، وكانت المصنوعات تباع في فلسطين والبلاد المجاورة فقط .

وفيما يلي بيان بعدد العمال في بعض الصناعات الكبرى كما في سنة ١٩١٢ .

الصناعة	المكان	عدد العمال
الخزف	القدس والرملة وغزة	٢٥٩
النسيج	غزة والمجدل والقدس	٤٦٧
دبغ الجلود	الخليل ويافا والقدس	٨٢
صناعة الابسطة والسجاد	القدس ويافا	١٥٦
صناعة الزجاج	الخليل	٣٩
صناعة الصابون	نابلس	٦٠٠
	المجموع	١٦٠٣

يتبين مما اوردناه في هذا الفصل ان الزراعة كانت سبب المعيشة الرئيسي الذي تتوقف عليه حياة سكان هذا البلد بيد انه بالرغم من ذلك نجد الصناعة قد اتخذت لنفسها مكاناً بارزاً في حياة البلاد وساهمت تدريجيا منذ سنة ١٩١٢ بنصيب أضافته الى دخل البلاد عامة . ولم يكن ذلك ناشئا عن كثرة في المواد الخام التي تستخدمها الصناعة ، او عن رخص اجور الايدي العاملة او وجود اسواق قريبة لبيع المنسوجات الصناعية وانما على النقيض من ذلك كله ، يرجع تقدم البلاد صناعيا الى عاملين :

العامل الاول : وهو طبيعي ويتألف من التطور الفكري الذي اصاب

Digitized by Birzeit University Library

بلدان العالم عقيب الحرب الكبرى . وكانت بذوره تختمر في نفوس الناس منذ اوائل القرن العشرين — او قبل ذلك بعقدين او ثلاثة من القرن التاسع عشر — في ان تنتج كل بلد موادها الاولية وان تصدرها الى الخارج مصنوعات جاهزة ، وجاءت الحرب الكبرى وعجلت في اظهار هذه الرغبة الكامنة في النفوس الى حيز العمل . وعزز هذا التطور الفكري في فلسطين عوامل خمسة اخرى رئيسية سهلت التقدم الصناعي في البلاد :

١ — ازدياد عدد السكان ازدياداً عجيبا صحبه اتساع في اعمال البناء واوجب فتح اسواق محلية لصناعة المأكولات والاغذية وهذه الزيادة في السكان اصابت العرب بسبب العوامل الطبيعية .

٢ — وجود القوى الكهربائية والآليه في البلاد واستخدامها في الصناعة .

٣ — عودة العرب الذين درسوا الهندسة الصناعية في اوربا واميركا وخلقهم اوساطا صناعية في المحيط العربي ، وتأسيس المهاجرين اليهود مصانع يهودية في المحيط اليهودي . وهؤلاء العرب اوجدوا العقل والادارة الصناعية وهيأت المصارف العربية للعرب التسهيلات المالية .

٤ — سيلان البترول الخام في انابيب شركة بترول العراق الى حيفا اعتباراً من سنة ١٩٣٥ واقامة معامل لتكريره .

٥ — الحاجة الملحة التي اوجدتها الحرب لمنتوجات محلية تسد حاجات السكان المدنيين والجيوش وتكون بديلا من المواد التي كانت تستوردها البلاد من الخارج ، وهذه الحاجة حملت السكان

Digitized by Birzeit University Library

— رغم ارادتهم وبالضرورة — على قبول المنتوجات المحلية بدل المستوردة، على ما في الاولى من عيوب نوعية. وفتحت اسواقا خارجية في بلدان الشرق الاوسط عامة لهذه المنتوجات.

والعامل الثاني: وهو وضعي او سياسي: ويتألف من التداول بالتعريفة الجمركيه وتكييفها لتشجيع الصناعة وحمايتها من المزاحمة الخارجية بطرق ثلاث:

١ — باعفاء الماكنات والآلات المستوردة للمصانع، والمواد الاولية والمنتوجات النصف مصنوعة التي تستورد لاكمال صنعها في فلسطين من الرسوم الجمركية.

٢ — وتخفيض سعر الرسوم الجمركية على بعض المواد الاخرى الضرورية للصناعة.

٣ — وزيادة سعر الرسوم الجمركية على البضائع المصنوعة في الخارج التي تصنع فلسطين بضائع مماثلة لها.

عندما تبحث سياسة التعريفة الجمركية التي تضعها الحكومة من اجل التقدم الصناعي في البلاد يجب ان يحقق - في جملة ما يحقق فيه من الامور - في مدى المنفعة التي اعطتها للبلاد الصناعة التي تطلب حماية التعريفة الجمركية لها، او في المنفعة التي تستطيع ان تعطيها تلك الصناعة، متى منحت حماية التعريفة الجمركية ذلك لان حماية الصناعة المحلية من المزاحمة الاجنبية عن طريق زيادة الرسوم الجمركية على الواردات، انما تقوم على رفع الاسعار امام جمهرة المستهلكين. إن العبء الاكبر من مساعدة الصناعة بدلا من ان يوزع توزيعا عادلا على المكلفين بدفع الضرائب — يقع في الغالب — على كواهل الافراد الذين لم يصل مستوى معيشتهم بعد الى الحد المنشود من

Digitized by Birzeit University Library

الرقي والذين من واجب الحكومة مساعدتهم حتى تصل بهم الى ذلك المستوى.
ويجب ان لا يغرب عن البال ان محيط الصناعة في فلسطين كان قبل سنة ١٩٣٣ ضيقاً جداً . فقد اثبت الاحصاء الذي قامت به دائرة الجمارك والمكوس في سنة ١٩٢٨ ان عدد المؤسسات الصناعية من مصانع ومشاغل صغيرة في في البـــلاد بلغ ٣٥٠٥ يعمل فيها ١٧٩٥٥ شخصاً ، اي بمعدل ٥ر١ شخصاً في كل مؤسسة . وقـــد بلغ مجموع تكاليف الانتاج في هذه المؤسسات — ثمن المواد الاولية والاجور والرواتب والوقود والنفقات الاخرى — ٢٩٧٥٤٠١ جنيهاً فلسطينياً اي بمعدل ٨٤٩ جنيهاً انفقته كل مؤسسة؛ وانتجت هذه المؤسسات بضائع بمبلغ ٣٨٨٦١٤٩ جنيهاً اي بمعدل ١١٠٩ جنيهات لكل مؤسسة . وبلغ مجموع رأس المال المستثمر في هذه المصانع ٣٥١٤٨٨٦ جنيهاً — اي بمعدل حوالي الف جنيه لكل مؤسسة .

على انه بالرغم من صغر حجم هذه المؤسسات ، وعدم مقدرتها عـــلى الانتاج ، قد كانت سياسة الحكومة دائماً ان تمد لها يد الحماية ، فتعفي مستورداتها من المواد الاولية والمنتوجات النصف مصنوعة من الرسوم الجركية ؛ وتحمي منتوجاتها من مزاحمة البضائع الاجنبية بفرض رســـوم جمركية عالية على استيراد تلك البضائع . ولقـــد كانت الرسوم الجركية المفروضة على الاستيراد لحماية الصناعات المحلية تتراوح بين ٢٠ و ٣٣٪ من القيمة . وفي حالة وجود اسباب خاصة تزيد على ٣٣٪ .

والآن لنبحث : هل كانت تلك الحماية لمصلحة البلاد عامة ؟ يقول علماء الاقتصاد ان الحماية تعطي للصناعات الناشئة لتشجع على استثمار الاموال واستخدام العمال فيها بشرط ان تستطيع تلك الصناعات بعد مرور مـــدة معقولة، تعرف بدور طفولة الصناعة، ان تقف على ارجلها وتعتمد على ذاتها مستقلة امام مزاحمة منتوجات الصناعات الاجنبية المماثلة لها دون ما حاجة

Digitized by Birzeit University Library

الى الحماية ، لا ان تظل حيانها تتمتع بحماية الحكومة لها على حساب صغار المستهلكين وفقرائهم . ولكي تعرف هل شملت الحماية في فلسطين الصناعات التي تنطبق عليها هذه القاعدة ام انها كانت تعطى — لدى الطلب — لكل صناعة يهودية ، اقرأ معي المقتطفات التالية :

من تقرير الحكومة المنتدبة الى مجلس عصبة الامم سنة ١٩٢٨ ص ٢٦ :

« لقد وضعت تعريفة جديدة للرسوم الجمركية في شهر ديسمبر : وقد وسعت سياسة وضع رسوم معينة على الاستيراد فشملت الحماية مصانع الاسمنت، والزيت والصابون، وعلب الكرتون، وخيش الاحذية والبوابيج، والشوكولاته والكاكاو ، والكحول للعطور والخمور ، ومستبدلات الزبدة، والجيازر للحمامات ، والبضائع الجلدية . وقد اعفيت هذه المصانع من رسوم الجمرك على الزبدة والكاكاو والكروم والالومنيوم ، والغاز المضغوط ... والورق المشمع، وألواح الزجاج ... ومستحضرات الاسفلت والحجر ... وقد تم اعفاء الماكنات التي تستعمل في المصانع من الرسوم الجمركية نفعاً للصناعة بوجه عام . »

من تقرير سنة ١٩٣٥ (الصفحات ٣٥ - ٣٦ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ و ٢٣٠) :

« لقد قدمت المساعدة لعدد من الصناعات التي كلها او جلها في ايدي اصحاب المصانع اليهود باعفائها من رسوم الاستيراد على مواد اولية معينة وبزيادة ضريبة الاستيراد بقصد الحماية على بعض المواد المصنوعة . »

وقد ورد مثل هذه البيانات في بقية التقارير السنوية .

وفيما يلي بيان بالوضع الصناعي في البلاد في سنة ١٩٣٩ و سنة ١٩٤٢ عند العرب وعند شركات الامتياز وعند اليهود :

Digitized by Birzeit University Library

	عرب		شركات الامتياز		اليهود	
	١٩٣٩	١٩٤٢	١٩٣٩	١٩٤٢	١٩٣٩	١٩٤٢
عدد الاشخاص الذين يعملون في الصناعة	٤١١٧	٨٨٠٤	٢٦١٩	٣٤٠٠	١٣٦٧٨	٣٧٧٧٣
قيمة الانتاج القائمة بالالف جنيه	١٥٤٥	٥٦٥٨	١٢٥١	٢١٣١	٦٠٤٦	٢٩٠٤١
قيمة الانتاج الصافية بالالف جنيه	٣١٣	١٧٢٥	١١٠٦	١٦٣١	٢٤٥٥	١١٤٨٨
الرأسمال المستثمر بالالف جنيه	٧٠٤	٢١٣١	٥٧٩٩	٦٢٩٤	٤٣٩١	١٢٠٩٤
قوة المكائن بالحصان	٣٩١٤	٣٨١٢	١٣٣١٢٨	١٣٣٦٧٣	٤١٦٩٤	٥٧٤١٠
الاجور والرواتب المدفوعة بالالف جنيه	١٢٢	٥١١	٢٧٤	٦١١	١٠٠٨	٥٦٤١

وهذا البيان قد استخرج من احصائي الصناعة اللذين قامت بهما الحكومة سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٢ . وشركات الامتياز تتألف من ثلاثة يهودية وهي : شركة كهرباء فلسطين المحدودة (رويتنبرغ)، وشركة البوتاس المحدودة، وشركة الملح المحدودة ؛ ونصيب هـذه الثلاث الشركات ٩٠٪ من مجموع الحركة التي في البيان : واما الشركتان الاخريان فاحداهما انكليزية وهي شركة القدس للكهرباء والخدمات العامة المحدودة ، وشركة شكري ديب واولاده المحدودة (للملح) .

وقد توصل الى القيمة الصافية التي في البيان بطرح قيمة المواد الاولية المستعملة والوقود المستهلك .

وفيما يلي بيان بالمواد الاولية التي تستطيع الصناعة الحصول عليها من البلاد مع ايضاح الغاية من استعمالها :

Digitized by Birzeit University Library

المواد	الكمية الموجودة	تستعمل في انتاج	الانتاج السنوي	ملاحظات
أ. المواد المعدنية الخام				
١. البحر الميت	لا تعرف الكمية على وجه التحقيق	كلوريد البوتاس . البرومين ملح الطعام	كلوريدالبوتاس ١٠٤٠٠٠ طن البرومين ١٠٠١ طن	جل هذه المواد هو للتصدير
٢. الكلس والحجارة	« « « « « «	سلفات البوتاس ، كلوريد المغنسيوم	الاسمنت ١٧٦٠٠٠ طن	بلغ اكبر حد للانتاج .... طن في السنة
الفخار ، الرمل ، والرخام .	« « « « « «	الاسمنت والطوب والخزف والآجر والبلاط وما الى ذلك		
٣. صخور الفوسفات	« « « « « «	منتوجات الفوسفات النقية	١٤٠٠٠ طن	توجد كمية كبيرة منه في شرق الاردن صدر منه ٣٣٠٠ طن في سنة ١٩٤٤
٤. رمل (خاص)	«	صناعة الزجاج	ألواح زجاج ٤٥٦٢٩ متر٢	
٥. اتربة ملونة	«	صناعة الزجاج		
٦. كاأولين	«	الآنية الخزفية		منه كمية كبيرة في شرق الاردن
٧. زيوت البترول الخام .	«	منتوجات البترول المصفى		تستورد من العراق
٨. ملح الطعام	«	صناعة الدباغة والاطعمة	المعدل السنوي ١٣٠٠٠ طن والحد الاقصى ١٧٠٠٠	يستخرج من مياه البحر بطريقة التبخير ومن منتوجات البحر الميت الكيماوية

Digitized by Birzeit University Library

تتمة الجدول السابق

المواد	الكمية الموجودة	تستعمل في انتاج	الانتاج السنوي	ملاحظات
ب. المواد الاولية النباتية	معدل الخمس سنوات	الخضراوات المحفوظة	خضراوات محفوظة ٢١٠٠ طن	الحد الاعلى لحاصلات الخضراوات ٢٢٩٠٠٠ طن سنوياً
١. الخضروات	١٩٨٠٠٠ طن			
٢. ورق التبغ	معدل الخمس سنوات ١٢٠٠ طن	السجاير والدخان وما الى ذلك	سجاير ١٠٨٠ طن	جل الانتاج المحلي من المواد المحلية وهناك كمية ضئيلة مستوردة
٣. الزهور والاعشاب		العطورات والعقاقير	زيوت وعطورات ٨١٠٠ كيلوغرام	صدر بعضها سنة ١٩٤٤
٤. الحشائش الطبية		الادوية والعقاقير		
٥. الغزولات القطنية	١٣٥٥ طن	صناعة النسيج		تصنع من القطن الخام المستورد
٦. الفواكه	٣٠٠٠٠٠ طن سنوياً	العصير والمربيات والكحول	مربيات ١٥٠٠٠ طن	جل الحمضيات تصدر طازجة للاستهلاك كالفواكه
أ) الحمضيات			زيوت ١٢٤٨٥ كيلوغرام	
			عصير مكثف ١٣٥٦ طن	
			مواد كيماوية ١٦ طن	
			اسيد السيتريك ١٤ طن	

Digitized by Birzeit University Library

تتمة الجدول السابق

المواد	الكمية الموجودة	تستعمل في انتاج	الانتاج السنوي	ملاحظات
ب) الزيتون	الكمية السنوية بازدياد والمعدل لخمس سنوات ٤٢٠٠٠ طن	زيت الزيتون والصابون	زيت الزيتون ٨٠٠٠ طن صابون زيت الزيتون ٤٣٠٠ طن	يكاد يكون اكثر من نصف الصابو المستهلك محلياً يصنع من زيوت اخرى تستورد بذورها من الخارج
ج) العنب	من ٤٥٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ طن سنوياً	النبيذ والخمور الاخرى	نبيذ ٥ ½ مليون لتر	كانت كميات كبيرة تصدر قبل الحرب لاميركا
ج. المواد الاولية الحيوانية ١. المصارين	غير معروفة	في السرسيسيو		كانت كميات كبيرة تصدر منها الى اميركا قبل الحرب
٢. جلود البقر	من ٦٥٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ جلد في الستة	صناعة الاحذية	نعل ٢٠٠٠ وجه ١٢٠٠	كانت كميات كبيرة تصدر قبل الحرب
٣. الجلود أ) النعل	٢٠٠٠ طن سنوياً	الاحذية والمصنوعات الجلدية	احذية وصنادل وجزم ٢١٨٥٠٠٠ زوج	

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

تتمة الجدول السابق

المواد	الكمية الموجودة	تستعمل في انتاج	الانتاج السنوي	ملاحظات
ب) الوجه من الابقار .	من ١٫٨ الى ٢ مليون قدم في السنة			
ج) الوجه من الخراف والماعز	مليون قدم٢ سنوياً			
٤. الصوف	لا تعرف بالضبط	الغزولات الصوفية صناعة النسيج	تصنع من الصوف المستورد والمحلي	
٥. الغزولات الصوفية	٢١٠ طن	»	»	

ملاحظات :

(١) لقد اعتمدنا في هذه الجداول على احصاءات الحكومة لان الاحصاءات اليهودية مغرضة ولا يصح الاعتماد عليها .

(٢) لا نستطيع بمعرفتنا الحاضرة ان نعين الكمية التي تستهلكها المصانع العربية سنوياً من هذه المواد ولا سيما المواد المعدنية

وقد تقدم العرب تقدماً كبيراً في مطاحن الحبوب والدخان والسجاير وفي بعض فروع صناعتي المنسوجات والمعادن . وبلغ في سنة ١٩٤٥ مجموع العمال الفنيين الذين كانوا يعملون في الصناعات العربية ١٤٩٣٧ عاملا كلهم من العرب إلا ١٣٠١ من الارمن المستعربين ، يقابلهم ٢٦٢٢٦ عاملا من اليهود يعملون في المصانع اليهودية .

وقد بلغ مقدار ما انتج في البلاد من الزيوت النباتية في سنة ١٩٤٣ حوالي ٢٥٠٠٠ طن ؛ نصفها استخرج من البذور المستوردة من الخارج والنصف الآخر انتجه العرب من الزيتون والسمسم . وقد استعمل لصنع الصابون من هذه الزيوت حوالي ٧٢٠٠ طن.

وقد بلغ مجموع ما انتجته معامل النسيج العربية في البلاد حوالي عشرين في المائة من مجموع الانتاج الذي بلغت قيمته في سنة ١٩٤٤ حوالي ستة ملايين جنيه . ورخصت الحكومة باستيراد مائة الف نول لنسج الاقطان ، ويوجد في البلاد الآن ١١٧٧٨ نولا فقط . وقد بلغت كمية الغزولات الصوفية التي استعملتها المصانع في سنة ١٩٤٥ حوالي اربعمائة طن . وقدرت احتياجات فلسطين من الاقمشة القطنية باثنين وعشرين مليوناً من الياردات سنوياً ، ومليوني ياردة من الاقمشة القطنية وخمسة ملايين ياردة من الاقمشة الحريرية ، تنتج البلاد منها سبعة عشر في المائة فقط .

وبلغ عدد العمال العرب الذين يعملون في اعمال المعادن ١٢ ٪ من مجموع عمال هذه الصناعة. واما عدد المعامل العربية فبلغ ستة في المائة فقط من مجموع المعامل التي في البلاد. وقد بلغت قيمة جميع ما انتجته تلك المصانع في سنة ١٩٤٢ ٤٦٠٧٧٣٨ جنيهاً وبمجموع عمالها ٩٢٤٤ عاملا .

وقد بلغ عدد المدابغ ومعامل الجلود في البلاد ١٩٤٣ خمسين انتجت ٣٥٠٠ طناً في سنة ١٩٤٣ نصفها للعرب ونصفها لليهود .

Digitized by Birzeit University Library

وبلغ عـــدد العمال والصناع العرب الذين يعملون في صناعة الاخشاب في سنة ١٩٤٣ سبعمئة من مجموع قدره ١٨٠٠ وهذه الصناعة تتناول تخشيب المباني وعمل الاثاث الخشبي بانواعه ، وعمل الزوارق وصناديق السيارات .

ان هذه البيانات وما تضمنته من ارقام تقوم دليلا قاطعاً على نهضة العرب الصناعية في فلسطين ، ولكن هذه النهضة ما زالت تسير سيراً وئيداً في تقدمها نظراً لما تلاقيه من الصعاب وما يعترض سبيلها من العوامل وهي في رأينا — اربعة :

الاول : الحظر القانوني

الثاني : حصر مواد الانتاج ومنع الصناعات العربية من الحصول عليها

الثالث : الدعاية القائمة للصناعات الاجنبية والتي لا بد للعرب من تبيان كذبها ليتمكنوا من نشر منتوجاتهم في الاسواق .

الرابع : استحالة انشاء صناعات عـــلى مقياس صغير وبرأسمال قليل لتزاحم الصناعة المؤسسة برأسمال كبير وعلى مقياس من الانتاج واسع في الاسواق التجارية .

اما الحظر القانوني فهو الذي منع العرب من استثمار ينابيع الثروة في بلادهم باعطاء امتيازاتها الى اليهود ، واقرب الامثلة على ذلك امتيـاز البحر الميت الذي اعطي لشركة البوتاس الفلسطينية المحـــدودة ، وامتياز توليد الكهرباء من مياه نهر الاردن الذي اعطي لشركة الكهرباء الفلسطينية المحدودة ، وامتياز الملح المعطى لشركة الملح المحدودة وكلها يهودية . ولو ان هذه الثروة بقيت لاهل البلاد لعملوا منها العجائب ، غير ان الامتياز يعطى مرة واحدة في كل عصر ولذلك تقف هذه الامتيازات الآن سداً منيعاً في وجه الصناعة العربية .

وحصر مواد الانتـاج يتألف من منع العرب ولا سيما خلال الحرب

Digitized by Birzeit University Library

من استيراد المواد الاولية اللازمة للصناعة، ومن حبس الرخص المقتضاة لتأسيس مصانع عربية جديدة في البلاد، ومن الاستئثار بالمنتوجات المعدنية والقوى الكهربائية التي تنتجها شركات الامتياز وجعلها خالصة لغير العرب.

اما الدعايات التي تقوم بها المصانع اليهودية فاحدث مثل على اظهار كذبها ما قام به المؤتمر الطبي العربي الذي عقد في القاهرة خلال سنة ١٩٤٥ من اظهار حقيقة منتوجات بعض شركات الادوية اليهودية في فلسطين والنقص الموجود في تركيب عقاقيرها.

والعامل الرابع هو في الواقع ضرب من الاحتكار فرضته المصانع اليهودية — بما لها من النفوذ والمال — على البلاد فهي تقاوم — سراً او علانية — كل عمل يقوم به العرب لانشاء مصانع تضارب المنتوجات اليهودية مثال ذلك ما قامت به احدى شركات الكبريت الكبرى من القضاء على معمل كبريت الناصرة العربي.

ان اتساع رؤوس الاموال المستثمرة في الصناعة اليهودية وطرق انتاجها قد تظهر للباحث ان الصناعات العربية لن تقدر على مزاحمة الصناعة اليهودية. بيد ان اغراق اسواق البلاد بالبضائع بعد زوال حظر الاستيراد تدريجياً وتقدم الصناعية العربية والروح القومية بين العرب ستعمل جميعها على احلال المنتوجات العربية بدل اليهودية في الاسواق العربية في البلاد ولا سيما انه قد تبين من الاحصاء الصناعي الذي قامت به الحكومة في سنة ١٩٤٢ الحقائق التالية:

١) ان نصيب كل يهودي في فلسطين من مقدار ما انتجته الاثنتي عشرة صناعة التي اختيرت لهذه الغاية في البلاد يزيد ٨٧ ٪ عند اليهود عن نصيب كل عربي في البلاد مما تنتجه هذه الاثنتي عشرة صناعة عند العرب.

Digitized by Birzeit University Library

٢) ان تكاليف العمل عند اليهود بلغت ١٠٧ في المائة اكثر منها عند العرب فنتج عن ذلك ان زادت تكاليف العمل عند العرب في كميات الانتاج العربي ١٠٪ اكثر مما يقابلها في الصناعات اليهودية .

٣) ان الرأسمال في الصناعات اليهودية إذا وزع على عدد العمال يكون نصيب كل عامل ٧٠٪ زيادة عما يصيب كل عامل في الصناعات العربية .

وليس من شك في : ان الرأسمال الكبير المستثمر في الصناعة اليهودية وخبرة العمال اليهود الفنيين لا تعطي في الغالب منتوجات احسن من المنتوجات العربية لان تكاليف هذه المنتوجات تعتبر باهظة بالنسبة لكمية الانتاج . وعلى ذلك فان مستقبل الصناعة اليهودية ، ان لم تخفض من تكاليف انتاجها ، سيكون معلقاً في كفة القدر ليس امام منافسة المصنوعات المستوردة فقط ، وانما تجاه مزاحمة المصنوعات العربية فى البلاد ايضاً .

واننا نثبت فيما يلي كشفاً يبين التكاليف في اثنتي عشرة صناعة عند العرب واليهود في سنة ١٩٤٢ وقوة انتاجها .

Digitized by Birzeit University Library

الصناعة	مقدار ما ينتجه كل عامل		نسبة اليهود المئوية للعرب	الاجور والرواتب لكل فرد		نسبة اليهود المئوية للعرب	الانتاج الصافي لكل جنيه من الاجور والرواتب		
	عند العرب جنيه	عند اليهود جنيه		عند العرب جنيه	عند اليهود جنيه		عند العرب جنيه	عند اليهود جنيه	نسبة العرب المئوية لليهود
مطاحن القمح والحبوب	٥٤٨	٥٩٨	١٠٩	١٠٩	٢٧١	٢٤٩	٥ر٠٣	٢ر٢١	٢٢٨
الافران	١٤٩	٣٧٠	٢٤٨	٨٧	٢١٠	٢٤١	١ر٧١	١ر٧٦	٩٧
المياه المشبعة بالغاز (قازوز)	٢٢٣	٤٨٢	٢١٦	١٢٧	٢١١	١٦٦	١ر٧٦	٢ر٢٨	٧٧
السجاير والسيجار	٣٣٩	٤٠٢	١١٩	٦٧	١٥٨	٢٣٦	٥ر٠٦	٢ر٥٤	٢٠٠
بناء الزوارق	١٩٦	٢٧٧	١٤١	١١٥	٢١٩	١٩٠	١ر٧٠	١ر٢٦	١٣٥
صناديق الكرتون	١٠٩	٢٠٨	١٩١	٥٢	١٤١	٢٧١	٢ر١٠	١ر٤٨	١٤٢
المدابغ	٢٤٠	٣٧٣	١٥٥	١٣٩	٢٣٧	١٧١	١ر٧٣	١ر٥٧	١١٠
معامل النسيج	٨١	٣٧٨	٤٦٧	٧١	٢٠٠	٢٨٢	١ر١٤	١ر٨٩	٦٠
الاحذية	٢٠٤	٢٧٤	١٣٤	١٤١	١٩٨	١٤٠	١ر٤٥	١ر٣٨	١٠٥
الابواب والشبابيك الحديدية	١١٢	٢٤٩	٢٢٢	١٠٨	١٨٦	١٧٢	١ر٠٤	١ر٣٤	٧٨
صناديق السيارات	١٨٨	٣٥٧	١٩٥	٧٧	٢٦٧	٣٤٧	٢ر٣٨	١ر٣٤	١٧٨
المشاغل الميكانيكية	٢١٧	١٦٧	١٢٣	١٤٠	١٩٣	١٣٨	١ر٥٥	١ر٣٨	١١٢
المجموع	١٨٧	٣٥٠	١٨٧	٩٨	٢٠٣	٢٠٧	١ر٩٠	١ر٧٢	١١٠

Digitized by Birzeit University Library

وقبل ان نتم حديثنا عن الصناعة نرى لزاماً علينا ان نختم هذا البحث بكلمة في عمال الصناعة العرب . على انه من الصعب حصر عدد العمال الصناعيين العرب لسببين :

لان كثيراً من العمال العرب يعملون في المصانع في مواسم خاصة فقط، وهم في الواقع اصحاب ممتلكات زراعية خاصة يديرونها في قراهم ويعتمدون على مواردهم منها كجزء من اسباب معيشتهم .

ولان عدداً كبيراً من العمال العرب يؤسسون لانفسهم معامل صغيرة يديرونها على حسابهم الخاص وهي في الغالب لا تدر عليهم ربحاً يفيض عن الاجور التي يتقاضونها فيما لو كانوا يعملون كعمال في المصانع .

ومع ذلك فان عدد عمال الصناعة العرب المنتمين الى جمعيات العمال العربية يقدرون بعشرين الف عامل ويقدر جميع العمال الصناعيين العرب الذين يعملون في الصناعة بجميع انواعها — ومن ضمنهم عمال السكك الحديدية ومصافي البترول في حيفا — بمائة الف عامل تقريباً. على ان الاحصاء الصناعي الذي قامت به الحكومة في سنة ١٩٤٢ لم يوفق الى تسجيل اكثر من ٨٨٠٤ عمال صناعيين من مجموع ١٣٦٧٠٠ عامل في البلاد منهم ١٢٧٨٩٦ عاملا في الصناعة اليهودية . وقد بلغ معدل اجور العامل في الصناعات العربية في سنة ١٩٤٥ حوالي خمسمئة مل يومياً وبلغ معدل اجور العامل اليهودي في ذلك التاريخ حوالي جنيه واحد ومائة مل يومياً . إلا في صناعة البناء فقد بلغ معدل الاجور اليومية حوالي جنيه واحد عند العرب وجنيهين عند اليهود .

وقد اخذت الحركة العمالية تنظم بين العرب وهي تستهدف انشاء نقابات غايتها تحسين حال العمال وحفظ حقوقهم ويشترك في هذه

Digitized by Birzeit University Library

الحركة بعض الجماعات المثقفة من الشباب العربي في هذه البلاد . « وحركة نقابات العمال العربية ذات مكانة رفيعة في البلاد وقد بدأت تؤتي اكلها ويظهر تأثيرها فى حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . » بيد ان تأثيرها ما يزال الى حد ما محصوراً فى المدن بالرغم من ان العمال القرويين بوجه عام اخذوا يتصلون مباشرة بهذه الحركة . وقد بدأ التنظيم العمالي يظهر فى جل الصناعات ولا سيما حيثما يوجد في مصلحة واحدة او معمل واحد عدد كبير من العمال مثال ذلك السكك الحديدية ومصافي البترول .

ولعل من مفاخر الحركة العمالية العربية ما اجتناه العمال العرب من التمتع بامتيازات الاتفاقات الصناعية والاستفادة من مجالس التحكيم الصناعي التي انشأتها الحكومة فى البلاد خلال الحرب . وحركة النقابات العمالية ليست جديدة عند عرب فلسطين فلقد اسست جمعية العمال العرب فى حيفا منذ سنة ١٩٢٥ وما تزال الى اليوم تدأب وراء غاياتها في رفع مستوى العامل العربي وحفظ حقوقه، شأنها في ذلك شأن نقابات العمال العرب الاخرى فى البلاد.

التجارة : يزاول السكان في فلسطين منذ فجر التاريخ التجارة بنوعيها : الداخلية والخارجية ، ويتعاطون بيع السلع وشرائها بقصد الربح .

وقد كانت التجارة الداخلية في المدن على نوعين : التجارة التي يتعاطاها الناس في جميع الايام على السواء ؛ والتجارة التي كانت تقام لها الاسواق في ايام معينة من الاسبوع .

لقد اشتهرت البلاد في زمن المقدسي بالاتجار باصناف السلع التالية التي كانت تنتجها محليـــاً : قال في احسن التقاسيم : « يرتفع في فلسطين الزيت والقطين ، والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والقنوط ، ومن بيت المقدس الجبن والثياب القطنية، والموز، وهو شيء على قدر الخيار وعليه

Digitized by Birzeit University Library

جلد يقشر عن ثمره على لين البطيخ إلا انه ألذ ، وزبيب العينوني والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والابر ، ومن اربحا نيل غاية ، ومن صفد وبيسان النيل والتمور الكثيرة والدبس ، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغدوبز ، ومن بيسان الرز . ولا نظير لحواري وميازر الرملة ، ولا لسبح بيت المقدس . » كانت هذه الحاصلات ترد الى المدن من القرى في ايام الاسواق وتجمع ثم توزع فمنها ما يستهلك في البلد ومنها ما يصدر الى الخارج . والاسواق في فلسطين ، اشبه ما يكون بمعارض دورية تقام في كل بلد مرة في الاسبوع فينفر اهل القضاء الى المدينة يبيعون فيها محصولاتهم ويشترون ما يحتاجون اليه من الغذاء والكساء . وما تزال بعض هذه الاسواق الى اليوم تقام في ايامها المعينة كسوق الجمعة في القدس ويافا والخليل ونابلس، وسوق الاربعاء في الرملة وبيسان، وسوق الاثنين في اللد ، وسوق السبت في طولكرم .

وقد راجت تجارة فلسطين الخارجية في الماضي لعاملين : لوقوعها على طرق التجارة في العالم القديم بين آسيا وافريقيا من جهة ؛ ثم ان تردد الحجاج اليها للزيارة جعلهم يحملون معهم اموالا يتجرون بها ثم يعودون الى اوطانهم وقد استبدلوها باموال اخرى من الجهة الثانية . فاما طرق التجارة فقد كانت كثيرة في فلسطين . فهناك الطريق من مصر الى غزة ومنها تتفرع الى ثلاث شعب تتجه احداها الى العقبة قاطعة وادي عربة فتصل مصر بالحجاز واليمن؛ وتتجه الثانية الى دمشق عن طريق الساحل الى قلنسوة في قضاء طولكرم فاللجون فجسر بنات يعقوب ودمشق ؛ وتتجه الثالثة الى دمشق عن طريق جنين فبيسان وأربد فدمشق . وقد كانت تمر في هذه الطرق العربات والقوافل تحمل منتجات الهند والصين وجزائر البهار وبضائعها من مصر الى جزيرة العرب وعبر سوريا إلى القسطنطينية وسواحل البحر الاسود .

Digitized by Birzeit University Library

وكانت الى جانب هذه الطرق البرية الموانىء على البحر الابيض ترسو فيها السفن حاملة البضائع والسلع المختلفة قادمة من الشرق الاقصى او من موانىء البحر الاسود يقودها بحارة بندقيون او جنويون. ولعل من الغريب ان لا نجد في فلسطين ميناء جديراً بهذا الاسم قبل تأسيس الروم (البيزنطيين) مستعمرات لهم في سهول الرملة، وعلى الساحل بين يافا وحيفا. حتى ان كلمة ميناء التي انتشرت على طول الساحل من غزة الى قيسارية مخففة من كلمة يونانية هي (ليمن Limen) ومعناها مكان النزول من البحر. وقد كان كثير من هذه الموانىء في البلاد، نذكر منها على سبيل المثال: عتليت وقيسارية وميناء ابي زابورة وأرسوف وميناء روبين واسدود وعسقلان وام خالد وعكا وحيفا ويافا وغزة. وقد كانت السفن ترسو فيها محملة بالسلع الثمينة كالحجارة الكريمة والحرير والتوابل والعاج وما إلى ذلك.

وقد نشطت حركة الاستيراد والتصدير في اواخر عهد الحكومة العثمانية وكانت يافا وغزة وحيفا هي المراكز التي تمر بها تجارة البلاد الخارجية. وكانت صادرات يافا تتألف من انواع قليلة من الحاصلات المطلوبة في الخارج اهمها البرتقال والصابون.

وبلغت في سنة ١٩٠٦ كمية البرتقال المصدر ٥٠٠٠٠٠ صندوق وفي سنة ١٩١٢ بلغت مليون صندوق، وفي سنة ١٩١٣ بلغت ١٥٥٣٨٦١ صندوقاً. اما الصابون فكان يصدر الى مصر وبعض مناطق الامبراطورية العثمانية.

ويتلو البرتقال والصابون من حيث المنزلة في الصادرات، الخمور التي كانت تصدر الى مصر وفرنسا والسمسم وكان يصدر الى ايطاليا. وكان يصدر كذلك عن طريق يافا المسابح والمواد المزخرفة المصنوعة في القدس وبيت لحم للذكرى الدينية. وقد صدرت كميات من اللوز قبل الحرب الكبرى.

Digitized by Birzeit University Library

وكانت السفن ترسو في غزة إبان موسم الشعير لشحنه الى انكلترا ، وكانت الزبدة والصوف والبرتقال والدجاج والاواني الخزفية من صادرات غزة ايضاً . واعتادت معامل البيرة في ليفربول شراء جميع كميات الشعير الغزي. اما الاواني الخزفية والذرة والبطيخ فكانت ترسل مباشرة الى مصر .

لقد بدأت مكانة حيفا تظهر في البلاد كميناء تجاري بعد افتتاح الخط الحجازي في سنة ١٩٠٦. فكانت تصدر الحنطة والفاصوليا والعدس والسمسم والشعير والذرة وزيت الزيتون والنبيذ والبيض والصابون .

اما الواردات الى يافا فقد زادت زيادة كبيرة قبيل الحرب العالمية الاولى وكانت تتألف من المواد الغذائية كالدقيق والارز والقهوة ؛ ومن الخشب الذي يستعمل لصناديق البرتقال والبناء ؛ ومن الزيت والصودا للصابون ؛ ومن البترول لموتورات البيارات والشؤون البيتية ، ومن الموتورات والفحم الحجري .

وقد كانت القدس اهم مركز داخلي في البلاد لتوزيع الواردات التي تصلها من يافا في السكة الحديدية ، او بالطرق العادية . ولم تكن تمون بهذه الواردات المناطق الفلسطينية فحسب ليس إلا ، وانما كانت تمون شرقي الاردن ايضاً عن طريق السلط وعمان . وكانت الخليل ايضاً مركزاً لتموين المناطق المحيطة بها توزع عليها البضائع التي تصلها بالطرق من القدس . ولم تكن القدس ومنطقتها لتنتج كثيراً من السلع للتصدير وآية ذلك انه لم يكن يشحن منها بالسكة الحديدية سنوياً اكثر من ستة آلاف طن .

وفيما يلي جدول بصادرات وواردات فلسطين خلال الست سنوات من ١٩٠٨ الى ١٩١٣ :

Digitized by Birzeit University Library

الصادرات بالجنيه الاسترليني

	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٥٥٦٣٠٠	٥٦٠٩٠٠	٦٣٦١٠٠	٧١٠٦٠٠	٧٧٤١٠٠	٧٤٥٤٠٠
غزة	٢٠٦٢٤٠	٤٩٧٦٠	٨٥٥٠	٧٧١٥٠	٦٧٠٠	١٦١١٢٠
حيفا	٣٧١٧٠٠	—	٧٠٥٠٠	٩٠٠٠٠	٣٤٦٧٠٠	—
	١١٣٤٢٤٠	٦١٠٦٦٠	٧١٥١٥٠	٨٧٧٧٥٠	١١٢٧٥٠٠	٩٠٦٥٢٠

الواردات بالجنيه الاسترليني

	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٨٠٣٤٠٠	٩٧٣١٠٠	١٠٠٣٤٠٠	١١٦٩٩٠٠	١٠٩٠٠٠٠	١٣١٢٦٠٠
غزة	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٩٦٤٠٠	١٠٨٢٠٠
حيفا	٣٥٥٥٠٠	—	٣٩٩١٠٠	٣٧٥١٠٠	٤٦٠٤٠٠	٥٣٠٠٠٠
	١٢٣٠٩٠٠	١٠٤٥١٠٠	١٤٧٤٥٠٠	١٦١٧٠٠٠	١٦٤٦٨٠٠	١٩٥٠٨٠٠

إن زيادة قيمة الواردات على الصادرات هو امر بارز في هذه الارقام؛ فكيف كانت تسوى هذه الحالة؟ لقد كان المهاجرون العرب الى الاميركتين يحولون مبالغ كبيرة الى أهليهم؛ وكان السياح والزوار الاجانب ينفقون مبالغ كبيرة في البلاد، وكانت النقود تُرد الى الارساليات الدينية والاجانب

Digitized by Birzeit University Library

المقيمين في فلسطين . وهذه كانت العوامل الرئيسية لسد العجز الناتج عن زيادة الواردات على الصادرات ١ .

تجارة فلسطين الخارجية بعد الحرب العالمية الاولى :

تتألف تجارة فلسطين الخارجية اليوم من اصناف خمسة :

(١) الاستيراد ؛

(٢) التصدير ؛

(٣) تصدير المستورد ؛

(٤) تصدير المستورد من مخازن الاستيداع ؛

(٥) وتجارة المرور ؛

ومواد التجارة تجمعها الانواع الخمسة التالية :

الاطعمة والمشروبات والدخان ؛

المواد الخام والاشياء غير المصنوعة ؛

المواد المصنوعة كلياً او جزئياً ؛

الحيوانات الحية التي لا تستعمل للاكل ؛

الذهب الخام والمسكوكات ؛

---

١. كانت الواردات في الامبراطورية العثمانية ككتلة واحدة تزيد عن الصادرات ايضاً مثال ذلك ١٩١٠ - ١٩١١ فقد بلغت فيها الصادرات ٢٦١٠٠٠٠٠ جنيهاً استرلينياً ؛ وبلغت الواردات ٣٨٨٥١٠٠٠ جنيهاً استرلينياً . وقد سدد العجز من حوالات المهاجرين في اميركا، وواردات الارساليات والاجانب المقيمين في البلاد ومن الديون العمومية التي عقدتها الدولة في الخارج ومن الاموال التي جمعت في الخارج لانشاء خطوط السكك الحديدية .

Digitized by Birzeit University Library

وقد اخذت قيمة الواردات والصادرات السنوية باستثناء سنة ١٩٢٢ ــ وهي سنة الازمة العالمية ــ تزداد فكانت الواردات ٥ر٧ مليون جنيه في سنة ١٩٢٢، وبلغت ٦ر٣٦ مليون جنيه في سنة ١٩٤٤، وكانت قيمة الصادرات ٤ر١ مليون جنيه في سنة ١٩٢٢ وبلغت ٦ر١٤ مليون جنيه في سنة ١٩٤٤ . وهذه الزيادة بواقع ٥٣٣ في المائة في الواردات و ٩٥٦ في المائة في الصادرات اصابت تجارة فلسطين الخارجية خلال العشرين والثلاث سنوات الماضية .

وقد كان معدل حصة كل شخص من السكان في الواردات ٥ جنيهات و ٧٣٢ ملا في سنة ١٩٣١ فبلغ ٢٠ جنيهاً و ٨٢٣ ملا في سنة ١٩٤٤ ؛ وكانت حصة كل شخص من السكان في الصادرات ٥ جنيهات و ٥١٧ ملا في سنة ١٩٣١ فبلغت ٨ جنيهات و ٤١٥ ملا في سنة ١٩٤٤ .

وقد كان هناك عجز في الصادرات بالنسبة للواردات في كل من السنوات الثلاث والعشرين الماضية (١٩٢٢ــ١٩٤٤) فقد بلغ مجموع قيمة الواردات ٢٨١ مليون جنيه ، يقابلها ٩٩ مليون جنيه مجموع قيمة الصادرات الظاهرة بالنسبة الى الواردات الظاهرة. وقد نتج عن ذلك عجز في الصادرات الظاهرة بالنسبة الى الواردات الظاهرة قدره ١٨٢ مليون جنيه . وكان معدل هذا العجز السنوي ثمانية ملايين جنيه ؛ وقد كان حده الادنى في سنة ١٩٢٣ إذ كان ٣ر٣ مليون جنيه، وبلغ حده الاقصى في سنة ١٩٤٤ فكان ٦ر٢٠ مليون جنيه. غير انه يلاحظ من جداول الواردات والصادرات بان نسبة الصادرات الى الواردات قد زادت من ٢٤ ٪ في سنة ١٩٢٢ الى ٤٣ ٪ في سنة ١٩٤٤؛ وقد كان هذا العجز يغطي دائماً من حوالات المهاجرين العرب الى الاميركتين ومن الاموال التي ترد باسم المشروعات اليهودية ، ومن اموال الارساليات الدينية والاجنبية .

الواردات : تتألف الواردات الى فلسطين من جميع السلع التي تستورد للاستهلاك في البلاد وتدفع عليها الضرائب الجمركية محلياً في

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين . على ان هنالك مؤسسات في البلاد لا تدفع ضرائب على مستوردانها منها الحكومة ، والجيش ، وشركة بترول العراق وجميع المؤسسات الدينية والخيرية والسلك القنصلي . وقد بلغت قيمة ما استورد في سنة ١٩٤٤ :

من الاطعمة ١/٤ ١٤ مليون جنيه تقريباً .

ومن المواد الخام ٣/٤ ١٣ مليون جنيه تقريباً .

ومن المصنوعات ١/١٠ ٨ مليون جنيه تقريباً .

ومن الحيوانات التي لا تستعمل للاكل ١٤٣ الف جنيه تقريبا .

ويدخل في واردات المواد الخام قيمة البترول غير المكرر والالماس غير المصقول التي تمر بالبلاد . وقد استوردت من هذه المواد ٨ر٢ في المئة من المملكة المتحدة ، و ٢٤ في المئة من الممتلكات البريطانية ، و ٨ر٦ في المئة من الولايات المتحدة الاميركية . و ٥٦ر٨ في المئة من بلدان الشرق الاوسط ، و ٢ر٤ في المئة من اماكن اخرى .

الصادرات : تشمل الصادرات ، جميع الحاصلات التي تنتجها فلسطين والمصنوعات التي تعمل فيها ، من مواد اولية تنتجها البلاد محلياً او تستوردها من الخارج ، وجميع المصنوعات التي تستوردها البلاد غير كاملة ويتم صنعها فيها . وقد بلغت قيمة صادرات البلاد في سنة ١٩٤٤ :

من الاطعمة والمشروبات والدخان ١/٤ ٢ مليون جنيه تقريباً .

ومن المواد الخام ١/١٠ ٥ مليون جنيه تقريباً .

ومن المصنوعات الجاهزة ١/٣ ٧ مليون جنيه تقريباً .

ومن الحيوانات التي لا تستعمل للاكل ٥٧٠ جنيه فقط .

ولما كان تصدير الحمضيات قد اوقف بسبب الحرب فلم يدخل في هذا

Digitized by Birzeit University Library

البيان قيمة ما كانت تصدره البلاد منها وقد بلغت قيمته في سنة ١٩٣٨ – ٣٩ حوالي ٤ ١/٣ مليون جنيه . وقد صدر من هذه المواد ١٤ر٩ في المئة الى المملكة المتحدة ؛ و ٨ر٣٤ في المئة الى الممتلكات البريطانية ؛ و ١٦ر٢٩ في المئة الى الولايات المتحدة الاميركية ؛ و ٥٩ر٥٦ في المئة الى بلدان الشرق الاوسط ؛ و ٠ر٩١ في المئة الى اماكن اخرى .

تجارة المرور :

تشتمل تجارة المرور على جميع البضائع التي تمر برا من فلسطين بقصد المرور فقط الى بلد آخر دون ان تكون للمستورد حرية التصرف بها محلياً ، ولا تدفع على بضائع المرور في دخولها او خروجها من فلسطين ضرائب جمركية ما .

لقد كانت فلسطين منذ القديم ، بسبب موقعها الجغرافي ، مركزاً عظيماً لمرور البضائع الى البلاد المجاورة ، وقد بلغت قيمة البضائع التي مرت بالبلاد خلال سنة ١٩٤٤ برسم المملكة المتحدة ١ ١/٤ مليون جنيه ، وبرسم مصر ٣ ٣/٤ مليون جنيه تقريباً ، وبرسم العراق ١٨٥ الف جنيه ، وبرسم سوريا ٨١٤ الف جنيه ، وبرسم شرق الاردن ٨٢٦ الف جنيه ، وبرسم البلدان الاخرى ١١٣ الف جنيه تقريباً .

تجارة فلسطين مع الاقطار الشقيقة :

مر منذ الحرب العالمية الاولى على تجارة فلسطين مع الاقطار العربية الشقيقة دوران :

الاول : كان منذ الاحتلال لغاية سنة ١٩٣٩ .

الثاني : منذ ابتداء الحرب الى اليوم .

وقد كانت صادرات فلسطين الرئيسية خلال الدور الاول تتألف من

Digitized by Birzeit University Library

الحاصلات الزراعية ومنتوجاتها. ولعل الصابون المصنوع من زيت الزيتون كان اهمها . وكانت المصنوعات الاخرى تصدر بكميات ضئيلة الى سوريا ولبنان وقد بلغت في سنة ١٩٣٨ قيمة المصنوعات المصدرة اليها ١١٨ الف جنيه ، وبلغت قيمه الصادرات الى مصر خلال تلك السنة ستين الف جنيه يتألف اكثر من ثلثيها من الصابون النابلسي .

اما البضائع المستوردة من مصر وسوريا ولبنان فقد كانت خلال سنة ١٩٣٤ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ كما يلي :

السنة	البضائع المستوردة من مصر		البضائع المستوردة من سوريا ولبنان	
	مواد غذائية جنيه فلسطيني	مصنوعات جنيه فلسطيني	مواد غذائية جنيه فلسطيني	مصنوعات جنيه فلسطيني
١٩٣٤	٢٧٩٠٠٠	٩٢٠٠٠	٥٢٨٠٠٠	٤٢٩٠٠٠
١٩٣٦	٣٣٢٠٠٠	٦٨٠٠٠	٩٣٢٠٠٠	٤٠٨٠٠٠
١٩٣٨	٢٦٥ ٠٠	٥٦٠٠٠	٥٥٨٠٠٠	٤٣٣٠٠٠

وقد زادت تجارة فلسطين خلال الحرب مع البلدان المجاورة زيادة كبيرة لسببين :

١) لقطع المواصلات التجارية بين الشرق الاوسط وانحاء العالم الاخرى التي اعتاد التجار في هذا القسم من العالم الاستيراد منها .

٢) لقلة المنتوجات في اجزاء العالم المختلفة التي كان بوسع الشرق الاوسط ان يستوردها .

وقد بلغت في سنة ١٩٤٤ قيمة ما استوردته مصر من فلسطين ١٢٣٣٦٤٧ جنيهاً ، وما استوردته سوريا ٨٢٥٠٢٩ جنيهاً ، والعراق ٣٨٢٦٣٩ جنيهاً ، والجزيرة العربية ٣٨٩٥١ جنيهاً ولا يدخل في هذه المبالغ اثمان البترول ومستخرجاته التي استوردتها هذه البلدان من فلسطين .

Digitized by Birzeit University Library

اما الآن وقد انتهت الحرب واصبحت البضائع تنساب من اوربا واميركا والشرق الاقصى الى البلدان العربية فلن يستطيع احد ان يتكهن عن المستوى الذي ستستقر عليه تجارة فلسطين مع البلاد العربية الاخرى .

الصدقات : كان في فلسطين منذ الفتح الاسلامي — كما كان فى بقية اصقاع دار الاسلام — فريق يعيشون على الصدقات والزكوات (والصدقة زكاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى) . وهذا الفريق هو الذي ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله : «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله علم حكيم . » فكان عامل الصدقات فى اوائل عهد الاسلام الى اوائل القرن الخامس عشر للهجرة — يقسم الصدقات ، فى هذه الاصناف الثمانية ، بعد تكاملها ووجود جميع من سمي لها ، بالتسوية : فيدفع سهماً منها الى الفقراء — والفقير هو الذي لا شيء له ، لا مال ولا كسب (من الفقار كأنه اصيب فقاره) ؛ ويدفع السهم الثاني الى المساكين والمسكين هو الذي له ما لا يكفيه ، له مال او كسب لا يكفيه ، (من السكون كأن العجز والعدم اسكنه) . ويدفع السهم الثالث الى العاملين عليها ، الساعين فى جمعها وتحصيلها ، والقائمين بقسمتها وتفريقها ، وقد جعل الله لهؤلاء اجورهم من اموال الزكاة لئلا يؤخذ من ارباب الاموال سواها فيدفع لهم من سهامهم قدر اجور امثالهم ، فان كان فيها اكثر رد الفضل على باقي السهام ، وان كان اقل تمت اجورهم من مال المصالح . ويدفع السهم الرابع الى المؤلفة قلوبهم ؛ وكانوا ثلاثة اصناف : صنف اسلموا ونيتهم ضعيفة فى الاسلام تستألف قلوبهم بالعطاء لمعونة المسلمين او للكف عنهم . وصنف يستألفون بالعطاء لرغبتهم فى الاسلام . وصنف كانوا من الاشراف قد يترتب، باعطائهم ومراعاتهم ترغيب قومهم وعشائرهم

Digitized by Birzeit University Library

في الاسلام ودخول نظرائهم في دين الله. ويدفع السهم الخامس في الرقاب يصرف لفك الرقاب بان يعاون المكاتب بشيء منها على اداء النجوم المستحقة لسيده ، والمكاتب هو العبد الذي اتفق مع سيده على ان يشتغل ويدفع له قدراً معيناً من المال متى دفعه اعتق وصار حراً ، وبان يشتري به عبيد يعتقون ، وبان يفدي به الاسارى . ويدفع السهم السادس الى الغارمين وهم المديونون ، — إما في مصالح انفسهم في غير معصية ومن غير اسراف إذا لم يكن لهم وفاء فيدفع اليهم ما يقضون به ديونهم ، وإما في مصالح المسلمين كأن يكونوا قد استدانوا لاصلاح ذات البين ، فيدفع اليهم — سواء أكانوا فقراء ام اغنياء — قدر ديونهم من غير فضل . ويدفع السهم السابع ، سهم سبيل الله تعالى ، الى المجاهدين للانفاق على المتطوعة وابتياع الكراع والسلاح وبناء القناطر والمصانع وما الى ذلك من مقتضيات الجهاد ومستلزماته . ويدفع السهم الثامن ، سهم ابن السبيل ، الى المسافر المنقطع عن بلده وماله ، يدفع اليه قدر كفايته في سفره سواء أكان مبتدئا بالسفر او مجتازاً . والذي يهمنا في بحثنا هنا من هذه الطبقات : الفقراء والمساكين في فلسطين الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم على الصدقات . والفرق بين الفقير والمسكين هو من حيث درجة الحاجة والفقير اسوأ حالا من المسكين . ولكن التمييز بينهما اصبح نظريا لا فائدة عملية ترجى اليوم منه . والفقر يجمع هاتين الطبقتين .

ولقد وجد الفقراء في جميع الازمان وفي سائر بلدان العالم الى جانب الاغنياء يعيشون على ما يتناولونه من واردات الآخرين . وهؤلاء يؤلفون ثلاثة اصناف :

١ — صنف لا طاقة له على العمل . ويقع تحت هذا الصنف الاولاد الصغار والشيوخ والمرضى والزمنى .

Digitized by Birzeit University Library

٢ — وصنف لا يجدون اسبابا للعمل . إذ لا يكفي ان يرغب الرجل في العمل بل يجب ان يجد عملا يقوم به: اي ان تكون لديه آلات العمل ومواده .

٣ — وصنف يجدون العمل ولكنهم لا يرغبون فيه : ذلك لان كل عمل يقتضي بذل مجهود مضن فيأبى هؤلاء اجهاد انفسهم او يأبون الخضوع لانظمة العمل ، ويفضلون المخمصة والراحة على النصب والكسب .

فماذا الذي كان على المجتمع عمله تجاه هذه الاصناف الثلاثة ؟ أيترك هؤلاء الناس وشأنهم يؤدى اليهم نصيبهم من الصدقات عاما بعد عام ، أم يؤدي الى الصنفين الاولين منهم وبرغم الثالث على العمل ؟ والواقع ان المسلمين انقسموا في ذلك فئتين : فئة قالت يعتمد قول الآخذ بانه فقير او مسكين ولا يطالب ببينة ولا بحلف إذا لم يعلم كذبه: قال ابراهيم بن قراطغان لاحمد بن طولون ، وكان وكيله في الصدقات : « ربما امتدت الى الكف المطوقة والمعصم فيه السوار ، والكم الناعم ، أفأمنع هذه الوظيفة ؟ » فقال له ابن طولون : « ويحك ! هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف ، إحذر ان ترد يداً امتدت اليك . » وفئة قالت يدفع الى كل واحد من الفقير والمسكين — إذا اتسعت الزكاة — ما يخرج به من اسم الفقر والمسكنة الى ادنى مراتب الغنى وذلك معتبر بحسب حالهم : فمنهم من يصير بالدينار الواحد غنيا إذا كان من اهل الاسواق يربح فيه قدر كفايته فلا يجوز ان يدفع له اكثر منه ؛ ومنهم من يكون ذا جلد يكتسب بصناعته قدر كفايته فلا يجوز ان يعطى وان كان لا يملك درهما . وقدروا ان اكثر ما يعطاه الفقير والمسكين بما دون مائتي درهم من الورق ، وما دون عشرين ديناراً من الذهب لئلا تجب عليه الزكاة فيما اخذ من الزكاة . ولا يجوز ان

Digitized by Birzeit University Library

يدفع احد زكاته الى من تجب عليه نفقته من والد او ولد لغناهم به ، لئلا يستغرق هؤلاء زكوات الناس ولا يبقى للفقراء الأباعد شيء يعتاشون به . وجوزوا ان يدفع رب المال زكاته الى اقاربه - سوى من تجب عليه نفقتهم - واعتبروا صرفها فيهم افضل من الاجانب .

وقد سبق التشريع الاسلامي التشريع الحديث بنيف وثلاثة عشر قرنا، فقرر نفقة تشمل الطعام والكسوة والسكنى وجعلها واجبة: على الاب لولده الصغير سواء اكان ذكراً ام انثى الى ان يبلغ الذكر حد الكسب ويقدر عليه ، وتتزوج الانثى .

وعلى الاب لولده الكبير العاجز عن الكسب للزمانة والعاهة التي تمنع من الكسب ، ولبنته الكبيرة الفقيرة ولو لم يكن بها زمانة ما لم تتزوج .

وعلى الام الموسرة لاولادها في حال عسرة الاب .

وعلى الاصول الموسرين (كالاجداد والجدات) اذا مات الاب عن اولاد صغار .

وعلى الحواشي الموسرين (كالاخ والعم والخال) في حالة عدم وجود اب او اصول .

وعلى الولد الموسر ذكراً او انثى لوالديه واجداده وجداته الفقراء .

وعلى القريب الوارث لكل ذي رحم فقير تحل له الصدقة .

لقد سن في انكلترا سنة ١٩٣٠ «قانون الفقراء» فجعل نفقة الشخص الفقير واجبة على الاب والام والجد والجدة والزوج والولد . وجعلها واجبة على الزوجة التي لها مال خاص . ولكن هذا القانون ما زال ناقصا لان النفقة لم تقرر على الاخوة والاخوات والاحفاد .

وانت ترى ان المجتمع الاسلامي لم يهمل هذه الاصناف من الفقراء .

Digitized by Birzeit University Library

وقد جعلت الصدقات ضمن الاموال المختلفة التي كان العرب يجبونها في عهد حكومتهم . قالوا :

« ان الجباية في الصدر الاول كانت تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي اي الجزية . » وقد استمر العمل على هذا المنوال الى القرن الخامس للهجرة .

قال الغزالي : « وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان : قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر، والفيء — وهو الذي حصل من مالهم من غير قتال ، والجزية واموال المصالحة — وهي التي تؤخذ بالشروط — والمعاقدة . والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان : الموارث وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك ، والاوقاف التي لا متولي لها . اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان ـ اي في القرن الخامس ـ وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . » وقال: « ان الاموال المنصبة الى الخزائن المعمورة اربعة اصناف :

الصنف الاول : ارتفاع المستغلات . وهو مأخوذة من اموال موروثة لولي الامر .

الصنف الثاني : اموال الجزية .

الصنف الثالث : اموال التركات .

الصنف الرابع : اموال الخراج .

فهذه هي الاموال المأخوذة واخذها جائز ، ويبقى النظر في مصارفها ، وهي ـ مع اختلاف جهاتها ـ تحويها اربع جهات ، وفيها تنحصر مصالح الاسلام والمسلمين :

Digitized by Birzeit University Library

الجهة الاولى : المرتزقة من جنود الاسلام .

الجهة الثانية : علماء الدين وفقهاء المسلمين ، القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين بالدليل والبرهان ، كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان .

الجهة الثالثة : محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية .

الجهة الرابعة : المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل الخرج . »

ويتبين لك مما نقلناه لك عن الغزالي ان ميزانية الدولة كانت تحوي مادة خاصة بالانفاق على الذين سماهم « محاويج الخلق » وهؤلاء هم الفقراء الذين ليس لهم فرع او اصل او حواشي تجب نفقتهم عليهم، فاذا لم يمكنهم التكسب باي طريقة من الطرق وجبت نفقتهم في بيت المال. فالشيخ الكبير والمريض مرضاً مزمناً والاعمى والأشل الذين لا يمكنهم الولوج في اي باب من ابواب الكسب تجب نفقتهم في بيت المال : ذلك لانهم قالوا « الغرم بالغنم » إذ لو فرض موت واحد من هؤلاء عن تركة ولم يترك وارثاً اخذها بيت المال .

وقد كانت الحال بادىء الامر في فلسطين على عهد الدول العربية تجري على هذا المنوال فكانت طبقة الفقراء تعيش من سهمها في الصدقات ومن بيت مال الدولة ، ثم تطور الامر واضيف باب ثالث لأعالة هؤلاء الناس ، فوقف اصحاب الخيرات الوقوف وجعلوها صدقات جارية حبسوها على الفقراء في هذا البلد ابد الآبدين ودهر الداهرين . وسنحدثك فيما يلي عن احد هذه الحبوس — وهي كثيرة في فلسطين — ما يزال معينه للسائلين لا ينضب :

Digitized by Birzeit University Library

كانت خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني اعظم سلاطين آل عثمان . وقد احتملها التتر من بلدتها (روغاتينو) الواقعة في روسيا الحمراء وباعوها في استنبول حيث وجدت سبيلها الى بيت الملك. وكان اسمها آنذاك (خوروم) ومعناه المرحة او السعيدة فتزوجها سليمان وولدت له محمداً وجهانكوير وسليم الثاني، والاميرة محرمة . وكان سليمان يحبها حباً جماً ويستشيرها في كل اموره وقد توفيت في سنة١٥٥٨م ودفنت الى جانب زوجها في جامع السليمانية باستنبول .

لقد شغفت خاصكي سلطان بالخيرات فانشأت جامعين في استنبول وأدرنه . وبنت مدرستين احداهما عرفت باسم خاصكي خوروم، والاخرى بالمدرسة القاهرية ؛ واقامت مستشفى باسم (طانجانه خاصكي) وحمامين وسوقاً للنساء كلها في استنبول . وشيدت في مكة المكرمة تكية تقع بالقرب من الكعبة المشرفة تعرف باسم (عمارة خاصكي خوروم) .

هذه السيدة الفاضلة انشأت في بيت المقدس التكية المعروفة باسمها، وهي الواقعة في الطريق المؤدية من محلة وادي الطواحين الى سوق باب خان الزيت التي تعرف اليوم بعقبة التكية . وكانت في القديم تسمى عقبة الست نسبة الى السيدة (تنشق المظفرية) وشرطت ان يطبخ فيها : « كل يوم سوى ليالي الجمع الشريفة ، مرق بالسمن مرتين ، مرق الارز غداء ، ومرق الحنطة عشاء ، وفي ليالي الجمع يطبخ مرق الحنطة غداء ، والاطعمة النفيسة عشاء . وهي المعروفة بـ (دانه پرنج) وزرده . . . وان تطبخ كل يوم في فرن العمارة اخبزة معروفة بـ (فدولة) مقدار كل واحد منها مطبوخاً سبعون درهما، توزع على « فرقة الفقراء والمساكين وزمرة الضعفاء والمحتاجين » على ان يحق ايضاً « لعلماء القدس وفقرائه وصلحائه واغنيائه على وجه العموم » ان ينالوا نصيباً من انواع المرق في يوم عاشوراء وعلى ان يعطى « كل غداة

Digitized by Birzeit University Library

وعشية لاربعمائة نفر من الفقراء والمساكين والضعفاء والمحتاجين الحاضرين في المأكل مايتا كأس ، لكل اثنين منهم كأس فيها من الاطعمة واللحم مقدار ما يعطى لواحد من المجاورين ولكل واحد منهم خبزواحد .. ». وقدوقفت في مصالح هذه التكية اموالا كثيرة واقعة في انحاء فلسطين وسوريا ولبنان وحررت بذلك كتاب وقف تاريخه اواخر شوال المبارك لسنة سبع وستين وتسعمايه .

وقد صادر محمد علي باشا الكبير واردات وقف خاصكي سلطان سنة ١٨٣١م، وظلت الحكومة العثمانية واضعة يدها عليها بعد استردادها لسوريا وفلسطين ، ولكنها حددت واردات هذا الوقف بمبلغ قدره ألف ومائة وخمسون ليرة عثمانية كانت تؤديها سنوياً الى ادارة الاوقاف . اما حكومة فلسطين فتدفع من حساب هذا الوقف سنوياً الى المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى الفين وتسعمائة وخمسين جنيهاً فلسطينياً ينفق في شؤون التكية .

وانت ترى مما تقدم ان الحكومات الاسلامية المتعاقبة على فلسطين كانت تعنى دائماً بشؤون الفقراء ، فتجبر اقاربهم — ان وجد لهم اقارب — على اعالتهم . او تدفع لهم ما يسد حاجتهم إما من اموال الصدقات وإما من اموال الدولة . وقد كانت إما ان تعين عاملا خاصا يقلد اخذها وقسمتها في مستحقيها ويدعو لاهلها عند الدفع ترغيبا لهم في المسارعة وامتثالا لقوله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ؛ وإما ان تجعلها من وظيفة المحتسب وقد كان له ان ينظر في احوال المتسولين ويمنعهم من التسول إلا ان يكون منشأه حاجة حقيقية.

وحال المجتمع العربي في فلسطين تغيرت تدريجياً بعد الاحتلال ، واختفى عامل الصدقات وبيت المال من الوجود، واصبح فى البلاد، ولا سيما في المدن، جم غفير من الفقراء الذين لا ملجأ لهم، وزاد الامر تعقيداً ازدياد سكان

Digitized by Birzeit University Library

المدن واختلاف الاوضاع الاجتماعية بتغير مستوى المعيشة . فماذا عملت الحكومة ؟ تركت الامور تسير على طبيعتها الى ان انشأت في سنة ١٩٤٤ دائرة للشؤون الاجتماعية ، وهذه الدائرة — على حد قول الحكومة — « مسؤولة مباشرة عن نظام مراقبة الاحداث والمدارس الاصلاحية ومدرسة العميان التي انشأت للصبيان العرب ، واغاثة البائس والفقير في المجتمع العربي ، وادارة الهبات المقررة لمشاريع الشؤون الاجتماعية المحلية ، والتي تدفعها المؤسسات الخيرية . »

لقد كانت دوائر حكام الالوية مسؤولة عن اغاثة بعض حالات الفقر قبل ان تستلم دائرة الشؤون عملها في شهر تموز سنة ١٩٤٤ . وكانت هذه الدوائر تدفع اعانات الى العائلات التي اعتقل معيلوها بسبب ثورة سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، والى العائلات التي تأثرت بسبب اضطراب الحالة الاقتصادية التي نشأت بسبب تلك الثورة . ولما وقعت الحرب لم يبق احد من العمال القادرين على العمل عاطلا ، فهبطت موقتاً نسبة عدد الفقراء في انحاء البلاد إلا في مدينة القدس حيث ما تزال حالات الفقر منتشرة انتشاراً كبيراً . وقد زاد في حدة الفقر ارتفاع اسعار الحاجيات وغلاء المعيشة بوجه عام. فاستمرت الحكومة في تقديم مساعداتها للفقراء ولكن المساعدة لم تكن ، بسبب ضئالتها ، لتسمن او تغني من جوع — ذلك لانها تعطي لكل فقير مئتي مل في الاسبوع وفي بعض حالات الفقر المدقع تضيف الى ذلك منحة صغيرة من النقود . وقد نال هذه المساعدة ٩٠٤ عائلات في سنة ١٩٤٤ .

ان تنظيم الخدمات الاجتماعية بين العرب ما يزال في بداية عهده ، والزكوات ما يزال يخرجها اصحابها بطرقهم الخاصة ، إلا ان نسبتها هبطت عن ذي قبل ، والمؤسسات الدينية تقدم مساعداتها للفقراء بطرقها المألوفة

Digitized by Birzeit University Library

ولكن بالرغم من كل هذا قد تنبه في الامة شعور الحدب على ابنائها الفقراء والمعوزين فقد اسست جمعيات لليتيم العربي وألفت في البلاد لجان لاطعام الاطفال الفقراء ، عندما اعلنت دائرة الصحة في اواخر سنة ١٩٤٢ ان الاطفال العرب يشكون من نقص الغذاء ، وقد بلغ عدد الاطفال الذين نالهم طعام هـــذه اللجان في سنة ١٩٤٤ (١١٥٦٩ طفـــلا) . وتحملت الحكومة اطعام هؤلاء الاطفال لان الاموال التي جمعتها اللجان لم تكن كافية للاستمرار في المشروع. على ان سياسة الحكومة — كما اعلنتها — ان تتحمل فقط نصف تكاليف مشروعات الخدمات الاجتماعية فحسب ،وقد بلغ مجموع ما انفقته على العرب في سنة ١٩٤٤ — ٤٥ (٣١٢٧٩) جنيها من اصل (١٩٢٧١٨) جنيها وهي مجموع نفقاتها على العرب واليهود والجنود المسرحين. وقد قامت هذه الدائرة بتحقيق في مناطق الاحياء الحقيرة في البلاد سنبحثه في الفصل الخاص من هذا الكتاب « بمستوى المعيشة » .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الخامس

مستوى المعيشة

عند العرب

ينطوي تحت هذا الاصطلاح « مستوى المعيشة » ، عناصر كثيرة قد لا يتمكن المرء من ايجاد مقاييس للبعض منها ؛ ومع ان علماء الاجتماع لم يتفقوا حتى اليوم على تعريف تام جامع لهذا المصطلح فقد انتشر منذ منتصف القرن التاسع عشر مذهبان في فحص مستوى معايش الجماهير ودرسها درساً علمياً ، احدهما مذهب « لوبلي Le Play » وقد كان شائعاً في فرنسا ؛ والثاني مذهب التحليل الاقتصادي والاحصائي ، وقد عرف في المانيا وانجلترا واميركا وانتظم اتباعه في مدرستين : مدرسة المنفعة الاقتصادية ، والمدرسة الاحصائية التي تزعمها « إرنست إنجل » .

رأى لوبلي ان مستوى المعيشة يظهر من حاجات الانسان الضرورية وقال إن تلك الحاجات هي ذات طبيعة مزدوجة تتناول ـ على حد تعبيره ـ القوت اليومي ، والعرف الاخلاقي ؛ وقد قصد من ذلك ان يؤكد ان مستوى المعيشة بين الناس يستخرج من بحث نواحي الاشياء المادية ، ومن تقاليد المجتمع الروحية . وقد عرف الامور المادية «بالحاجات الضرورية» واطلق على التقاليد الروحية القانون الاخلاقي . قال : « إن مستوى المعيشة قد يتخذ اربع او خمس حلقات في السلسلة التي اسماها « اساس المجتمع » وقد خص هذا الاساس بالحياة العامة والحياة الخاصة على السواء . وجعله في سبعة عناصر : الركنين وهما السلوك الفردي ، وسلطان الاسرة . والرافدين ، وهما وظائف المؤسسات الدينية ومدى نفوذ الحكومة في المجتمع . وغاية الرافدين

Digitized by Birzeit University Library

هي العمل لضم جميع العناصر الاخرى معاً . وتتألف العناصر الباقية من « الطيبات[١] » الاقتصادية التي يحرزها ثلاثة فرقاء : هم الفرد، وصاحب العمل او الزعيم الاقطاعي ، والمجتمع . وقد حاول لوبلي ان يثبت ان مستوى معيشة الناس يختلف ، تصويباً وتصعيداً ، باختلاف تأثير هـذه العناصر السبعة . فمتى كان سلوك الانسان موافقاً لنظام الاسرة ومطابقاً لاصول الدين ، وكان للحكومة سلطان يحمي مصالح السكان ، وكانت الطيبات الاقتصادية تشبع حاجات الناس كل حسب رغبته ، يعتبر ان مستوى المعيشة قد بلغ ذروة الرخاء والطمأنينة ويعتبر الانسان سعيداً . وعلى النقيض من هذا الامر إذا لم يكن تناسب بين هذه العوامل يكون الانسان في حالة شقاء . وقد جعل لوبلي لدراسة الاسرة المكانة الاولى في بحث مستوى المعيشة .

اما مدرسة المذهب الاقتصادي الاحصائي الاولى ، مـدرسة المنفعة الاقتصادية ، فلها نظريات طويلة مشعبة وهي في الواقع تخص علم الاقتصاد

---

١. يطلق ــ في علم الاقتصاد ــ لفظ الطيبات على جميع الاشياء التي تشبع لنا حاجة من الحاجات ، وبعض الطيبات قادرة على اشباع الحاجات في التو بطريقة مباشرة فنرغب فيها لذاتها ، فالسكر والخبز والمنزل والمذياع والخدمات الشخصية التي يقوم بها الخادم والميكانيكي والطبيب والمعلم ، كل هذه طيبات يمكننا ان نستهلكها في التو لقدرتها على الاشباع المباشر ، وهي التي نسميها طيبات الاستهلاك او طيبات الطبقة الاولى ــ على حد قول شارل جيد في كتابه الاقتصاد السياسي .

وهناك نوع من الطيبات لا يصلح لاشباع حاجاتنا إلا عن طريق غير مباشر مثال ذلك : الدقيق والماء والوقود وجميع لاشياء الاخرى التي ساهمت في تهيئة رغيف الخبز للاستهلاك قد اشبعت حاجتنا للرغيف عن طريق غير مباشر وقد اسماها الاقتصاديون طيبات الانتاج او طيبات الطبقة العليا : انظر عناصر علم الاقتصاد ، ج ١ ، ص ٩ ، للدكتور محمد فهمي لهيطة ، والاستاذ محمد حمزة عليش ، القاهرة ١٩٤٣ ، وانظر أيضاً Commodity في شارل جيد وكرو .

Digitized by Birzeit University Library

اكثر مما تتعلق بعلم الاجتماع . من ذلك ابحاثها في العلاقة بين « العرض » و « السعر » وتأثير ذلك على الاسرة . وهذه الامور مع ما تترك من تأثيرات بسيكولوجية عن « القيمة الاقتصادية » تنتج قانون « الواردات الحدية » والمنفعة الحدية واثرها في حياة الاسرة . الى غير ذلك من القوانين والقواعد الاقتصادية التي لا علاقة مباشرة لها ببحثنا هذا .

واما المدرسة الثانية مدرسة ارنست انجل فكانت تعتمد في ابحاثها على الاحصاءات الى ابعد حد ممكن . وهي تقول : ان مستوى المعيشة يقاس بالنسبة الى كمية المواد التي يستهلكها المجتمع . وهذا القول يجعل مدرسة انجل فرعا نشأ من مدرسة المنفعة الاقتصادية لان العلاقات التي يعتريها البحث تدور حول كمية الطيبات وقيمتها . قال انجل : « ان مقدار ما ينفق للطعام بالنسبة الى مجموع النفقات ، هو ، اذا تساوت كل الامور الاخرى ، خير مقياس لمستوى معيشة السكان المادية » .

ومع انه يبدو لنا ان طريقة لوبلى في البحث تؤدي بنا الى النتيجة المنشودة من بيان مستوى المعيشة في هذا البلد اكثر مما قد تؤديه طريقة مدرسة المنفعة ، ومدرسة « انجل » ، نرى من الخير ان لا نتقيد بأية طريقة من هذه الطرق مستقلة ، وانما ان نستفيد من تطبيقها جميعاً بقدر ما يسمح به النطاق . وهذا سيكون سبيلنا في هذا البحث .

« ليس من شك في ان مستوى المعيشة بين العرب في فلسطين قطع شوطاً بعيداً في مضمار التقدم بعد الحرب العالمية الاولى » وهذا التقدم لم يقتصر على عرب فلسطين وحدهم بل أصاب سكان بعض الاقطار العربية الاخرى الواقعة في الشرق الاوسط . فلقد أخذ هؤلاء السكان منذ اواخر القرن الماضي يعملون على مجاراة تيار المدنية الغربية في الفكر والمظهر ، ويكيفون محيطهم لاقتباس ما يحسن في اعينهم منها . وأخذوا يعلمون ابناءهم في المدارس

Digitized by Birzeit University Library

الحديثة التي انشئت في بلادهم ويتمون دروس التخصص في الاستانة وبلاد الغرب . ثم كانت الحرب العالمية الاولى فعبدت الطرق وانشئت السكك الحديدية ونفذت السيارات الى جميع انحاء البلاد واصبحت منتوجات المصانع الاوروبية تصل الى القرى الواقعة في اقاصي العمران . واننا ننقل اليك فيما يلي وصفاً لعملية التطور والارتقاء هذه من تقرير الدولة التي كانت منتدبة على العراق :

« ليس من شك في ان مستوى المعيشة في المدن يسرع الخطى نحو التقدم والارتقاء . فان العراقي الثري لم يعد يقنع بالمساكن التركية التي كان يقيم فيها آباؤه ، وانما أخذ ينشىء لنفسه مساكن على طراز اوروبي حديث . وأخذ لا يستغني عن سيارة خاصة به . وأصبح هو وزوجه يلبسون ألبسة اوروبية . » (تقرير سنة ١٩٣١ الصفحة ٣١) .

« . . . ولقد كانت اولى نتائج الاتصال بالمؤثرات الغربية في المدن مادية اكثر منها روحية فبدأت علامات التذمر من المعيشة القديمة تنتشر تدريجياً ، وبرزت الى حيز الوجود الرغبة فى اقتباس الملابس الغربية ، وانتشرت نزعة وصم المحافظين بانهم غير متمدنين ، وتشوق الناس الى اقتناء السيارات وغيرها من وسائل الراحة والترف . وكان يبدو في احاديث الشبيبة ازورار عن الاشادة بمفاخر العرب ومجدهم التالد ، واتجاه الى ما يجب ان يكون عليه المستقبل . وهم يطلبون تحسيناً في مستوى المعيشة وفي المساكن والاحوال الصحية والاجتماعية والاقتصادية ، ليتمتعوا بما تتمع به الاقطار الاخرى وما تزال العراق محرومة منه . » (التقرير من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٣١ الصفحة ٢٤١) .

وقد اعترف ميثاق عصبة الامم بأن البلاد المنسلخة عن الحكومة

Digitized by Birzeit University Library

العثمانية ومنها فلسطين بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف بها كأمم مستقلة . فقد جاء في المادة الثانية والعشرين من ذلك الميثاق :

« ان بعض الجماعات التي كانت تابعة فيما مضى للامبراطورية العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف بها مؤقتاً كأمم مستقلة. »

ان سنن المعيشة عند جمهرة السكان العرب في فلسطين تختلف وتتمايز بين المدن والقرى . من اجل ذلك كان علينا ان نشير في تقديرنا لمستوى المعيشة في هذا البلد الى قسمي السكان : سكان القرى وسكان المدن . ولا يغربن عن البال أن ايجاد مقياس نترسم فيه مدى التقدم نحو رغد العيش المادي ما زال امراً عسير المنال وانما بوسعنا ان نشير بالمقابلة الى العوامل المختلفة التي أدت الى رفع مستوى المعيشة لدى قسمي السكان العرب ونبحثها بحثاً مستفيضاً على ضوء الاساليب التي المعنا اليها في بداية هذا البحث. واننا نورد فيما يلي بياناً بسكان القرى والمدن العربية منذ سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٤

	١٩٢٢	النسبة المئوية	١٩٣١	النسبة المئوية	١٩٤٤	النسبة المئوية
سكان المدن	١٩٥٠٠٠	٪ ٢٩	٢٥٩٠٠٠	٪ ٣٠	٤١١٠٠٠	٪ ٣٤
سكان القرى بما فيهم البدو	٤٧٨٠٠٠	٪ ٧١	٦٠٢٠٠٠	٪ ٧٠	٨٠٠٠٠٠	٪ ٦٦
	٦٧٣٠٠٠	٪ ١٠٠	٨٦١٠٠٠	٪ ١٠٠	١٢١١٠٠٠	٪ ١٠٠

ويلاحظ من هذا البيان ان الزيادة في عدد السكان بلغت خلال الاثنتين والعشرين سنة حوالي ٨٠ ٪ وقد كان ٩٢ ٪ من هذه الزيادة . زيادة طبيعية وهذا الامر ، ولا شك ، من الادلة على ارتقاء مستوى المعيشة . ولا بد لنا هنا من الاشارة الى ان الاقتصاد العربي في القرى يتركز على سكان الف قرية متجانسين في اصول الحياة بوجه عام ، بخلاف سكان المدن العرب فهم متباينون في اصول الحياة ويعتبر منهم اقوام ليسوا عرباً في شيء ، وانما

Digitized by Birzeit University Library

استعربوا واحتفظوا باصول معيشتهم واستمروا يطبقون اساليبهم الخاصة في طلبهم للرزق المادي وفي حياتهم الروحية .

وقد كانت الزيادة الطبيعية بين سكان المدن من المسلمين خلال المدة من ١٩٢٢ الى ١٩٤٤ بواقع ٨٣ ٪ وبلغت ٦٧ ٪ خلال عين المدة بين سكان القرى . وقد جاء قسم من زيادة سكان المدن المسلمين من هجرة القرويين الى المدن ولا سيما منذ سنة ١٩٣١ الى اليوم ؛ غير انه ما يزال ٧٠ ٪ من سكان البلاد المسلمين يعيشون على الزراعة ، وقد كانت نسبة الذين يعيشون منهم في القرى ٧٦ ٪ في سنة ١٩٢٢ . اما نسبة السكان المسلمين الذين يعيشون في المدن الكبيرة فقد زادت من ٧ ٪ في سنة ١٩٢٢ الى ٦٢ ٪ في سنة ١٩٤٤ .

والسكان العرب المسيحيون اقامت اكثريتهم في المدن وكان ربع عددهم فقط ينزل القرى في سنة ١٩٢٢ فهبط الى الخمس في سنة ١٩٤٤ .

وقد درست احصاءات فلسطين بصدد نسبة المواليد والوفيات والهجرة ومعدل السن والجنس عند العرب (من سنة ١٩٢٢ الى ١٩٤٥) كما يتوصل الى تقدير عدد السكان العرب في المستقبل .

وفيما يلي خلاصة عن الوقائع التي اعتمد عليها :

ان عدد الذكور بين العرب يساوي عدد الاناث تقريباً .

ان عدد الاطفال بالنسبة الى مجموع السكان كبير ، وان عدد الطاعنين في السن قليل جداً — شأن فلسطين في ذلك شأن الاقطار الشرقية الاخرى .

ان الزواج منتشر انتشاراً كبيراً بين المسلمين وان نسبته كبيرة جداً اذا قيست باعلى نسبة للزواج في العالم . ويعقد الزواج في سن مبكرة كان معدلها في سنة ١٩٤٤ للنساء (١٩٫٤) وللرجال (٢٤٫٣) سنة .

Digitized by Birzeit University Library

ان نسبة تعدد الزوجات قليلة في البلاد ، وان نسبة المطلقات اللائي لا يتزوجن ثانية منخفضة جداً .

وينتج عن الزواج المبكر وانتشار الحياة الزوجية ان المدة التي تقضيها المرأة المسلمة في بيت الزوجية وهي صالحة للولادة طويلة جداً.

يزداد عدد عقود الزواج خلال ايام الرخاء وذلك ناتج عن غلاء المهور ، وقد تزوج بعض المسلمين نساء من مصر وسوريا ولبنان وقبرص .

ان نسبة المواليدين المسلمين بلغت خلال المدة (١٩٢٣-١٩٣١) في الالف (٥٥) وقد بلغت هذه النسبة ٧٠٪ وزيادة في سنة ١٩٤٤ . وهذا ناشيء عن التحسن الذي سجل في مستوى المعيشة .

اما معدل الوفيات بين العرب فقد هبط هبوطاً ملموساً منذ سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٩ .

لقد كان هذا المعدل في سنة ١٩٢٧ (٣٠) في الالف فهبط الى ١٧٫٧ في الالف في سنة ١٩٤٤ اي بنسبة ٣٨٪ في خلال ١٨ سنة .

وكان معدل الوفيات في سنة ١٩٢٧ — ١٩٢٩ مساوياً لمعدل الوفيات في اوربا خلال السنين ١٨٥١ — ١٨٦٠ ولكنه هبط في سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٤ الى ما دون ما كان عليه معدل الوفيات في اوربا في السنة ١٩٠١ — ١٩١٠، وبذلك تكون فلسطين العربية قد تقدمت خلال ١٥ سنة اكثر من تقدم اوربا خلال خمسين سنة .

وكانت فلسطين الاسلامية ، من حيث ارتفاع نسبة الوفيات في سنة ١٩٢٦ — ٣٠ ، البلد الثاني والستين من مجموع ٦٤ بلداً ورد ذكرها في جدول الوفيات الذي نظمته عصبة الامم . ولكنها اصبحت اليوم البلد الثامن والاربعين في هذا الجدول اي ان نسبة وفياتها هبطت ففاقت بذلك ١٦ بلداً.

وكان معدل سن الوفاة يقع في السنة ٣٧—٣٨ من العمر في سنة ٢٧—١٩٢٦ فاصبح اليوم يقع في السنة ٤٩ — ٥٠ من العمر .

Digitized by Birzeit University Library

وقد كانت نسبة الوفيات في الاطفال سنة ١٩٢٧ – ٢٩ تبلغ ٤١ من كل ١٠٠ طفل بين السنة الاولى والخامسة من عمره . فهبطت الآن بنسبة :

٣٤ ٪ من هذا المعدل لاولاد السنة الاولى من حياتهم .

٣١ ٪ لاولاد السنة الثانية .

٥٧ ٪ لاولاد السنة الثالثة .

٦٤ ٪ لاولاد السنة الرابعة .

٦٧ ٪ لاولاد السنة الخامسة .

وكانت نسبة وفيات الاناث تزيد على نسبة وفيات الذكور ولعل ذلك ناشئ عن اهتمام الابوين بالذكور اكثر من اهتمامهم بالاناث .

ويتضح من هذه البيانات ان مستوى المعيشة عند العرب قد ارتقى وبارتقائه ازداد عدد المتزوجين الذين اسسوا أسراً جديدة ، وازداد عدد المواليد وانخفض عدد الوفيات ، فكانت النتيجة ان ازداد عدد السكان العرب وكان القسم الاكبر منها طبيعية، فبلغوا في سنة ١٩٤٤ (١٢١١٠٠٠) نسمة . وقد قدر ازدياد عدد السكان العرب للمستقبل اي في خلال المدة ١٩٤٥ الى ١٩٦٠ على الوجه الآتي : نفس

١٩٤٥	١٢٤١٠٠٠
١٩٥٠	١٣٥١٠٠٠
١٩٥٥	١٥٢٥٠٠٠
١٩٦٠	١٧٣٠٠٠٠

واشترط في هذا التقدير :

أ . ان تستمر نسبة المواليد كما هي عليه الآن .

Digitized by Birzeit University Library

ب. ان تستمر نسبة الوفيات على ما هي عليه الآن[١].

ج. ان يستمر نظام الاسرة في المدن والقرى على حالته الحاضرة وان لا يشيع في البلاد نظام تحديد النسل يقتبسه السكان من المدنية الغربية.

وسنتحدث اليك فيما يلي عن نظام الاسرة في فلسطين العربية واثره في مستوى المعيشة.

نظام الاسرة العربية:

في فلسطين العربية اليوم صراع بين «الاسرة» وبين «الفردية». واتباع نظام الاسرة او العائلية يعملون للمحافظة على التقاليد الاجتماعية التي تجعل للاسرة سلطاناً على الافراد، وهم يعتبرون ان الاسرة هي الوحدة الاجتماعية في البلد. بينما نجد اتباع الفردية يدأبون للتحرر من نظام الاسرة ويحاولون ان يجعلوا من الفرد وحدة اجتماعية. وهنالك ثلاثة انواع من الاسر في فلسطين:

أسرة الاصول او «الابوة».

أسرة الجذع.

الاسرة المتغيرة.

فأما أسرة الابوة فقد جاءت الى البلاد مع القبائل العربية وكانت القبيلة الواحدة تتألف من مجموعة من الاسر تربطهم معاً لحمة القرابة. وهي تتألف من «أب» هو اكبر الاصول الذين على قيد الحياة تخول له كل السلطة في ترأس العائلة وادارة شؤونها. ويقيم جميع ابنائه واحفاده الذكور في منازل

---

١. (انظر A Palestine Survey)

Digitized by Birzeit University Library

الاسرة او بالقرب منها وفاقاً لما يقرره الاب الذي يتحكم فيهم كيف يشاء. فأموال الابناء وممتلكاتهم هي اموال الاب وممتلكاته ومكتنزات العائلة يتصرف بها الاب بمحض اختياره، وعند وفاته توزع على افراد العائلة حسب الفريضة الشرعية، ويتولى رآسة العائلة الابن البكر. ولا يستطيع الابناء ان ينفصلوا عن عائلة الابوة إلا ان يأذن لهم الاب او رب العائلة بذلك. وجمهرة عرب فلسطين يعتنون بانسابهم ولذلك فهم يحافظون على هذا الضرب من نظام الاسرة، وغايتهم ان تكون حياة الاسرة ـ وبالتالي ـ حياة القبيلة او الحمولة ابدية دائمة. واذا ارتكب احد افراد الاسرة جناية قامت الاسرة والحمولة جميعها بتحمل الضرر الناتج عن ذلك؛ واذا نزل باحد افراد الاسرة حيف أزالته الاسرة عنه. وقد كانت الاسر تنتقل من مكان الى آخر كمجموعة واحدة إذا ساءت الاحوال الاقتصادية. وهذا النوع من الاسرة ما يزال شائعاً في القرى العربية في فلسطين. ولا يزال دخل الابناء ينفق في حاجات الاسرة ومصالحها.

وأُسرة «الجذع» تتألف من احد الابناء وزوجه، يقيمون في دار الجدود وينطلق بقية الابناء والاحفاد الذكور فيؤسسون لانفسهم بيوتاً مستقلة خالصة لهم من دون الاقارب والارحام. ولكنهم يحملون معهم بعض المال والاثاث من دار الجدود، يعتمدون عليه في تأسيس حياتهم الجديدة. وهذا الصنف من الاسرة يوجد في فلسطين في المدن وبين العائلات القديمة التي كان لها إما خطر في الدين، وما تزال وظائف معينة توجه على ارشد افرادها خلفاً بعد سلف؛ واما حسب في الدنيا كأن تكون الاسرة تنتسب لاحد الامراء او الحكام القدماء مثلا.

وهذا النوع من الاسرة يتمشى مع احدث النظم العائلية في العالم الحديث اليوم؛ ومن مميزاته ان ينمي حب العمل والاعتماد على النفس عند أفراد

Digitized by Birzeit University Library

الاسرة من جهة، ويحفظ تقاليد الجدود النافعة جيلا بعد جيل من الجهة الاخرى . وهو يشبه نظام « الابوة » من حيث ديمومة الاسرة ، ويفضله من حيث اقرار الملكية الفردية لابناء الاسرة الواحدة . وعلى الجملة ان نظام أسرة « الجذع » يتضمن جميع العناصر الضرورية لرقي المجتمع ورفع مستوى معيشته فضلا عن انه يشبع رغبات الذين يعملون للملكية الفردية . ومن اصوله المتعارفة تأمين وجود عميد للاسرة في جميع الازمان . واذا توفي عميد العائلة لا يتردد الصالح من الابناء والاحفاد للرآسة في ان يدع العمل الذي يمارسه — دون ما نظر الى ما يدر عليه من الربح المادي — ويتقدم لرآسة العائلة وقبول توجيه الجهة عليه مهما يكن جعلها ضئيلا . وانك لتجد الكثير من هذا النوع من الاسر في المدن العربية القديمة وقد كان مستوى المعيشة لديها مرتفعاً نسبياً ولا تزال اغلبيتها الى اليوم محتفظة بكيانها .

والنوع الثالث من الاسر الموجودة اليوم بين عرب فلسطين هو المعروف « بالاسرة المتغيرة » ، وهو آخذ في النمو والانتشار بين طبقات العمال في المدن الكبيرة التي اخذت اليوم تتحول الى مدن صناعية كميناء حيفا مثلا . فالشاب الذي يفد الى العمل في المدينة يقطع كل صلة حقيقية له بدار « الابوة » ، حالما يبلغ رشده ويؤسس لنفسه بيتاً مستقلا ، فيتمتع بدخله الذي يحصل عليه بعرق جبينه وكد يمينه، وينفقه في شؤونه الخاصة. ويتحرر من سلطان العائلة وتقاليدها ويعتمد في حياته على « فرديته » . ولا يعتبر نفسه مسؤولا عن عصبيته وارحامه ، ويتلقى نتيجة عمله وجهده وقد يصل في زمن قصير الى اعلى مستوى في الحياة العملية ان كان مدركا متعقلا او مجدوداً . وعلى النقيض من هذا الامر ان كان كسولا او فارقه الحظ يتدهور الى حضيض التعاسة ؛ فهو لا يستطيع ان يعتمد على بيت « الابوة »

Digitized by Birzeit University Library

لينال قوته اليومي منه ، ولم يوفق في كسب ذلك القوت بعمله . إلا ان جمعيات ونقابات العمال العربية تعمل اليوم بوسائلها الخاصة الفعالة لتعوضه عن بيت الابوة بملجأ يأوي اليه عند الحاجة .

إن «أُسر الابوة» في فلسطين تكاد تحصل من الارض على جميع الحاجات الضرورية لمعاشها ، وتقدم لابنائها الاقوات الضرورية في ايام الضائقات الاقتصادية وتحول دون تردّيهم في هاوية الفقر — بمعنى ان الفقر هو ان لا يجد المرء قوت يومه — والاسرة — لا الفرد — هي صلة الوصل مع العالم الخارجي ، والافراد يعملون للاسرة ، ويساهمون فيها عملياً ، ويقدمون اليها نتيجة اعمالهم ويتمتعون بخيراتها . ولكن هذا النوع من الاسر صائر الى الانحلال تدريجياً لسببين : لضآلة الدخل الصافي من الزراعة ، ولانتشار وسائل النقل الحديثة التي سهلت لافراد هذه الاسر لتنقل من مكان الى آخر بسرعة وفتحت امامهم ابواباً للرزق جديدة .

طرق المواصلات :

في البلاد اليوم (٢٦٦٠) كيلومتراً من الطرق المعبدة التي تصلح لسير العجلات عليها في جميع ايام السنة ، و (١٥٦٥) كيلومتراً من الطرق الصيفية . وقد كان طول الطرق الصالحة للسير في جميع ايام السنة خلال سنة ١٩٢٦ ستمئة كيلومتر فقط ، وبلغت الطرق الصيفية آنذاك (١٣٥٠) كيلومتراً فقط . لقد كان في فلسطين منذ عهد العرب طرق معبدة تسير عليها العجلات التي تجرها الخيول والثيران ، وتمر منها خيل البريد[١] . وقد احتفظ العرب بالطرق التي خلفها لهم الرومان في البلاد وحسنوها واضافوا اليها طرقاً جديدة معبدة .

---

١ . Historical Geography of the Holy Land, ص ٦٩٧

Digitized by Birzeit University Library

واقام عمال الخلفاء على تلك الطرق علامات للاميال هي اشبه بحجارة الكيلومترات الحديثة ، كتبوا عليها المسافة بين تلك المواقع وعاصمة الملك . واكتشف احد هذه الحجارة عند الخان الاحمر في منتصف الطريق بين القدس واريحا في سنة ١٨٩٤ وقد نقش عليه ما نصه : « عبد الله عبد الملك امير المؤمنين رحمة الله عليه ، من دمشق الى هذا الميل مائة وتسعة اميال[١] . » واكتشف حجر آخر قرب باب الواد في الطريق المؤدية من يافا الى القدس . وقد بلغ طول الطرق المعبدة لجر العجلات في اواخر العهد العثماني حوالي (٦٠٠) كيلومتر وبلغ طول الطرق الثانوية آنذاك حوالي (٦٦٠) كيلومتراً[٢] توصل الى حوالي مائة وسبعين قرية .

اما الطرق الحديثة فتقطع جميع مناطق القرى العربية تقريباً ، وتصل بين المدن وتلك القرى ، فتسير عليها السيارات حاملة السكان ومحصولاتهم الى الاسواق الرئيسية في البلاد .

ويملك العرب اليوم حوالي ٣١٧٠ سيارة ، و ٥٤٠ من سيارات الامنيبوس تسير في جميع نواحي البلاد تقريباً ، وحوالي ٦٩٠ سيارة اجرة تستخدم في المناطق العربية .

وهنالك في المدن والقرى العربية اليوم ٣٣ مكتباً للبريد من مجموع ١٢٧ مكتباً في البلاد وهنالك خمسة مكاتب اخرى للبريد في المدن المختلطة السكان . وفي البلاد حوالي ٢٦٠٤٣ آلة تليفون يستعمل العرب نسبة كبيرة منها .

وليس من شك في ان الطرق الحديثة المعبدة والسيارات والسكك

---

١ . Clermont - Ganneau, Recueil d'Archeologie Orientale ص ٢٠١ .

٢ . Enc. Brit. 14 th ed., 'Palestine'

Digitized by Birzeit University Library

الحديدية والتليفون والبرق والبريد والراديو وغيرها من وسائل النقل والمواصلات السريعة قد رفعت درجة مستوى المعيشة عند العرب . لقد تقدمت الثقافة المادية في هذا البلد بانتشار هذه المعدات بين السكان وتكاد تكون حيازتها اليوم غاية في ذاتها لا وسيلة للعيش الرغيد .

وقد تقدم مستوى المعيشة بين عرب فلسطين بتقدم الوسائل والاعمال الصحية . وكانت الملاريا والتراخوما تفتكان بالسكان فتكا ذريعا . وكان الجدري من الاوبئة الموسمية التي تجتاح المدن والقرى الفينة بعد الفينة . وكانت المستشفيات العامة في البلاد تتألف من المستشفيات التابعة للبلديات المدن الكبيرة ، وكان في الموانىء محاجر صحية تابعة لمجلس الصحة الدولي في استنبول . فجاءت الحكومة الحالية وانشأت دائرة الصحة العامة في سنة ١٩٢٠ ووضعت لها منهاجا يلخص فيما يلي :

١ : ان تحصر جهودها في شؤون الصحة العامة وفي الحيلولة دون انتشار الاوبئة .

٢ : ان توجد مستشفيات لايواء المرضى بامراض سارية او امراض عقلية .

٣ : بشرط ان تحصر مستشفيات الحكومة ، في حالات الامراض العامة ، بموظفي الحكومة ، وافراد قوة البوليس ، والمساجين ، وحالات الطب الشرعي الناشئة عن الحوادث الاجرامية ، والمرضى الفقراء فقراً مدقعا .

٤ : ان توجد ، إما مباشرة او عن طريق البلديات ، في الاماكن التي لا توجد فيها مستشفيات خصوصية ، مستشفيات لايواء المرضى من السكان .

Digitized by Birzeit University Library

وهذا المنهاج ولا شك القى زمام الطبابة والجراحة الى المستشفيات الخصوصية والاطباء الخصوصيين[١] . وقد كان عدد الاطباء في البلاد في سنة ١٩٣٠ بنسبة طبيب واحد في كل ١٣٠٠ نفر من السكان . بيد ان هذه النسبة قد زادت اعتباراً من سنة ١٩٤٠ ، بسبب هجرة الاطباء اليهود الى البلاد ، فاصبحت بمعدل طبيب واحد لكل ٦٦٠ شخصا من السكان . ولكن نسبة الاطباء العرب ما تزال بواقع طبيب عربي واحد في مقابل ٩ من الاطباء اليهود . ويبلغ اليوم عدد الاطباء العرب في البلاد حوالي ٢٤٠ فقط ، ولما كان الرأي الحديث يوجب وجود طبيب واحد لكل الف شخص من السكان فان هنالك حاجة في فلسطين العربية الى ما يقرب من ثمنمئة طبيب عربي آخرين .

وقد حاولت دائرة الصحة العامة تحقيق منهاجها الضيق هذا : فقامت بخدمات جلى في المحافظة على النظافة في المدن القرى وحاربت انتشار الامراض ، وحملت على الملاريا وجففت المستنقعات للقضاء على البعوض وقامت بفحص المواد الغذائية وانشأت مختبراً للفحص الكيماوي واقامت محاجر صحية ودوراً للولادة ومراكز لرعاية الاطفال والاعتناء طبيا بتلامذة المدارس . ولكنها تركت العناية بالمرضى العرب لمستشفيات الارساليات التبشيرية وقد كان منها في البلاد قبل الحرب العالمية الاولى ستة انكليزية ، واربعة افرنسية ، وثلاثة المانية ، واثنان ايطاليان ، واثنان روسيان . ومع ان العرب قد اسسوا حديثا جمعيات لمكافحة مرض السل فليس في البلاد اليوم غير مستشفى خصوصي عربي واحد .

وفي فلسطين العربية اليوم ١٨ مركزاً لرعاية الطفل في المدن و ٢٠ مركزاً في القرى يشترك السكان والحكومة في نفقاتها . وقد انشئت في

---

١ . ص ٦٠٩ A Palestine of Survey, Vol. II

Digitized by Birzeit University Library

القدس دار لتخريج القابلات (الدايات) العربيات وهي تخرج كل سنة خمس عشرة قابلة . ونسبة عـــدد القابلات العربيات في البلاد اليوم هي ١ في كل ٤٠٠٠ نفس من السكان . ومن المؤسف ان يكون الحال على هذا المنوال وان لا تخرج الدار إلا خمس عشرة قابلة في السنة لانه يحتاج الى ثلاثين سنة اخرى ثم قبل أن يصبح عدد القابلات العربيات وافيا بحاجة السكان .

أما اعمال مكافحة الملاريا فهي موجهة الى إبادة البعوض ومعالجة المصابين في المناطق التي يكثر فيها انتشار المرض مجاناً . فتجفف المستنقعات تحت إشراف موظفي دائرة الصحة على ان يقوم بدفع تكاليف العمل اصحاب الارض أو مستأجروها . وقد بلغ عدد الوفيات من الملاريا في سنة ١٩٣٥ ١٧ وفاة ؛ وفي سنة ١٩٣٩، ١٥ وفاة . أما في سنة ١٩٤٢ فقد توفي ثلاثة اشخاص من مجموع ١٧٠٧ إصابات عولجت في المستشفيات ؛ وفي سنة ١٩٤٤ توفي ٣ أشخاص أيضاً من مجموع ١٨٤٧ إصابة عولجت في المستشفيات . وبلغ مجموع الاصابات بالملاريا في تلك السنة ١١٢٠١ إصابة .

إن القرى العربية في البلاد بحاجة ماسة الى الخدمات الطبية ؛ وإن عدد القرى التي يسكنها طبيب عربي واحد او اكثر قليلة جداً ؛ وان عدد القرى التي فيها عيادات طبية اسستها الحكومة او الارساليات ويزورها طبيب مرتين في الشهر أقل . ومن المؤسف حقاً ان يضطر القروي العربي المريض الى قطع عدة كيلومترات مشياً على الاقدام او ممتطياً حماراً حتى يصل الى عيادة طبية . وانك لا تجد الاسعافات الطبية الا في المدن ؛ ولا توجد المستشفيات الا في الكبيرة منها .

ولكي يتعود المجتمع الالتفات الى صحة ابنائه ومراجعة الاطباء والالتجاء الى المستشفيات يجب :

١ — ان يوجد الاطباء والمستشفيات في كل نواحي البلاد .

٢ — وان يكون هدف الاطباء والمستشفيات انسانياً لا تجارياً ،

Digitized by Birzeit University Library

فيقومون بخدماتهم مقابل اتعاب واجور إسمية ، ولكن المجتمع او الحكومة تعوضهم بجعالة تخصصها لهم .

٣ — ان يعلم السكان ان العلاج المبكر هو بمثابة وقاية من المرض وهذا يعني في فلسطين العربية ضرورة انشاء كلية طبية محلية، وعدد من المستشفيات. فهل نحن على استعداد لذلك !

وقد بحثنا حتى الآن في تقدم عرب فلسطين من حيث زيادة المواليد ونقص الوفيات وإطالة العمر والزواج وما الى ذلك وابنا ذلك ديموغرافياً[١] ومن حيث نظام العائلة والخدمات الصحية ، وكل هذه الامور لها أثر في ارتقاء مستوى المعيشة ، والآن سنبحث في نمو الثروة بين العرب .

الثروة الوطنية : تتضمن الثروة الوطنية : (ا) كل الاشياء الملموسة التي تجعل البلد غنيا كالطرق والانهار والموقع الجغرافي والسكان والموانى (ب) وثروة المجتمع العامة وثروة افراده الخاصة منقوصا من ذلك الديون والالتزامات التي تستحق في داخل البلاد ؛ (ج) والخدمات التي يقوم بها سكان البلاد عموما[٢] (كالمصارف والبحارة والمعلمين وربات البيوت من النساء) .

---

١. تعني كلمة ديموغرافيا Demography الاحصاءات المتعلقة بالولادة والوفيات وحالات المرض والزواج والطلاق وما الى ذلك من الامور والاحداث التي تبين حال المجتمع ويطلق على هذه الاحصاءات ايضاً «الاحصاءات الحيوية» Vital Statisics

٢. «تشمل الثروة جميع عناصر الانتاج وعوائدها كما تشمل كل الاشياء التي يمكن تقويمها بما في ذلك الارض وما فيها وما عليها وما حولها ، وكذلك تشمل العمل ورأس المال وما يقوم به المنظم من عمل . فثروة الامة تحتوي على جميع الخدمات وثروات الافراد والجماعات والشركات مضافاً اليها جميع المنافع العامة التي يمكن تقويمها عند مقارنة ثروة دولة بأخرى» . (راجع ثروة الامم — آدم سمث ، — ص ٢٣٨ ج ١ ، عناصر علم الاقتصاد) .

Digitized by Birzeit University Library

وعدد البلدان التي حاولت تقدير ثروتها القومية قليل في العالم، وهذه لا تستطيع ان تدعي بأن تقديرها هو أكثر من تخمين تقريبي لما عليه حال ثروتها. وقد كانت فلسطين في جدول البلدان التي لم تقدر ثروتها الوطنية الى أن صدر تقرير الحكومة في اوائل سنة ١٩٤٦ الموجه الى لجنة التحقيق. فقد حاول هذا التقرير وضع تقدير للثروة الوطنية في فلسطين بقسميها العربي واليهودي. وهذا التقدير لم يشتمل على اراضي البناء والبنايات الواقعة في المدن ولم يشتمل كذلك على الموجودات الثابتة العامة. ولذلك فقد جاء دون الحقيقة. وفيما يلي خلاصة بذلك:

الثروة الوطنية في فلسطين كما في سنة ١٩٤٥

(ولا تدخل فيها الموجودات الحكومية الثابتة)

(وقد قدرت اثمان الاراضي بمعدل اسعار قبل الحرب)

البيان	ثروة يملكها بالمليون جنيه فلسطيني			
	العرب	اليهود	الاخرون الحكومة والجيش	المجموع
الموجودات الاجنبية المتحركة	٣٩،٠٣	٦١،٠٧	١٣،٠٧	١١٤،٠٧
الاراضي الزراعية	٧٤،٠٨	٢٤،٠٣		٩٩،٠١
رأسمال الصناعة	٢،٠١	١٢،٠١	٦،٠٣	٢٠،٠٥
الموجودات التجارية المؤمنة لدى شركات التأمين	٢،٠٠	٩،٠٢	٢،٠٣	١٣،٠٥
السيارات	١،٠٣	١،٠٩		٣،٠٢
الأموال المستثمرة في الزراعة				
البنايات والآلات والادوات والحيوانات الخ	١٣،٠١	١٦،٠٥		٢٩،٠٦
المجموع	١٣٢،٠٦	١٢٥،٠٧	٢٢،٠٣	٢٨٠،٠٦

Digitized by Birzeit University Library

ولما كان هذا التقدير :

١ — لم يشمل اراضي البناء في المدن والابنية القائمة عليها بل اهملها بالكلية ؛

٢ — وقد اعتبر أثمان الاراضي الزراعية على أساس اسعار قبل الحرب واستناداً الى تصنيف الاراضي الزراعية في سنة ١٩٣٥ من اجل وضع الضرائب عليها ؛

٣ — واعتمد على احصاء الحكومة للصناعة في سنة ١٩٤٣ وهذا الاحصاء لم يشمل من الصناعات العربية الا المؤسسات الصناعية الكبرى على ما يظهر؛

٤ — واعتبر اسعار سيارات النقل على اساس اسعار الاستيراد بعد إسقاط استهلاكات مقدرة تتناسب مع مدة خدمة السيارة ؛

٥ — واعتمد في تقدير حيوانات اليهود على الارقام الحقيقية التي اعطتها مؤسسات الاستعمار اليهودي ، بينما قدر قيمة حيوانات العرب على اساس معدل احصاء الخمس القرى العربية الذي اجرته الحكومة ؛

لذلك فقد جاء دون الحقيقة بكثير من حيث تقدير الثروة العربية في البلاد، وقد اجريت تجارب خاصة لتقدير الثروة الحقيقية (باستثناء الممتلكات العامة) فكانت النتيجة — وهي تقريبية أيضاً — كما يلي :

Digitized by Birzeit University Library

البيان	ثروة يملكها بالمليون جنيه			
	العرب	اليهود	الآخرون	المجموع
الموجودات المتحركة	٣٩ر٣	٦١ر٧	١٣ر٧	١١٤ر٧
الاراضي الزراعية	٢٩٩ر٢	٩٧ر٢		٣٩٦ر٤
الاملاك في المدن	١٤٩ر	٥٤ر	—ر١١	٢١٤ر
رأسمال الصناعة	٥ر١	١٢ر١	٦ر٣	٢٣ر٥
الموجودات التجارية المؤمنة لدى شركات التأمين	—ر٢	٩ر٢	٢ر٣	١٣ر٥
السيارات	١ر٩	١ر٩		٣ر٨
الاموال المستثمرة في الزراعة (البنايات والآلات والادوات والحيوانات)	—ر٢١	١٦ر٥		٣٧ر٥
المجموع	٥١٧ر٥	٢٥٢ر٦	٣٣ر٣	٨٠٣ر٤

والذي نرغب في ملاحظته هنا هو ان الثروة الوطنية عند العرب قد نقصت ، بسبب انتقال اراضي زراعية واراضي في المدن منذ الاحتلال الى اليوم بما قيمته مائة وثلاثون مليون جنيه تقريباً وهذا التقدير حسب اسعار الاراضي في الوقت الحاضر .

الدخل الوطني : ولا بد في دراسة مستوى المعيشة من بيان الدخل الوطني في فلسطين العربية . والدخل الوطني يتألف من ، منتجات الارض والطبيعة ورأس المال والعمل والتنظيم ، فيتعاطى المنظم عائده في شكل الربح من الدخل الوطني ، ويتعاطى صاحب الارض الريع ، ويتعاطى العامل اجره والممول فائدة رأسماله ، والدخل الوطني السنوي الصافي يحتوي على جميع السلع والخدمات التي تصل الى المستهلكين مضافاً اليها جميع السلع التي كانت

Digitized by Birzeit University Library

باقية من محاصيل السنوات السابقة بعد خصم ما كان قد خصم من السلع الموجودة فعلا اثناء الناتج السنوي . فالدخل الوطني هو السلع والخدمات التي تستهلك اثناء السنة والتي يكون الغرض منها اشباع حاجات المجتمع اثناء السنة . فلا يشمل الدخل الوطني السلع والخدمات التي يكون الغرض منها اشباع رغبات قادمة أو مستقبلة[١] . وقد قدر احصائي الحكومة (مستر لوفتس) الدخل الوطني لفلسطين في سنة ١٩٤٤ فكان كما يلي :

الدخل الوطني الفريقي السكان في فلسطين الناتج من مصادر الانتاج الرئيسية في سنة ١٩٤٤

البيان	المجموع	العرب والاخرون	اليهود
	بالمليون من الجنيهات		
الزراعة، والحيوانات، ومصايد الاسماك والاحراش	٢٩،٥	٢٠،٤	٩،١
الصناعة والاعمال اليدوية	٢٨،٢	٣،٣	٢٤،٩
البيوت	٦،١	٢،٩	٣،٢
البناء والانشاءآت	٥،٦	٢،٩	٢،٧
وزارة الحرب ، خدمات المدنيين	٣،٩	٢،٧	١،٢
الجنود الفلسطينيون	٢،٣	،٢	٢،١
النقل والمواصلات	٨،٣	٣،٥	٤،٨
التجارة والمالية	١٩،٧	٥،٩	١٣،٨
الحكومة والبلديات	٧،٥	٤،٨	٢،٧
الفنادق والمطاعم والمقاهي	٣،١	١،٠	٢،١
موارد اخرى	٨،٨	٢،٠	٦،٨
المجموع	١٢٣	٤٩،٦	٧٣،٤

١. عناصر علم الاقتصاد . الجزء الاول ، صفحة ٢٣٩ للدكتور لهيطة والاستاذ عليش ، القاهرة سنة ١٩٤٣ .

١. مارشال ، مبادىء علم الاقتصاد .

٢. National Income of Palestine, 1944. (No. 5 of 1646)
By P.T. Loftus.

Digitized by Birzeit University Library

وقد أجري تقدير لدخل العرب في هـذا البلد من الاراضي الزراعية استناداً : الى الإحصاء الذي قامت به الحكومة في خمس قرى عربية خلال سنة ١٩٤٤ (وجميع تلك القرى تعيش على زراعة الحبوب) ؛ والى نتيجة فحص سجلات الضرائب في دوائر المالية لاربع قرى . يتراوح في هذه القرى الاربع معدل الدونمات المتريةبالنسبة لعدد السكان من ٨ر٦ في الخليل الى ١٠ في نابلس و ١١ر٨ في جنين و ١٤ر٢ في رام الله ، ومعدلها العام هو ١٠ر٨ دونمات لهذه القرى الاربع مقابل معدل هو ١٠ر٣ لكل شخص في القرى الخمس . وقد اعتبر هذا الرقم معدلا ينطبق على جميع ممتلكات العرب الزراعية في البلاد .

وقد تبين ان معدل عدد افراد كل عائلة قروية هو ٦ر١ شخصاً وعلى ذلك فان معدل ما تفلحه العائلة من الدونمات هو حوالي ٦٣ دونماً متريا (بواقع الف متر مربع للدونم الواحد) ، وقد بلغت تكاليف فلاحة ٣٠٦٧٩ دونماً ، وهي مجموع مساحة أراضي القرى الخمس كما يلي :

	دونم		
مجموع الاراضي المفتلحة بالدونمات المترية	٣٠٦٧٩		
الواردات القائمة من الفلاحة		٦٧٩٦٢	جنيه فلسطيني
مجموع النفقات		١٦٦٩٣	جنيه فلسطيني
الواردات الصافية من الفلاحة		٥١٢٦٩	جنيه فلسطيني
الواردات القائمة من كل دونم		٢٢١٥	مل
الواردات الصافية من كل دونم		١٦٧١	مل

ولم تدخل من اجور الارض في النفقات الا الاجور المدفوعة للاوقاف والاديرة والملاكين من سكان المدن . ولم تدخل كذلك واردات الصناعات

Digitized by Birzeit University Library

الزراعية كتدجين الحيوانات وتربية النحل والطيور وما الى ذلك ، وأيضاً لم تدخل واردات التجار والعمال القرويين الذين يعملون في غير الزراعة. وقد قدرت هذه الواردات واضيفت الى الدخل فكانت النتيجة كما يلي :

الدخل الصافي من الصناعات الزراعية للقرى العربية

	جنيه	جنيه	جنيه
زراعة الحبوب	٤٩٧٨٦		
يضاف الى ذلك اجور العمال المستأجرين من خارج القرية	١٤٩٥	٥١٢٨١	
تربية الحيوانات		٦٦١٤	
الخراف والماعز		٣٦٨٦	
الطيور الدواجن		٣٠٥٨	
تربية النحل		١١٠٩	٦٥٧٤٨
الدخل الصافي من غير الزراعة			
التجارة وتعاطي الحرف		٥٠٩٨	
العمل في غير الزراعة		٢١٨٤	
الاستخدام في مخيمات الجنود		٨٨٦٧	١٦١٤٩
			٨١٨٩٧

ان مجموع عدد الاسر في القرى الخمس كان (٤٨٧) أسرة ، ومجموع دخلها ٨١٨٩٧ جنيهاً أي بواقع ١٦٨ جنيهاً للاسرة الواحدة . وقد اشتملت هذه الـ ٤٨٧ اسرة على المزارعين وغير المزارعين من سكان القرية . بيد ان هذا الدخل هو مضخم بمقدار $\frac{٢٤٢}{١٠٠}$ ٪ ذلك لان جدول الاسعار القياسية بلغ ٢٤٢ في التاريخ الذي قدر فيه هذا الدخل بـ ١٦٨ جنيهاً.

Digitized by Birzeit University Library

ويجدر بنا هنا ان نشير الى بحث أقل مساحة من الارض[١] تكفي لاعالة الاسرة العربية الواحدة من التي تعيش على الزراعة في فلسطين . لقد قدرت لجنة شو ان الاسرة العربية الزراعية تحتاج في معيشتها الى مساحة تتراوح بين ١٠٠ الى ١٥٠ دونماً ، وقدر السير جون هوب سمبسون ان الحد الادنى للمعيشة في الاراضي البعل هو ١٣٠ دونماً ، إلا اذا اقتنى المزارعون ابقاراً هولندية للحليب او ما شابهها، فيمكن عندئذ تخفيض ذلك الحد الى ١٠٠ دونم . اما في اراضي السقي، وعند الاسر التي تملك ابقاراً للحليب، يمكن خفض هذا الحد الادنى الى ٤٠ دونماً نصفها تحت الماء ، وفي حالة الاراضي المشجرة باشجار البرتقال والموز يقدر هذا الحد الادنى من ١٥ الى ٢٠ دونماً[٢]

---

١. Lot Viable

٢. قدرت لجنة التقسيم الحد الادنى من الارض الضروري لمعيشة الاسرة المؤلفة ٦،٧ شخصاً ، خمسة منهم يعملون في الزراعة و ١٠٧ يشتغلون في اعمال اخرى على الوجه التالي : —

نوع الارض	دونم	نوع الارض	دونم
بيارات الحمضيات	١٠	اراضي الحبوب من الدرجة	١٠٠
بساتين الموز	١٠	الثانية والسقي والفواكه من	
اراضي السقي والفواكه من	٥٠	الدرجة السادسة	
الدرجة الاولى		الدرجة الثالثة من اراضي الحبوب	١١١
اراضي السقي والفواكه	٥٧	الدرجة الرابعة من اراضي الحبوب	١٣٣
من الدرجة الثانية		الدرجة الخامسة من اراضي الحبوب	١٦٧
اراضي السقي من الدرجة	٦٧	الدرجة السادسة من اراضي الحبوب	٢٥٠
الثالثة		الدرجة السابعة من اراضي الحبوب	٤٠٠
اراضي الحبوب من الدرجة	٨٠	الدرجة الثامنة من اراضي الحبوب	٤٠٠
الاولى والسقي والفواكه من		الاحراش	٤٠٠
الدرجة الرابعة			

Digitized by Birzeit University Library

المساكن : لعل من التقاليد العزيزة في هذا البلد، تلك التي تحتم على كل اسرة غنية او فقيرة ان تتملك بيتاً لسكناها؛ والعادة والتعامل الطويل هما اللذان ثبتا هذه التقاليد وجعلا السكان يراعونها ويشعرون بالطمأنينة والراحة من جراء ذلك. وقد غالى البعض من السكان في تمسكهم بهذا المبدأ فجعلوه من ضمن مؤهلات الكفاءة في الزواج لمن يخطبون بناتهم؛ وانك لتجد اليوم امنية الكثيرين من سكان المدن ان يتملكوا لهم داراً [١] او منزلا او بيتاً يقيمون فيه. فالتاجر يقتطع جزءاً من رأسماله ويشتري له داراً يقيم فيها، والعامل تدفعه غريزة حب التملك الى ادخار جزء من دخله ليشتري به لنفسه بيتاً يؤويه.

والمساكن في فلسطين على نوعين: المساكن القروية، ومساكن المدن.

المساكن القروية : وهي على نوعين المساكن التي في داخل القرية، والمساكن التي تقام في البساتين وبيارات البرتقال. فاما المساكن التي في القرى فتبنى على الغالب متلاصقة. ويتألف البيت القروي عادة من اربع حيطان غليظة من الحجارة والجير والتراب له منفذ واحد للباب وآخر شباك. ويختلف طراز البناء باختلاف الموقع، ففي الجبال حيث تكثر الحجارة وتقل الاخشاب تبنى البيوت من الحجارة وتسقف بها على شكل قباب تعرف بالعقود العربية، ولا يقل عرض الحائط فيها عادة عن المتر الواحد. ويقسم داخل البيت الى قسمين: قسم مرتفع يشغل حوالي ثلاثة ارباع مساحة البيت

---

١. قسم الفقهاء المساكن الى ثلاثة انواع:

ا) الدار، وهي اسم الساحة أُدير عليها الحدود وتشتمل على بيوت واصطبل وصحن غير مسقف وعلو فيجمع فيها بين الصحن للاستراحة ومنافع الابنية للاسكان.

ب) البيت اسم لمسقف واحد جعل لبيات فيه، عليه باب.

ج) المنزل فوق البيت ودون الدار، وهو اسم لمكان يشتمل على بيتين أو ثلاثة ينزل فيها ليلا ونهاراً وله مطبخ وموضع قضاء الحاجة.

انظر حاشية ابن عابدين، ج ٤، باب الحقوق.

وانظر الفتاوي الهندية، ج ٣، باب البيع.

Digitized by Birzeit University Library

يسمى « المصطبة » وقسم سفلي قرب الباب يستعمل اصطبلا للحيوانات . وفي القرى الواقعة في جنوب السهل الساحلي تبنى البيوت من اللبن وتسقف بالاخشاب . اما في القرى الواقعة الى الشمال من السهل الساحلي فتبنى بيوتها من الطوب المعمول من الاسمنت ، وتسقف بالحديد والاسمنت .

وهذه البيوت جميعها خالية من جميع التوابع المادية ، والمرافق الصحية ووسائل الراحة الحديثة ، فليست فيها مياه جارية في الانابيب ، وليس فيها حمامات ، او كهرباء للنور والتدفئة . او بيوت خلاء داخلية . وقد توجد بيوت الخلاء الخارجية في بعض القرى إلا أن نسبة وجودها تقل عن ٣٪ من مجموع البيوت القروية في البلاد .

أما المساكن التي تقام في البساتين وبيارات البرتقال فهي تشبه دور المدن ، وتبنى من الحجر او الطوب المعمول من الاسمنت وتسقف بالحديد والاسمنت ، ويكون سطحها بعضاً من الآجر . وهذه الدور نظراً لانفرادها وعزلها في مساحة شاسعة هي من حسنات المدنية الحديثة . وتتألف الدار عادة من اربع غرف ، الاولى لرب العائلة وزوجه ، والثانية لأكبر انجاله وزوجه ، والثالثة لبقية الاولاد والرابعة للخدم . ويقام مطبخ الدار عادة في الساحة الخارجية المسكشوفة التي تعرف باسم (حوش) .

وسكان القرى في فلسطين عموماً يقضون أكثر من نصف السنة خارج البيوت ، ففي الربيع يقيمون في المرابع في بيوت الشعر او الكهوف مع حيواناتهم ، وفي الصيف يعيشون في بساتينهم وكرومهم . وبذلك يتعرضون دائماً للهواء الطلق ويبتعدون عن أماكن الأوبئة والحميات ولولا ذلك لاعتبرت جل القرى العربية مناطق حقيرة لا تصلح لسكنى الانسان .

مساكن المدن : ان المساكن في مدن فلسطين هي على نوعين : المساكن الحديثة ، والمساكن القديمة . فاما المساكن الحديثة فهي التي انشئت خلال الاربعين سنة الاخيرة . وتقع على الغالب خارج مناطق المدن القديمة واسوارها ، وهي مبنية « على طراز طلياني في الاكثر قد لا يتفق مع روح

Digitized by Birzeit University Library

البلاد ومصطلحها في إشادة البيوت منذ القرون الاولى » . وقد انتشر هذا الطراز منذ اواخر القرن الماضي واستمر الى اليوم. والبناء في المدن الساحلية من الطوب والاسمنت المسلح . وفي المدن الجبلية من الحجر الصلب الذي يشبه الرخام في لألائه . وتتوفر في المساكن جميع وسائل الراحة ومستلزماتها ففيها المياه الجارية في الانابيب ، وفيها الحمامات وبيوت الخلاء المنشأة على الطراز الحديث ؛ وفيها القوة الكهربائية تستعمل للنور والتدفئة . ويدخلها الهواء والنور وتطهرها الشمس طوال ايام السنة .

أما المساكن القديمة فتكاد تكون اغلبيتها في المدن الفلسطينية مناطق (حقيرة) والمناطق الحقيرة ، في علم الاجتماع الحديث، تتألف من الاماكن المكتظة بالسكان والبيوت الرديئة البنيان، التي لا تدخلها الشمس ولذلك فهي مظلمة في النهار، وليس لها نوافذ صحية يتخللها الهواء منها ، ولا مياه جارية فيها، وليست لها مرافق أو بيوت خلاء ذات مجار صحية حديثة ، وليس فيها قوة كهربائية، والطرق التي تؤدي اليها غير معبدة وليست فيها حمامات . وعلى الجملة ان المناطق الحقيرة هي التي تنقصها جميع مستلزمات ووسائل الراحة المادية والمرافق الصحية الحديثة وتسكن هذه المناطق عادة الطبقات الدنيا من السكان. على انه قد تكون مساكن صالحة للسكن فيها جميع المعدات المادية واقعة في منطقة حقيرة كما هي الحال في المدينة القديمة بالقدس مثلاً، إذ نجد في بعض الاحياء مساكن على الطراز الحديث اقيمت على انقاض مساكن قديمة ، وفيها جميع مستلزمات ومرافق الراحة المادية الحديثة . ويستنتج علماء الاجتماع من وجود مناطق سكن حقيرة في بلد ما ، الى جانب المساكن الصالحة . ان مستوى المعيشة في ذلك البلد ما يزال متأخراً نسبياً . ولا يزال في المدن الفلسطينية مناطق حقيرة . وقد قامت دائرة الشؤون الاجتماعية باحصائها في تقريرها [١] واليك بعض ما جاء فيه [٢] :

---

١. A Palestine Survey, Vol. II. Pages 691-696

٢. Slum areas

Digitized by Birzeit University Library

إن الاماكن الواردة في البيانات التالية لا يمكن اعتبارها جميعاً مناطق حقيرة بالكلية ، وانما هي في الواقع مناطق يقع فيها اكبر عدد من المساكن الرديئة غير الصحية ، ويسكنها اناس من الطبقات ذات الدخل القليل جداً. وهذه الطبقات تعيش في المدن الفلسطينية، (كما تعيش الطبقات المماثلة لها في الخارج)، في المناطق الحقيرة المكتظة بهم . وفيما يلي بيان بالمناطق الحقيرة وبعدد سكانها في المدن العربية الرئيسية في البلاد .

المناطق الحقيرة في القسم العربي من القدس

الموقع	المساحة التي اقيمت عليها الابنية بالدونم	عدد السكان في آخر سنة ١٩٤٥	كثافة السكان في كل دونم
١ المدينة القديمة	٥٠٠	٢٧٦٠٠	٥٥،٢
٢ المصرارة	٧٥	٣٣٠٠	٤٤،٠
٣ دير ابي ثور	٥٥	١٣٠٠	٢٣،٦
٤ جورة العناب	٨	٦٠٠	٧٥،٠
٥ الشماعة	١٣	٨٠٠	٦١،٥
المجموع	٦٥١	٣٣٦٠٠	٥١،٦

وقد قدر عدد سكان القدس العرب في نهاية سنة ١٩٤٥ بخمسين الفاً ؛ وقدر عدد المسيحيين الاجانب بثلاثة عشر الفاً . ويتضح من البيان السابق ان ٦٧ ٪ من مجموع سكان القدس العرب يعيشون اليوم في مناطق حقيرة فماذا عمل الانتداب لاصلاح هذه المناطق واغاثة اهلها ؟ ان مدينة القدس القديمة الواقعة داخل السور الحالي هي خير مثل على المناطق الحقيرة في فلسطين العربية ، فالابنية فيها مكتظة ومتلاصقة ، والبيوت على الغالب أشبه بالكهوف ، وليس فيها من وسائل الراحة والصحة ما يؤهلها لسكنى الانسان في القرن العشرين . وابنيتها خربة قليلة النوافذ ولا تدخلها الشمس . ومع ذلك فما يزال ٢٧٦٠٠ شخصاً يقيمون فيها . على ان هنالك بعض بيوت في

Digitized by Birzeit University Library

هذه المنطقة الحقيرة هي في الواقع غير حقيرة ولكن ليس بوسعنا وبمعرفتنا الحاضرة ان نعين مساحتها وعدد سكانها .

المناطق الحقيرة في يافا

الموقع	المساحة المقامة الابنية عليها بالدونم	عدد السكان في آخر سنة ١٩٤٥			كثافة السكان في كل دونم
		العرب	اليهود	المجموع	
(١) المنشية	٣٥٢	١٩٨٠٠	٩٠٠٠	٢٨٨٠٠	٨١،٨
(٢) ارشيد	٦٨	٥٨٠٠	—	٥٨٠٠	٨٥،٣
(٣) المسلخ الغربي	١٥	١٤٠٠	—	١٤٠٠	٩٣،٣
(٤) البلدة القديمة	١٢٠	٦٨٠٠	—	٦٨٠٠	٥٦،٧
(٥) بركة قمر	٩٥	٧٢٠٠	—	٧٢٠٠	٧٥،٨
(٦) الجبالية الجنوبية	٣٦	٤٠٠٠	—	٤٠٠٠	١١١،١
(٧) ابو كبير	٥٨	٥٤٠٠	—	٥٤٠٠	٩٣،١
(٨) شيرا	٢٥٠	—	٩٠٠٠	٩٠٠٠	٣٦،٠
المجموع	٩٩٤	٥٠٤٠٠	١٨٠٠٠	٦٨٤٠٠	٦٨،٨

وقد بلغ عدد سكان يافا في آخر سنة ١٩٤٥ حسب التقدير ١٠٤٠٠٠ نسمة ، (٧٢٠٠٠ من العرب و ٣٢٠٠٠ من اليهود) . ويظهر من هذا البيان ان ٧٠ ٪ من سكان يافا العرب و ٥٦ ٪ من سكانها اليهود يقيمون في مناطق حقيرة ، وعلى ذلك يكون اكبر عدد من سكان المناطق الحقيرة في المدن الفلسطينية يقيمون في يافا . وليست في المدينة — باستثناء بعض المناطق — ساحات مكشوفة او بيوت حديثة ينقل اليها سكان الاحياء الواردة في هذا البيان . وقد نتجت كثافة السكان العالية عن سكنى اربعة او خمسة اشخاص في الغرفة الواحدة ، وعن قلة الدور التي تتألف من اكثر من طبقتين ، وعن ضيق المساحة المتروكة للممرات والشوارع . وقد وجد دونم واحد في محلة المنشية فيه ٣٤ غرفة تشغلها ٣٣ عائلة مجموع عدد افرادها ١٥١ شخصاً .

Digitized by Birzeit University Library

ووجد دونم آخر في محلة ارشيد القريبة من شاطئ البحر فيه ٣٩ غرفة تسكنها ٣٤ عائلة مجموع عدد افرادها ١٧٣ شخصاً . والدور في كلتا المحلتين تتألف عادة من طبقة واحدة وقد شعثها مرور الزمان والاهمال .

المناطق الحقيرة في حيفا

الموقع	المساحة المقامة الابنية عليها بالدونم	عدد السكان في آخر سنة ١٩٤٥			كثافة السكان في الدونم الواحد
		العرب	اليهود	المجموع	
(١) حيفا العتيقة	١١٠	٢٠٠٠	١٥٠	٢١٥٠	١٩،٥
(٢) وادي النسناس	٩٠	٢٠٠٠	١٠٠	٢١٠٠	٢٣٣
(٣) البلدة القديمة	٢٤٠	١٠٠٠٠	٢٠٠	١٠٢٠٠	٤٢،٥
(٤) وادي الصليب	١٧٠	٥٠٠٠	٧٥٠	٥٧٥٠	٣٣،٨
(٥) ارض اليهود	١٣٥	٥٠٠٠	٢٠٠٠	٧٠٠٠	٥١،٩
(٦) وادي رشميا	١٥٠	٣٠٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠	٢٣،٣
المجموع	٨٩٥	٢٧٠٠٠	٣٧٠٠	٣٠٧٠٠	٣٤،٣

وقد بلغ في اواخر سنة ١٩٤٥ عدد سكان حيفا ١٣٢٠٠٠ نسمة ، منهم ٦٦٠٠٠ عرب ومثلهم من اليهود.(يدخل فيهم سكان المستعمرات المجاورة الذين اتخذوا لهم مساكن موقتة في حيفا ويتبين من الجدول السابق ان ٤١ ٪ من العرب و ٥،٤ ٪ من اليهود يعيشون في المناطق الحقيرة من حيفا. ويعيش في الكهوف من سكان حيفا العرب اليوم حوالي الفي شخص بواقع ثلاث أو اربع عائلات عمالية في الكهف الواحد . وحال هؤلاء السكان محتملة في أيام الصيف لانهم يبيتون فى الخيام أو في العراء ، ولكنها تصبح مؤلمة في فصل الشتاء . فما الذي قدمه الانتداب لهم ؟ ونجد في حيفا أيضاً بيوتاً مقامة من صفائح البترول يسكنها فريق من العمال العرب . وليس في هذه البيوت وسائل ومرافق للراحة من أي نوع قديم أو حديث، وجلي ان وجود المناطق الحقيرة في حيفا ليس ناتجاً عن اكتظاظ السكان في صعيد واحد بقدر ما هو ناتج عن انعدام المرافق الصحية الحديثة .

Digitized by Birzeit University Library

هذه امثلة على المناطق الحقيرة في المدن العربية الرئيسية في البلاد ، وتوجد مثل هذه المناطق أيضاً في المدن العربية الاخرى. فمدينة الخليل القديمة تكاد تكون كلها مناطق حقيرة. وفي غزة ونابلس والرملة توجد البيوت والمنازل الرديئة بعدد وافر. وفي اللدوجنين مناطق حقيرة، فيها مساكن خالية من الوسائل الصحية ومرافق الراحة الحديثة وهي غاصة بالسكان الى حد كبير . وليس من شك في ان وجود هذه المناطق الحقيرة يحط من درجة مستوى المعيشة عند العرب . ولم يقم المسؤولون الى اليوم بعمل ما لتطهير هذه المناطق . ولم يقوموا على الاقل بايجاد منتزهات في هذه المناطق تعتبر (رئات) لها ، تطهر الهواء باشجارها وتزود الصبيان بمستراض يلعبون فيه وتغذو العين بمناظر أزهارها الممتعة [١] . ولولا أن ساحة الحرم الشريف بالقدس يلعب فيها صبيان المدينة القديمة لما نجا منهم الا العدد القليل من الامراض المختلفة .

الصحافة : لا شك ان للصحافة تأثيراً اجتماعياً على السكان ، ولذلك فهي تعتبر من العوامل التي يحسب حسابها عند تقدير مستوى المعيشة . والصحافة العربية في هذا البلد تقوم بخمس وظائف للمجتمع :

اولا : تنشر اخبار اليوم بشكل تفهمه الخاصة والعامة .

ثانياً : تزدو القراء بمواد للتسلية .

ثالثا : ما تزال الصحافة العربية في هذا البلد منذ الاحتلال ، ولا سيما إبان الازمات السياسية — (ولم تخل فلسطين في السنين الاخيرة

---

١. تعتبر منتزهات لندن رئات لها ، وهي اغنى بلاد العالم بهذه المنتزهات ففيها ١١٧ منتزهاً مساحتها ٥١٨٣ فداناً انكليزياً. وتنفق بلديتها على صيانتها واستصلاحها ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً (الهلال ، عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤) .

Digitized by Birzeit University Library

يوماً منها) — تبين للقراء آراءها وآراء الوطنيين صريحة وترشدهم الى ما فيه مصلحة الامة والوطن .

رابعاً : تقوم الصحافة العربية في فلسطين، بواسطة ما تنشره من الاعلانات، بارشاد السكان الى المأكل والملبس الموجود في الاسواق والى المخترعات الحديثة ليستفيدوا منها .

خامساً : تثقف الصحافة العربية قراءها بنشرها أحدث الابحاث العلمية والفنية .

وفي فلسطين العربية اليوم اربع صحف يومية هي :

جريدة الدفاع . وتوزع حوالي ١٣٠٠٠ عدد يومياً « وتعتبر اول جريدة اسلامية في فلسطين من حيث سعة انتشارها وتأثيرها . وقد بدأت حياتها في سنة ١٩٣٤ كجريدة حرة وبدت خلال السنوات الاخيرة مستقلة الرأي في معالجتها للحزبية المحليـــة وتطورت خطتها فأصبحت جريدة يومية قومية مستقلة الرأي تسير في عملها على غرار جريدة الاهرام في القاهرة » .

جريدة فلسطين : وتوزع حوالي ٨٠٠٠ عـدد يومياً ، وقد اسست إبان العهـــد العثماني ، وعرفت منذ ذلك الحين بعدائها للصهيونيين . « وخطتها استقلال الرأي في معالجة المسائل الحزبية في البلد ، وخدمة الرأي العام ونشر الشعور القومي بين السكان» .

جريدة الوحدة : وقد كانت اسبوعية خلال السنة الاولى من حياتها ، سنة ١٩٤٥ ، ثم صدرت يومية في سنة ١٩٤٦ ، وهي توزع اليوم ستة آلاف عدد و « تنطق بلسان الزعامة الامينة وتنشر آراء الشباب المثقف وتوجه الامة الى التمسك بالاهداف الوطنية . »

وجريدة الصراط المستقيم ، وهي ايضاً جريدة يوميـــة سياسية دينية ادبية اقتصادية .

Digitized by Birzeit University Library

وهنالك جرائد اخرى تصدر في الاسبوع او في الاسبوعين مرة واحدة، منها : الغد ــ لسان حال رابطة المثقفين العرب ، والهدف ، وهي اجتماعية اقتصادية سياسية . والانحاد ، لسان حال جمعيات العمال العرب، والجيل وهي سياسية ادبية ، والمهماز ، وهي سياسية اقتصادية يسارية .

والمنتدى ، ويصدرها قلم المطبوعات التابع للحكومة .

والمستقبل ، وهي سياسية اجتماعية اقتصادية ، ادبية .

والمجلة الطبية العربية ، وتصدرها جمعية الاطباء العرب في فلسطين باللغتين العربية والانكليزية .

والصحافة العربية في فلسطين تخدم الاهداف القومية والمصلحة العربية بوجه عام ، وتصل اليومية منها قبل الظهيرة من كل يوم الى قرائها في المدن والقرى في جميع انحاء البلاد . وتكاد جميعها تتحرى الصدق في اخبارها جهد الامكان، بالرغم من ان الصدق والاخبار الصحافية عادة لا يتزاوجان، ذلك لانه من الصعب على المخبر الصحفي ان يقع على الحادث كاملا قبل نشره لاول مرة . والاخبار في عرف الصحافة العربية هي كل امر وقع أو حادث ظهر منذ ظهور عدد الجريدة السابق، يهم جمهرة القراء ويلتذ عدد منهم بقراءته.

النظام القضائي : وهنالك مسألتان أخريان تدخلان في تقدير مستوى المعيشة: النظام القضائي ، والتعليم . فأما النظام القضائي فلا يعتبر في فلسطين مقياساً لمستوى المعيشة بخلاف غيرها من البلدان . فالقانون المدني في العالم المتمدن يستنبط من عادات السكان وتسن مواده على أساس العرف العام الجاري التعامل به بين الناس . والقانون الجزائي تحتاط مواده للمعاقبة على الجرائم التي يتكرر حدوثها في البلد . أما في فلسطين فان القانون المدني القديم تكاد تمحى آخر آثار له من الوجود ، وقد استبدلت مواده بقوانين اقتبست من انكلترا وبقية انحاء الامبراطورية البريطانية وكلها لا يمت الى عادات البلاد وعرف

Digitized by Birzeit University Library

السكان بصلة ما . والقانون الجزائي اقتبس من القانون الانكليزي ودراسته تدل على مستوى المعيشة عند الانكليز لا عند عرب فلسطين . وعلى المحاكم في فلسطين ان تهتم بالشكل والاصول اهتمامها بالموضوع ، بل إن الكثير من القضايا الهامة تقرر على أساس الشكل قبل الدخول في الموضوع . واصول المحاكمات معقد جداً ومخالفة العمل باحدى مواده تكفي لان تخسر المدعي دعواه[١]

التعليم : أما مسألة التعليم بين العرب في فلسطين فقد وصفته اللجنة الملكية في تقريرها الصادر في سنة ١٩٣٧ (الفصل السادس عشر صفحة ٤٤٢–٤٥١) قالت :

« ان العرب ذوو رغبة شديدة في التعليم وقد تشدد الشهود العرب في اظهار هذه الرغبة واقناعنا بها ، وتبدث لنا من عدد الطلبات التي تقدم كل سنة للالتحاق بمدارس المدن والقرى على ان العرب لم يتمكنوا من تحقيق هذه الرغبة، والسبب في ذلك ان مواردهم محدودة وبالرغم من ان العرب تمكنوا من انشاء بضع مدارس والانفاق عليها من الاموال العربية كالمدارس الثانوية الموجودة في القدس ونابلس وبير زيت إلا أن تبعة مدهم بالتسهيلات التعليمية تقع على عاتق الحكومة بالاكثر ، ودائرة المعارف كان يعوزها المال دائماً لسوء الحظ . وقد اقترحت في اوائل عهد الحكومة المدنية خطة واسعة النطاق

---

١. تنص المادة ٧ (ا) (ج) من اصول المحاكمات الحقوقية لسنة ١٩٣٨ على وجوب بيان « اسم المدعى عليه ووصفه ومحل اقامته على قدر ما يمكن التثبت من ذلك » في لائحة الدعوى ، وتنص المادة ٣١٤ (ب) من هذا الاصول على وجوب تضمين لائحة الاستئناف « اسم المستأنف عليه وعنوانه ومهنته ان كانت معلومة . »

وقد حدث ان ردت قضايا كثيرة بسبب اهمال بيان وصف ومحل اقامة المدعى عليهم او المستأنف عليهم . مثال ذلك (استئناف حقوق) ١٩٤٠/٧٢ فقد كان من جملة أسباب رد الاستئناف فيها ان وصف ومحل اقامة المستأنف عليهم لم تذكر في لائحة الاستئناف.

Digitized by Birzeit University Library

ترمي الى تعميم المدارس الابتدائية في جميع المناطق العربية على ان هذه الخطة لم تلبث ان اوقفت بسبب قلة المال ، وفي سنة ١٩٣٣ اقترحت خطة شبيهة بتلك كان الغرض منها رفع مستوى نظام المعارف العربي وهنا ايضاً حالت الصعوبات المالية دون تنفيذ هذه الخطة بحذافيرها وأدت الى احداث تعديل فيها ومن الجهة الاخرى فان التبعات الملقاة على عاتق الحكومة بازاء الامن العام لا تزيد الامل بتحسين مستوى التعليم . ومن أشد دواعي الاسف ان لا يكون في مقدور نظام الحكومة بعد مرور سبع عشرة سنة على حكم الانتداب (بعد مرور ست وعشرين سنة الآن) ان يسد الا نصف حاجة العرب الى التعليم فان نحواً من خمسين في المائة من طلبات الالتحاق بالمدارس في السنين الاخيرة في المناطق التي توجد فيها مدارس قد رفضت بسبب قلة المعلمين وعدم وجود اماكن للتلامذة فضلا عن عدم سد الحاجة للتعليم بالمرة في المناطق التي لم تنشأ فيها حتى الآن بنايات للمدارس على مسافة قريبة نوعاً ما بعضها من بعض . ومن بين الاولاد الذين هم في سن التعليم ويقدر عددهم بما يقرب من ٢٦٠٧٠٠ ولد ، يتعلم في مدارس الحكومة الآن ٤٢٧٠٠ ولد فقط (وقد بلغ في سنة ١٩٤٦ عدد الذين هم في سن التعليم ٣٠٠٠٠٠ ولد ، ادخل منهم الى المدارس فقط ٣٢ ½ ٪) ولقد قدر شهود العرب ان نحواً من ٨٥ ٪ من الفلاحين لا يزالون اميين . ومما يجعل هذا الامر أشد ايلاماً ان قسماً كبيراً من القرى العربية يرغب في التبرع بالمال لانشاء المدارس في القرى اذا قامت الحكومة بنصيبها من ذلك . ولقد كانت قلة المدارس وعدم كفايتها من النقاط الشديدة في الدعاية التي اقيمت ضد بريطانيا في فلسطين اثناء الازمة الحبشية .

وبالرغم من ان النقطة الرئيسية التي تدور حولها مطالب العرب هي انشاء المدارس الابتدائية فان نظام المدارس الثانوية غير كاف حتى انه لا يتسع

Digitized by Birzeit University Library

للعدد المحدود الذي تخرجه المدارس الابتدائية . فالكلية العربية هي المؤسسة الوحيدة التي يتلقى فيها الطلاب دراسة ثانوية كاملة في حين ان بعض المدارس في المدن فيها صفوف ثانوية . وهنالك ايضاً بضع مدارس صناعية كمدرسة الحكومة الصناعية في حيفا والكلية الزراعية التي انشئت من هبة خضوري في طولكرم وغايتها تخريج طلاب من العرب ملمين بالشؤون الزراعية ، وهذه المدارس على قلتها تدرس قسما من التعليم الثانوي وما يتلوه .

ويتراءى لنا ان الحكومة كانت لسوء الحظ غير قادرة ان تعمل للمعارف اكثر مما عملته ، فان النصيب الذي احرزته المعارف لم يكن ضئيلا فحسب بل كان معدله السنوي آخذاً في الهبوط منذ سنة ١٩٣٣ ، وان هنالك أعمالا أخرى تستلزم نفقات باهظة ، وفي طليعتها الامن العام مما اضطر الحكومة الى ارصاد مخصصات لها في ميزانيتها إلا انه لا يسعنا إلا ان نرى انه لو احلت مطاليب المعارف المحل الذي تستحقه من العناية والاعتبار لكان المال قد تدبر بطريقة من الطرق ، فالتعليم يجب ان لا ينظر الى اهميته الذاتية من حيث هو تعلم فقط ، إذ ان ما يبذل من الجهد لتحسين حالة الفلاحين المادية ، كتعليمهم مثلاً أساليب الزراعة الحديثة لن يقيض له النجاح الا إذا كانوا قد ضربوا بسهم وافر من التربية العقلية بحيث يصبح في وسعهم الانتفاع من التعليم الفني .

وقد قال لنا الدكتور خليل طوطح ، الذي ادلى بشهاداته عن المعارف بالنيابة عن اللجنة العربية العليا : من الظاهر للعيان ان حكومة الانتداب ليست مهتمة بمعارف العرب كما يتبدى ذلك من المبلغ الضئيل المخجل الذي ينفق في سبيل المعارف اذا قوبل مثلا بالعراق العربي الحر الذي انفق على معارفه في سنة ١٩٣٣—١٩٣٤ عشرة في المائة من مجموع ميزانيته . ان الحكومة الوطنية لها نظرة الى الاولاد تختلف عن نظرة سواها وهي تهتم اهتماماً أشد . وانحى الدكتور طوطح باللائمة على المراقبة الرسمية للكتب المدرسية وعلى تثبيط اظهار العاطفة الوطنية ، وعدم تعضيد الثقافة الاهلية او المحلية . قال :

Digitized by Birzeit University Library

والظاهر ان التعليم عند العرب إما ان يقصد به حمل الشعب العربي على الرضى عن هذه السياسة (سياسة انشاء الوطن القومي) او جعله غير مصطبغ بأية صبغة بحيث يصبح عديم الضرر ولا يكون منه خطر على تنفيذ سياسة الحكومة هذه.

وأنت ترى مما تقدم ان اللجنة الملكية — مع ما اظهرته من تحيز ضد العرب — لم تستطع ان تخفي تألمها من حرمانهم حقهم الطبيعي في تعليم اولادهم وعزت ذلك الى قلة المال المتبقى من ميزانية الحكومة بعدما تنفقه منها على الامن العام والاحوال الاخرى التي اوجدتها في البلاد سياسة الانتداب واقامة وطن قومي يهودي في هذا القطر العربي رغم ارادة أهله.

وفيما يلي جدول يبين مقدار الاموال التي انفقت على المعارف في فلسطين ونسبتها الى الميزانية العامة من ١٩٢٦/١٩٢٧ لغاية ١٩٤٤/١٩٤٥

السنة المالية	مجموع النفقات المدرجة في الميزانية	نفقات ادارة المعارف	نسبة نفقات المعارف الى المجموع
	جنيه فلسطيني	جنيه فلسطيني	
٢٧/١٩٢٦	٢٠٧٠٤٧٩	١١٣٨٩٠	٥,٥٠ ٪
١٩٢٧ اول ابريل لغاية ديسمبر	١٩٤٤٣٩٧	١٠٠٠٣٩	٥,١٤ ٪
١٩٢٨	٣٣٨١٩٩٣	١٣٧١١٥	٤,٠٥ ٪
١٩٢٩	٢١٤٠٠٣٢	١٣٩٧٨٩	٦,٥٣ ٪
١٩٣٠	٢٥٣٦٥٠٥	١٤٣٥٥٥	٥,٦٦ ٪
١٩٣١	٢٣٧٤٨٦٦	١٤٦٩٨٨	٦,١٩ ٪
٣٣/١٩٣٢	٢٥١٦٣٩٤	١٥٩٥٢٠	٦,٣٤ ٪
٣٤/١٩٣٣	٢٧٠٤٨٥٦	١٧٩٦٣٥	٦,٦٤ ٪
٣٥ ١٩٣٤	٣٢٣٠٠١٠	٢٠١٤٩٨	٦,٢٤ ٪
٣٦/١٩٣٥	٤٢٣٦٢٠٢	٢٢١٠٨٧	٥,٢٢ ٪
٣٧/١٩٣٦	٦٠٧٣٥٠٢	٢٤٣٢٤٣	٤,٠٠ ٪
٣٨/١٩٣٧	٧٢٩٧٦٨٨	٣٠٠٧٤٢	٤,١٢ ٪
٣٩/١٩٣٨	٥٦٩٢٦٧١	٢٨٦٠٦٥	٥,٠٣ ٪
٤٠/١٩٣٩	٦٠٠٤٧٣٩	٢٨٥٢٧٢	٤,٧٥ ٪
٤١/١٩٤٠	٧٤٥٠٣٥٥	٣٠٢٠٧٩	٤,٠٥ ٪
٤٢/١٩٤١	٧٤٦٣٦٠٢	٣٨٥٢٠٤	٥,١٦ ٪
٤٣/١٩٤٢	١٠٢٥٣٢٨٣	٤٥٨٣٢٢	٤,٤٧ ٪
٤٤/١٩٤٣	١٤٨١٩٢٥٠	٦٥٢١٥٧	٤,٤٠ ٪
٤٥/١٩٤٤	١٨١٩٦٥٩٤	٧١١٩١٦	٣,١٩ ٪

Digitized by Birzeit University Library

ان المبالغ المبينة في الجدول السابق تمثل النفقات المقدرة في الميزانية للمعارف العربية واليهودية في البلاد أما التحققات في النفقات فلم تختلف كثيراً عن النفقات المقدرة واليك تحليل النفقات الحقيقية لسنة ١٩٤٤/٤٥ :

	جنيه	جنيه
١ — النفقات الادارية العامة للعرب واليهود	٤٤٢٢٩	٤٤٢٢٩
٢ — نفقات المدارس		
(ا) المدارس العربية		٥٣٧٧٥١
(ب) المدارس اليهودية		١٥٧٩٣٥
٣ — النفقات الاخرى		٢٤٨٧
المجموع		٧٤٢٤٠٢ جنيه فلسطيني

ان غاية التعليم الرئيسية في فلسطين هي ازالة الامية وتحقيق ذلك يقضي بنشر التعليم الابتدائي وتيسيره على الاقل لجميع ابناء البلاد ، ولكن سكان فلسطين العرب قد حرموا — بسبب سياسة الانتداب والوطن القومي — من الوصول الى هذا الهدف ، ففي البلاد اليوم حوالي الف قرية عربية كان يجب ان لا تخلو واحدة منها من مدرسة ابتدائية ، ولكن عدد المدارس الابتدائية في القرى لم يتجاوز بعد ٤٢٦ مدرسة فقط أي إنه ما نزال في القرى العربية حاجة الى ٥٧٤ مدرسة ابتدائية على الاقل . اما مدارس الحكومة الواقعة في المدن فيبلغ عددها اليوم ٧٨ مدرسة يدرس فيها ٣١٠٠٠ طالب وطالبة ، وعلى ذلك فان مجموع عدد المدارس الحكومية في القرى والمدن العربية هو ٥٠٤ مدارس يتعلم فيها حوالي ٨٠٠٠٠ طالب وطالبة . أما الامية فما تزال نسبتها بين العرب عالية جداً وقد قدر أن ٦٢ في المائة من مجموع سكان فلسطين العرب ما يزالون أميين . وعرب فلسطين — كما وصفت اللجنة الملكية — يرغبون رغبة اكيدة في التعليم وهذه الرغبة اصلها في نفوسهم

Digitized by Birzeit University Library

من جهة، الدين الاسلامي الذي تعتنقه اغلبيتهم فقد جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، ونشأت ذاتية فيهم بسبب ارتقاء مستوى معايشهم وادراكهم لمحاسن التعليم في القرن العشرين من الجهة الاخرى . ولكن المبالغ الضئيلة التي خصصتها حكومة الانتداب في ميزانيتها حالت دون تحقيقها كاملة .

أما الغاية الثانية للتعليم في فلسطين العربية ، وهي ترمي الى اعداد تلامذة تؤهلهم دراستهم الى الالتحاق بالكليات والجامعات والتخصص بالموضوعات التي يختارونها لانفسهم ، فما تزال الوسائط المعدة لها لا تفي بالحاجة الملحة . وهذا الضرب من الدراسة يطلق عليه في فلسطين (التعليم الثانوي) وتعريفه يشمل « كل انواع التعليم المدرسي بعد الانتهاء من الصف الابتدائي السابع الى دخول الجامعة ، ويستغرق على وجه التقريب حياة الطلبة من السنة الرابعة عشرة من العمر الى التاسعة عشرة منه[1] » .

توجد الدراسة الثانوية عند العرب في ست عشرة مدينة من مجموع عشرين مدينة عربية في البلاد . وهي على ثلاث درجات : الدرجة الاولى وتتألف من دراسة سنتين يقضيها الطلاب بعد الانتهاء من الدراسة الابتدائية، وينتخب التلامذة لهذه الصفوف على اساس الكفاءة . ويلي ذلك الدرجة الثانية في الدراسة الثانوية ، وتتألف من سنتين أُخريين يقضيهما الطلاب في الصفين الثانويين الثالث والرابع ، وبعد اجتياز الصف الرابع يتقدم الناجحون الى امتحان شهادة الاجتياز الى التعليم العالي المعروفة بـ (المتركيوليشن Matriculation) . اما الدرجة الثالثة فتتألف من دراسات فوق مستوى المتركيوليشن وهي اما دراسات ادبية ، واما علمية . والكليات التي فيها هذا اللون من التعليم، يتخصص طلبتها (وهم من سن ١٦ الى سن ٢٠) في الدروس العلمية، ويتخصص البعض الآخر في التربية، وقد يدرس بعضهم العلوم والتربية معاً.

---

١. A Palestine Suciety, Volume II, Pages 650—651

Digitized by Birzeit University Library

وفي البلاد اليوم خمس مدارس فيها صفوف ثانوية كاملة من الاول لغاية الرابع ، واحدة منها للبنات واخرى زراعية ؛ وفي جميع هـذه المدارس — ما عدا المدرسة الزراعية — صفوف لدروس التخصص .

بيد ان ما يؤسف له ان الدراسة الثانوية والدراسة العالية ليست مفتوحة امام جميع الطلبة العرب الذين يرغبون في متابعة الدراسة، وذلك ناشئ - على ما تقوله الحكومة - من قلة التخصيصات المالية للمعارف من جهة، ومن صعوبة ايجاد دروس ابتدائية للهن والفنون المختلفة. ويظهر لك الحيف الذي أصاب الطلبة العرب في فلسطين جلياً متى علمت ان مجموع عدد تلامذة المدارس الثانوية في فلسطين بلغ ١٢١١ تلميـــذاً في سنة ١٩٤٥ ، وبلغ تلامذة صف (المتركيوليشن) ١٠٠ تلميذ فقط ، أي ان ٩٨٨ من كل الف تلميـذ تقريباً يحرمون من التعليم الثانوي .

المعاملات البنكية : لقد انتشرت في البلاد من جراء تأسيس فروع البنكين العربيين ، بنك الامة العربية والبنك العربي ، عادة معاملة البنوك ، وانتشار هذه العادة بين المجتمع في بلد ما يعتبر من الادلة على ارتقاء مستوى المعيشة فيه. لقد كانت البنوك الاجنبية في هـــذا البلد تحصر معاملاتها ببعض الوجهاء وكبار الملاكين ، إلا ان التسعة عشر فرعاً التي انشأها بنك الامة العربية في تسع عشرة مدينة من العشرين مدينة عربية في فلسطين، والستة الفروع التي انشأها البنك العربي في ست من هـــذه المدن، هيأت السبيل وفتحت الباب أمام التجار والمزارعين وأرباب الصناعات والعمال ليتصلوا بها ويحصلوا منها على ثلاث خدمات رئيسية : يودعون نقودهم في البنك بفوائد او بدونها ويسحبونها عند الحاجـــة بشيكات ؛ يفدون الى البنك ليستلفوا منه في المواسم التجارية والزراعية : ويودعون اماناتهم لحفظها لدى البنوك .

وانك لتجد اليوم شيكات هذه البنوك يتداولها السكان العرب في جميع انحاء فلسطين العربية .

Digitized by Birzeit University Library

وهنالك خدمات اخرى تقدمها هذه البنوك لعملائها كقبول الحوالات وفتح الاعتمادات البسيطة والمستندية في الداخل والخارج. وإنك لتجد مديري البنوك ولا سيما في المدن الصغيرة يقومون باسداء النصح لعملائهم الذين يستشيرونهم في كثير من الشؤون التجارية والاجتماعية . وهذه المعاملات جميعها رقي في مستوى المعيشة .

خاتمة : وبعد فأحسبني قد اقمت الدليل على ارتقاء مستوى المعيشة في فلسطين العربية . ولكني اقف هنا لابين خطأ نسبة هذا الارتقاء الى عوامل غير الدوافع الذاتية في العرب انفسهم . تقول حكومة فلسطين في تقريرها الى اللجنة الانكليزية الاميركية ما ترجمته :

« ان التحسن في احوال معيشة العرب الفلسطينيين يرجع إلى ادارة فلسطين وفاقاً لشروط وعد بلفور والانتداب، وبكلمة اخرى يرجع هذا التحسن الى اعمال الحكومة ، ومساعي اليهود و مجهود العرب . وإن محاولة تقدير اثر كل من هذه العوامل على حدة يعتبر مفاضلة بغير حق بينها، فضلا عن أن ذلك ليس عملياً . وإن أياً من هذه العوامل لم يكن ليولد ، دون تعضيد العاملين الآخرين له ما ولدته تلك العوامل الثلاثة مجتمعة من قوة الاندفاع التي اتجهت بالعرب نحو التقدم الاجتماعي[١] ».

لقد ذاقت فلسطين العربية الامرين من هذه الادعاءات الباطلة التي يرسلها جزافاً حيناً بعد حين رجال من موظفي حكومة الانتداب البريطانيين، وآخرون من علماء الفلسفة الذين زاروا فلسطين إما كأعضاء في لجان التحقيق أو في زيارات خاصة قاموا بها بدعوة من الهيئات الصهيونية ولم يتصلوا بغير

---

١. A Palestine Survey, Vol. II, Page 729.

Digitized by Birzeit University Library

المنشآت اليهودية في البلاد، نسوا أو تناسوا ان في البلاد امة عربية عريقة في المدنية والحضارة. لقد بدا «وعد بلفور» لهؤلاء «كلمة سحرية»، «وقد تكون الكلمات السحرية مغنطيساً يجذب اليه اشياء كثيرة لا علاقة لها به.» فعلينا ان نميز بين أشياء وقعت في فلسطين العربية اثناء حكم الانتداب ولم تكن متصلة به أو نتيجة له. أجل فانه إذا لم تكن فلسطين العربية قد نكبت بوعد بلفور، ولم تكن تحت حكم الانتداب، فان هذه البلاد التي كانت حياة المدن والتجارة تتقدم فيها كما كانت تتقدم في بقية الاقطار العربية في الشرق الاوسط تقدماً سريعاً منذ اواخر القرن التاسع عشر، ربما وصلت الى هذا المستوى من التقدم والارتقاء، وربما وصلت الى ما هو أعلى منه. ذلك لان سياسة الانتداب تتلخص في «وضع البلاد في ظروف سياسية واقتصادية تسهل انشاء الوطن القومي». وتلك السياسة عينها هي التي انفقت بسببها أكثر الاموال التي دفعها المكلف العربي الفلسطيني على الامن العام وكان الاخلال به دائماً نتيجة مباشرة لوعد بلفور. ان المكلف في فلسطين يدفع من الضرائب اكثر مما يدفع أي مكلف آخر في الاقطار العربية الشقيقة. وقد بلغ معدل ما يصيب الواحد من السكان (١١،٠٤٢ مل جنيه) جنيهاً فلسطينياً في سنة ١٩٤٤ — ٤٥، ومع ذلك فان فلسطين العربية ما تزال محرومة من كل الخيرات التي تتمتع بها الاقطار العربية الشقيقة التي لا تعاني ويلات وعد بلفور ولا يحكمها الانتداب فقد انفق ثلثا الميزانية في سنة ٤٥—١٩٤٤ على الامن العام. وفيما يلي بيان بميزانية فلسطين خلال بعض السنوات اعتباراً من ١٩٣٤—٣٥ وما انفق منها على الامن العام:

	٣٥/١٩٣٤	٣٨/١٩٣٧	٤١/١٩٤٠	٤٤/١٩٤٣	٤٥/١٩٤٤
عدد السكان	١١٠٦١٣٤ جنيه فلسطيني	١٣١٨٠٧٧ جنيه فلسطيني	١٤٦٠٩٢٣ جنيه فلسطيني	١٥٨٤٢١١ جنيه فلسطيني	١٦٤٠٧٩٣٠ جنيه فلسطيني
مجموع الميزانية	٣٢٣٠٠١٠	٧٢٩٧٦٨٨	٧٤٥٠٣٥٥	١٤٨١٩٢٥٠	١٨١٩٦٥٩٤
نفقات الامن العام والحرب	٨٤٢٥٨٨	١٩١٩٧٢٣	٣٥٧٥٠٠٨	٩٢٠٠٨٤٥	١٢١٥٧٩٢٨
مجموع النفقات الاخرى	٢٣٨٧٤٢٢	٥٣٧٧٩٦٥	٣٨٧٥٣٤٧	٥٦١٨٤٠٥	٦٠٣٨٦٦٦

ان نصف الاولاد العرب على الاقل محرومون من التعليم الابتدائي ، وان ٩٠ في المائة منهم محرومون من اي نوع من التعليم الثانوي وذلك بسبب وعد بلفور ومع هذا فقد اعتبر بعض المتفلسفة وعد بلفور نعمة على عرب فلسطين !

إن وعد بلفور والانتداب قد منحا امتيازات البلاد الى اليهود كما سبق ان بينا في الفصل الخاص بأسباب المعيشة (الصفحة ١٣٧) وبذلك حالا دون استثمارها من قبل العرب وانفاق خيراتها في رفع مستوى معيشتهم .

ومما يدهش له الباحث حقاً ان الذين جعلوا وعد بلفور من عوامل رفع مستوى المعيشة عند العرب هم انفسهم الذين قالوا بوجود عزلة اقتصادية تامة بين العرب واليهود[١] في الزراعة والاسواق والمساكن والحياة الاجتماعية. وهنالك عزلة تامة بين العرب واليهود في شؤون التعليم والمعارف . فهل يعقل بعد ذلك ان يكون لوعد بلفور أثر في رفع مستوى المعيشة في فلسطين العربية ؟ ! اللهم ان ذلك افتئات على الحق . إن وعد بلفور كان نقمة على فلسطين العربية : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

١. A Palestine Servey Vol. III, P. 127

Digitized by Birzeit University Library

تصويبات

وقع في هذا الكتاب بعض اخطاء مطبعية لم تتمكن من تلافيها وفيما يلي طائفة منها

السطر ٥ من الصفحة ٦٠ وردت كلمة (طرقا) وصوابها (طرفا)
السطر الأخير من الصفحة ٦٣ وردت كلمة (آفة السر) وصوابها (السرافة)
السطر ١٣ من الصفحة ٧٨ وردت كلمة (وحمل) وصوابها (حمل)
السطر ١٨ من الصفحة ٧٨ وردت كلمة (وحمل) وصوابها (حمل)
السطر ١ من الصفحة ١١٠ وردت كلمة (كانوا) وصوابها (كن)
السطر ٩ من الصفحة ١١٠ وردت كلمة (التوسع) وصوابها (التوزيع)
السطر ١٦ من الصفحة ١٣٨ وردت كلمة (الصناعية) وصوابها (الصناعة)
السطر ١٠ من الصفحة ١٥٢ وردت كلمة (الخامس عشر) وصوابها (الخامس)
السطر ١٠ من الصفحة ١٦٧ وردت كلمة (٦٢ ٪) وصوابها (١٢ ٪)
السطر ١٨ من الصفحة ١٦٨ وردت كلمة (ما دون) وصوابها (دون)
السطر ١٣ من الصفحة ١٦٩ وردت كلمة (طبيعية) وصوابها (زيادة طبيعية)
السطر ١١ من الصفحة ١٧٣ وردت كلمة (لتنقل) وصوابها (التنقل)

Digitized by Birzeit University Library

تمّ الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library